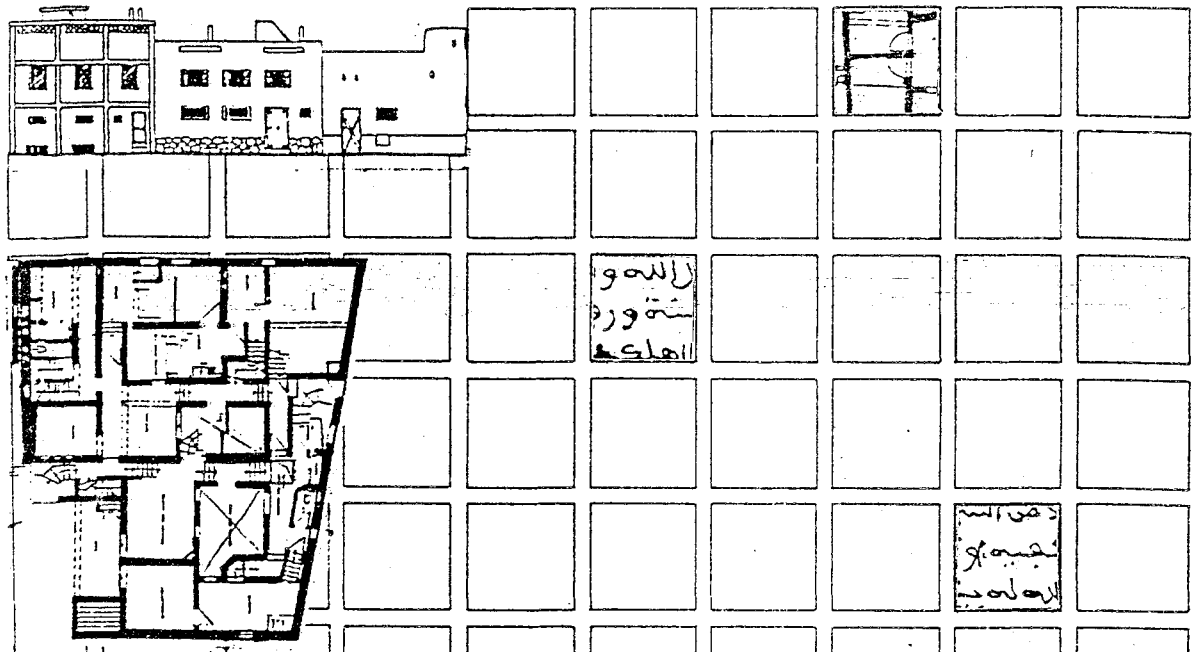


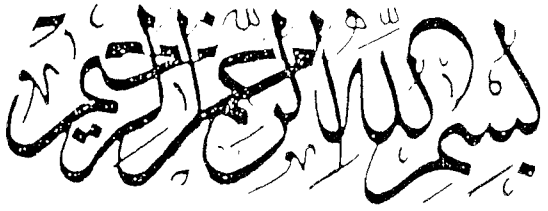
المعمار والممارسة الاجتماعية

مزاوجة بين الماضي والحاضر

إعداد: محمد الترنجي وخالد بوزيد

إشراف: المهندس المعماري الاستشاري بتونس
ساعد على الإشراف المهندس المعماري عبد الحميد بوزيد

الأستاذ المساعد بقسم الهندسة المعمارية بالمدرسة الوطنية العليا للمهندسين بتونس


بسم الله الرحمن الرحيم

I. التقديم

1. تقديم البحث

2. المعارف والممارسة الاجتماعية

تقديم البحث

١- مدخل عام
٢- الاشكالية
٣- منهجية البحث

تقديم البحث

١. مدخل عام :

انّ لكلّ مجموعة بشرية حاجيات ، وممارسات ، وعلاقات ، تميّز أفرادها وتربط بعضهم ببعض . كما أنّ لها علاقات وممارسات تربطها بمجموعات أخرى ، وهي في عمومها ترتكز على عوامل :

- تراثية تاريخية ،
- فكرية عقائدية ،
- بيئية مناخية ،
- اقتصادية معاشية .

وكلّ انتاج بشري ، هو انعكاس لهذه الحاجيات والممارسات والعلاقات . وباعتبارها لهذا الانتاج من تأثير مباشر في صياغة ممارسات وعلاقات وحاجيات جديدة للمجتمع ، فان هناك جدليّة في علاقة هذا الانتاج بهذه الأخيرة . وبما أنّ العمارة [1] جزء من هذا الانتاج البشري ، فانّ علاقتها بالممارسة الاجتماعية هي علاقة متينة وعضويّة .

وتشهد العمارة تحوّلات عديدة ، وتشكّلا دائم التغيّر ، ناتجا عن تفاعلها مع محيطها الطّبيعي والبشري ، متخذة في ذلك عدّة أشكال وأنماط ، باعتبار أنّ أسباب هذه التحوّلات عديدة ودائمة التحرّك والتطوّر .

ولكن ، ورغم أنّ هذا التحوّل والتطوّر يمثّلان قاسما مشتركا بين نمط معماري وآخر ، الا أنّه يختلف اختلافا كبيرا في مضمونه وأشكاله بين هذه العمارة وتلك . وهذا طبيعي ، نظرا للاختلاف الحاصل بين مميّزات كلّ منهما : فالعمارة ـ التي هي نتاج تفاعل بينها وبين محيطها المباشر الجغرافي والمناخي ، من جهة ، وثقافة المجتمع الذي صاغها ، من جهة أخرى ـ لن تكون الا استجابة مباشرة لحاجيات هذا المجتمع وممارساته .

- فما هي طبيعة هذه العلاقة بين العمارة والممارسة الاجتماعية ، ماضيا وحاضرا ؟
- وما هي طبيعة هذا التحوّل وأسبابه ؟

٢- الاشكالية

كثيرا ما تحدّث الباحثون المعماريون والاجتماعيون عن الوحدة والانسجام في العمارة الاسلامية التاريخية التي كانت انعكاسا لفكر المجتمع الاسلامي وممارساته وحاجياته فكانت بذلك مرآة لمجتمع تميز في هيكلته وتنظيماته باعتماده على قيم ومبادئ اسلامية مرتكزة على بعدي التوحيد والاستخلاف.

الا أننا نلاحظ اليوم أنّ العلاقة التي تربط الممارسة الاجتماعية (كما سنعرّفها فيما بعد في الصفحة ١٥) بالنتاج المعماري الحالي لا تعكس الوضعية الصحية التي يجب أن يكون عليها المجتمع وهذا النتاج، وذلك باعتبار وجود خلل في هذه العلاقة من حيث التجانس والتأثير والتأثّر، هذا النتاج الذي لم يقتصر فقط على عدم الاستجابة الموفّقة لممارسات المجتمع وحاجياته الموضوعية والمتطوّرة، بل أصبح يساهم في صنع ممارسات وحاجيات منبتة وغريبة عن واقعه المادي والفكري والنفسي اضافة الى القطيعة التي حدثت مع موروثه الثقافي في بعديه المادي والمعنوي حيث أصبح المجتمع يخضع لأسس وقيم ثقافية غريبة عنه تعرّض لها وانصهر فيها تحت شعاري العالمية [2] (universalisme) والمدنيّة الحديثة [3] التي دخلت عليه نتيجة توقّفه عن الابداع في اطار التواصل الحضاري والتي هي في حقيقة الأمر ليست الاّ ثقافة خارجية مسقطة عليه وعلى كثير من المجتمعات الأخرى مما أحدث فيه تصدّعا على مختلف المستويات المادّية والفكرية والنفسية.

نظرا لما سبق وباعتبار أنه لا سبيل لتقدّم أي مجتمع وخروجه من أزمته الحضارية " الا على أساس التاريخ والثقافة التي يمتلكها [4] " فانّه يجب استنباط أسس معمار يستجيب لحاجيات المجتمع الحديثة ويلائم واقعه المادّي ومحيطه الطّبيعي، ومتأصّل باعتماده على أصوله الفكرية والعقائدية التي صاغت نتاجه المعماري الموروث ليواكب تطوّر المجتمع في مسيرته الحضارية.

إذن فاشكاليتنا تتمثّل في الوقوف على :

- طبيعة العلاقة الرابطة بين المعمار والممارسة الاجتماعية قديما وحديثا.
- استنباط أسس المعمار الذي يستجيب لحاجيات المجتمع الحديثة والمرتبط بعمقه الثقافي وأصوله الحضارية.

* فما هي الأرضية المناسبة التي يمكن من خلالها معرفة العلاقة القائمة بين المعمار والممارسة الاجتماعية ؟

* كيف نستطيع ملامسة هذه العلاقة ؟

* فيما تتمثل هذه العلاقة وما هي طبيعتها ؟

* وكيف يمكن لنا أن نستنبط أسس المعمار الحديث والمنشود ؟

٢- منهجيـــة البحث

تضمنت الاشكالية المطروحة تساؤلات حول موضوع المعمار و الممارسة الاجتماعية ، سنحاول في هذا البحث الاجابة عنها و معالجتها بالطرق و الوسائل المتاحة لنا كدارسين في ميدان الهندسة المعمارية. لذلك قمنا برسم منهجية حرصنا أن تكون متماشية موضوعيا مع الاشكالية العامة للبحث.

فالبحث في موضوع المعمار و الممارسة الاجتماعية يتجلى حسب تصوّرنا في اختيار النموذج المعماري و الاجتماعي المناسب، الذي نستطيع من خلاله ملامسة العلاقة القائمة بين المعمار و الممارسة الاجتماعية بقدر من الوضوح ، و حرصا منا على أن تكون دراستنا أكثر موضوعية و علمية فقد اخترنا دراسة انتاج معماري خارج محيطنا المباشر الذي اعتدناه (5) و دون أن يكون غريبا عنا ، فكان اختيارنا على منطقة وادي ميزاب الواقعة في القطر الجزائري باعتبار تميّز هذه المنطقة بمعمار كان في كثير من جوانبه انعكاسا واضحا لممارسات المجتمع و استجابة مباشرة لحاجيات سكان هذه المنطقة ذوي الأرضية الفكرية و العقائدية و التاريخية المتميزة ، و ذلك الى عهد ليس ببعيد ، حيث شهدت هذه المنطقة ظهور أنماط معمارية و عمرانية مغايرة ، جاءت نتيجة تحولات عديدة شهدها المجتمع و ذلك على المستوى الفكري و السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي و بالتالي الثقافي عموما ، مما ولّد اختلافا بين النتاج المعماري الموروث و الحديث و بين الممارسة الاجتماعية ماضيا و حاضرا.

و سعيا منا للبحث في ماهية و طبيعة العلاقة التي تربط المعمار بالممارسة الاجتماعية ماضيا و حاضرا فإننا سنعتمد الملامسة و القراءة المباشرة التي تتبعها عملية تجريد نقوم بها على الانتاج

المادي و بعض من الانتاج الفكري لهذا المجتمع بدون فصله عن إطاره الحضاري الإسلامي ،نستنبط من خلالها أسس المعمار المنشود الذي تحدثنا عنه آنفا ·

و عملا بهذه المنهجية ،فإننا سنبدأ :

أولا : بدراسة العلاقة التي تربط المعمار الموروث بالممارسة الاجتماعية قديما و التي لا نستطيع أن نقوم بها الا بعد دراسة الاطار التاريخي و الطبيعة العقائدية و الفكرية لهذا المجتمع خاصة أنه يعتبر من المجتمعات التاريخية التي وجدت على أساس الفكر (6) و ذلك دون أن ننسى دراسة كيفية تعامل هذا المجتمع مع محيطه الطبيعي،الجغرافي و المناخي ·

لذلك فاننا سنعتمد على ما هو مدوّن من مخطوطات و مقالات و قوانين مسمّاة بالاتفاقات " وهي عبارة عن مراسم و قواعد تصدرها هيئات معيّنة تقوم بدور السّلطة و التّسيير في ميزاب " ، (7) و مختلف الاحكام التي وجهت و صاغت عملية البناء و التعمير لمدّة قرون طويلة و كيف كان تأثير ذلك ، كما أننا سنعتمد على دراسة الأسس الفكرية و العقائدية التي كانت وراء هذه القوانين ذاتها ،حتى نفهم الاطار الفكري و النفسي العام الذي يعتبر خيط التواصل الحضاري لهذا المجتمع،و لكننا لن نكتفي بذلك فقط و لو أنها تعبّر بصدق عن توجه و ارادة واختيارات المجتمع بأسره باعتبار عدم صدورها عن سلطة خارجة عن المجتمع ذاته (8) · بل إننا سنعتمد أيضا على بعض من الذاكرة الجماعية الحية و الموروثة للمجتمع،و ذلك بالمقابلات المباشرة مع الشيوخ و الرجال الساهرين على مختلف الهياكل الاجتماعية و حتى بعض الشباب الذين مازالوا يحملون بعض الروايات و المفاهيم والأعراف الموروثة و المتناقلة جيلا بعد جيل ، هذا الى جانب البحث في مدلولات بعض الأقوال و الأمثال و الحكم الشعبية و ما شابهها · بعد هذا كله ، سنحاول البحث عن انعكاس ما توصلنا اليه على النتاج المعماري الموروث و ذلك بالاعتماد على عدد هام من الخرائط و الرسوم و القياسات والصور للمعمار القديم ، و دراستها دراسة فنية من ناحية واجتماعية من ناحية أخرى لفهم مدى انعكاس الممارسة الاجتماعية على العمارة في مختلف فضاءاتها و ذلك على مستوى المدينة ككل ،أو على مستوى مختلف العناصر المكونة لها (المسجد ، السوق ، المساكن ، الطرق و المسالك ، ··) لنفهم أخيرا طبيعة العلاقة بين المعمار و الممارسة الاجتماعية في الماضي و نستخلص من ذلك الأسس الفكرية و العقائدية التي صاغت هاته العمارة و مثلت الخيط الرابط لمختلف المراحل

التاريخية في الانتاج الحضاري لهذا المجتمع.

ثانيا : إن التحوّل الذي شهده المجتمع الميزابي في بنيته الفكرية و ممارسته الاجتماعية ، و كذلك في نتاجه المعماري ، لم يكن منفصلا عن العوامل التاريخية و السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية التي تعرض لها . لذلك فإننا سنحاول درس هذه العوامل في طبيعتها و علاقتها بالمجتمع، و مجال تدخلها و تأثيرها عليه ، حتى نعرف مدى مساهمتها في صياغة التّحول الذي شهده هذا المجتمع، و ذلك بالإعتماد على بعض الدّراسات الاجتماعية و السّياسية و الاقتصادية التي تعرّضت لذلك ، و المعطيات و المعلومات المتعلقة بهذا التحول ، حتّى نحدّد ماهيته (فيما يتمثل ؟) ودرجته (ظاهري و شكلي أم عميق و جوهري) و طبيعته (التواصل أم التحول أم القطيعة ؟) و الانعكاسات الحاصلة عنه (فيما تتمثّل ؟) .

ثالثا : إن دراسة المعمار و الممارسة الاجتماعية حديثا ، تقتضي منا معرفة الممارسات و الحاجيات الاجتماعية المستحدثة و ربطها بعوامل التحول التي كانت السبب في وجودها ،وبالتالي ، ابراز الحيّز المعماري و المجالات التعميرية التي انعكست عليها و صاغتها .

و المعمار الحديث يتضمن جزءا يعبّر عن حقيقة التحوّل الذي شهده المجتمع في ممارسته ، باعتبار ما يمثّله من صياغة ذاتية ، غير مفروضة عليه ، فهو يلبّي حاجاته و يعكس طموحاته . و جزءا آخر "معزولا" عن الاختيارات الذاتية للمجتمع، و يساهم الى حدّ كبير في صنع ممارسات حديثة و حاجيات جديدة ، و يحمل في طياته ، مؤشّرات تحوّل في ممارسة المجتمع و نتاجه المعماري ،و هذا الجزء يتمثّل ، أساسا ، في المعمار المخطّط من قبل السلطة . و لذلك رأينا من الضّروري تقسيم المعمار الحديث الى قسمين رئيسيين :

1) الانتاج المعماري الذّاتي

2) المشاريع و البرامج المعمارية و التعميرية المخطّطة من قبل السلطة .

و دراستهما كلاّ على حدة ، و ذلك للإستنباط ، من القسم الأوّل : الممارسة الاجتماعية الحديثة و الحاجيات المستحدثة و التّلقائية لهذا المجتمع، و من القسم الثاني : الممارسة الحديثة للمجتمع، الذي هو نفسه لا يستطيع أن يتفاعل معه الاّ بعد تكييفه ، و نرى من الضروري كذلك دراسة هذا القسم الثاني لمعرفة مدى تأثيره على المحيط الثّقافي (المادي و المعنوي) لهذا المجتمع،

و ذلك بالقراءة التحليلية لمختلف المشاريع و المخطّطات و القوانين المتعلقة بالعمارة ، إلى جانب المشاهدة العينية و الاستجوابات و معاينة ردّ الفعل المجتمعي تجاه هذا النّتاج لنستخلص في الاخير و من كلّ ما سبق الممارسات و الحاجيات الموضوعية التي يجب أن نأخذ بها في صياغة رؤيتنا للعمارة المستقبلية .

و تتويجا لبحثنا ، يأتي تدخلنا في إطار مشروع اعادة هيكلة لحيّ من أحياء مدينة غرادية بميزاب و هو حيّ قدماء المجاهدين الذي يمثل نقطة وصل بين النسيج العمراني القديم للمدينة و نسيجها الحديث محاولين بذلك معالجة و تجسيد الاستخلاصات الحاصلة من الجزء التحليلي لهذا البحث .

و الجدير بالذكر هنا هو أن المشروع لم يكن منفصلا عن التحليل ، بل كان انجازه متوازيا معه حيث اعتمدنا التحليل في صياغة هذا المشروع بالرجوع الى الاستخلاصات ، كما أننا وجدنا أنفسنا مجبرين في كثير من الأحيان لتحليل بعض الممارسات الاجتماعية أو العناصر المعمارية كلما تقدمنا في مراحل انجاز المشروع فكان بذلك هذا العمل متوازيا بين جانبيه التحليلي النظري و العملي .

المعمار والممارسة الاجتماعية

١- تعريف الممارسة الاجتماعية
٢- المعمار والممارسة الاجتماعية عموماً
٣- المعمار والممارسة الاجتماعية في الحضارة الاسلامية

المعمار والممارسة الاجتماعية

١. تعريف الممارسة الاجتماعية

الممارسة الاجتماعية هي كل النشاطات الحياتية، المعنوية و المادية، الفردية أو الجماعية التي تخضع لمجموعة علاقات :

1) • علاقة الانسان بالله

2) • علاقة الانسان بالكون •

- علاقة الانسان بأخيه الانسان •
- علاقة الانسان بالطبيعة •

و التي تحكمها نظم اجتماعية يعرّفها (J.O. Hertzler) بأنها "كلّيات ثقافية أساسية منظّمة و هادفة تتكون من قوانين و قواعد و مثل عليا مدونة و غير مدونة و من الادوات اللازمة و الوسائل التنظيمية و الرمزية و المادية • و تحقق نفسها، اجتماعيا، في الممارسات الموحّدة المقنّنة و الشّرعية، و فرديّا، في الإتّجاهات و السّلوك التعوّدي للأفراد • و يقوم الرّأي العام على دعمها و تنفيذها بصفة رسمية و غير رسمية عن طريق الهيئات الخاصّة التي ترعاها •" (٩)

كما تقوم هذه الممارسات في إطار زماني و مكاني معيّنين كثيرا ما يرتبطان بها ارتباطا وثيقا •

٢. المعمار والممارسة الاجتماعية عموماً -

لقد تعرضنا في المدخل العام لهذا البحث إلى الجدلية القائمة بين الانتاج المادّي لأيّ مجموعة بشرية و الممارسات التي تميز أفرادها وتربط بعضهم ببعض و تربط بينها و بين مجموعات أخرى • و من هذا المنطلق نستشف مدى العلاقة القائمة بين المعمار - باعتباره جزءا من الانتاج المادّي للمجتمع - و الممارسة الاجتماعية التي تميّز هذا المجتمع •

عموما و عبر التاريخ، تميزت العمارة بجملة من الخصوصيات التي ترتكز على معطيات فكرية عقائدية، تراثية تاريخية، بيئية مناخية و اقتصادية معيشية، و كل حضارة من الحضارات تميزت بعمارة معينة، عمارة كانت الى حدّ

كبير تعكس نمط عيش مجتمعها و منهج تفكيره و بالتالي ممارسته الاجتماعية . فالعمارة الفرعونية مثلا ، التي تعكس علاقات العبودية و الاستكبار و الاستعلاء في الأرض ، كانت عمارة عظيمة و شاهقة تبرز من خلالها عملية احتقار الانسان كفرد في المجتمع و تعظيما و تقديسا "لفرعون الاله" ،"وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ " (١٥)

"إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" . (١٤)

لذلك فإن هذه العمارة امتازت بنسب و احجام ليست في مستوى حجم الانسان ، بل كانت مرتفعة الى درجة يصبح فيها الإنسان مسحوقا أمامها ،و العمارة اليونانية التي تأثرت بالفلسفة اليونانية ، أعطت قيمة كبيرة للانسان و الذات البشرية كمحور في هذا الكون ، فكانت النسب و الاحجام و الهيكلة للمدينة اليونانية في مستوى الانسان و اختلفت من هذه الناحية اختلافا كبيرا عن العمارة الفرعونية ، و كذلك العمارة الرومانية و الفارسية و البيزنطية ... فقد كانت تعكس الى حد كبير المفاهيم و السلوكيات الاجتماعية ، و النظم السياسية و الاقتصادية التي حكمت هذه المجتمعات ، مما جعل الكثير من الباحثين الاجتماعيين يعتمدون على ما تبقى من هذه العمارات في دراسة هذه المجتمعات و كانت بذلك مرجعا أساسيا لهم .

و الحضارة الاسلامية كبقية الحضارات ميزتها هي الاخرى خصوصيات تضمنت مفاهيم و نظم اجتماعية وسياسية حكمت المجتمع الاسلامي و انعكست على عمارته .

٣. العمار والممارسة الاجتماعية في الحضارة الاسلامية

إنّ علاقة العمارة بالمجتمع ،علاقة تنظمها قواعد اجتماعية وسلوكية من جانب كما تؤثر عليها محدّدات مكانيّة وبيئية من جانب آخر ... فالقواعد الاجتماعية والسلوكية في المجتمع الاسلامي تحدّدها الشريعة الاسلامية وقيمها أما المحدّدات المكانية فتختلف من منطقة الى أخرى وان كانت أحكام الشريعة والقيم الاسلامية تؤثر في بعض جوانبها التنظيمية والتشريعية .وهكذا فعلاقة العمارة بالمجتمع الاسلامي هي في الواقع علاقة تحدّدها أحكام الشريعة والقيم الاجتماعية ،وهي ذات جانبين : الأوّل مادّي ويرتبط بالاقتصاد الاسلامي والتكافل الاجتماعي بين المسلمين ،والثاني ، وظيفي يرتبط بحقوق الأسرة وحقوق الجار ... الخ (١٤٢) .

"فالمضمون الاسلامي في النظرية المعمارية ،وان كان يشمل الجوانب الوظيفية البحتة مع الحرص على تطبيق التعاليم والمفاهيم الاسلامية عند التعامل مع كل عنصر من عناصر البناء ،فانه لا يعني الالتزام بما جاء مباشرة في القرآن الكريم أو السنة المحمّدية المطهرة في هذا الشأن فقط ،ولكنّه يعني أيضا تطبيق كل ما يساعد على تيسير أداء المسلم للتعاليم والقيم الاسلامية في مكان العبادة أو السكن أو العمل أو الترفيه أو اللقاء ،فاذا كان المضمون هو المحرك الأساسي ليد المعماري وفكره والذي لا بدّ له أيضا أن يرسخ في وجدان المجتمع المسلم ،فان العمل المعماري في النهاية هو نتاج لتفاعل الفكر المعماري مع الرغبات والمتطلبات العامة للمجتمع" (43) .

"فكان الدّين أوّل الامر مانعا من المغالاة في البناء والاسراف فيه في غير القصد كما عهد عمر بن الخطاب للذين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة ،وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل ،فقال : افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنّة تلزمكم الدّولة . وعهد الى الوفد أن يتقدم الى الناس بأن لا يرفعوا بنيانا فوق القدر . قالوا : وما القدر؟ قال :ما لا يقربكم إلى السّرف ولا يخرجكم عن القصد ... هكذا كان الفكر الاسلامي هو الموجه لعمليات البناء وكان الالتزام بالقدر الذي وضعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو "ما لا يقرب إلى السّرف ولا يخرج عن القصد " وهذا هو معنى الوسطية في النظرية المعمارية كما حدّدها الاسلام . " (44)

فالبحث اذن عن الشكل في عمارة المسلمين يمكن أن ينطلق أيضا من ناحية المفهوم الاجتماعي في الاسلام ـ في المساواة ،في التواضع،في التكافل ـ بحيث تظهر عمارة الخاصة من الخارج معبرة عن هذه المفاهيم من خلال التجانس والبساطة وعدم التطاول في البنيان اقتداءا بحديث الرسول عليه الصّلاة والسلام بخصوص حقّ الجار" ... ولا يستطيل عليه في البنيان فتحجز عنه الريح إلّا بإذنه... " مع عدم الاسراف المخل بالقيم الاجتماعية أو الاثارة الطبقية ،فالمسلمون أمام الله كأسنان المشط في المساواة . فالمظهر الخارجي للعمارة تحدده القيم العامّة للمجتمع أما المظهر الداخلي فتحدده القيم الخاصة بأفراد المجتمع يظفي عليه الفرد ما في مقدوره من امكانيات دون اسراف أو تقتير . فالاسلام يحدّد علاقة الفرد بالمجتمع بعدد من السلوكيات والقيم الاجتماعية والنظم الاقتصادية كما يحدد علاقة الفرد بنفسه من خلال عدد من السلوكيات والعبادات التي تربط الانسان بخالقه فتكون بذلك ذاتية الفرد في باطنه أما ذاتية المجتمع ففي ظاهره... ولا يعني ذلك أن ينفصل الظاهر عن الباطن ولكن لكل منهما تعبيره المعماري الذي يرتكز على القيم الاسلامية للمجتمع في الخارج والفرد في الدّاخل . وهذا الشكل في كلتا الحالتين يعبّر عن القيم الاسلامية في العفوية والصفاء والصدق وتظهر في التعبير الصريح عن

طبيعة مادّة البناء وطريقة الانشاء دون افتعال أو انفعال وذلك لا يتعارض مع الاضافات التكميلية لبعض العناصر الفنية المرتبطة بالتّراث الثقافي الذي استقرّ في وجدان المجتمع وأضفى عليه سمتي التميز والاستمرارية الحضارية ." (15)

وهكذا يتبيّن لنا مرّة أخرى ،الصّلة الوثيقة التي تربط المعمار بالممارسة الاجتماعية ،وأنّ المعمار ما لـــم يتولّد عن الممارسات الاجتماعية السائدة في المجتمع يتأزم ويصبح في تناقض تام مع محيطه،لأنّ المعمار ليـــس مخبرا اجتماعيا في حدّ ذاته (Laboratoire sociologique) خاضعا لتيّارات سياسيّة أو نظريّة مستوردة ،بل هـو أوّلا وقبل كل شيء ممارسات اجتماعية متجذّرة وايجابيّـة .

هوامش

(1) المقصود بالعمارة المعمار (Architecture) وليس عمارة الأرض بالكلية.

(2) انظر في ذلك "العودة الى الذات" ص 15 — ص 25

(3) انظر في ذلك "الاسلام والمدنية الحديثة" ص 4

(4) "العودة الى الذات" ص 11

ولا يعني ذلك القطع مع مكاسب الثقافة الانسانية بما يفيده ويساعده في الانطلاق نحو الاسمى والأفضل.

(5) لمزيد التوضيح في مسألة البحث الموضوعي انظر في ذلك : العائلة الميزابية : البنية التقليدية والتحولات الحديثة ص 18 — 19

(6) لمزيد التفصيل انظر في ذلك : "ميلاد مجتمع" سلسلة مشكلات الحضارة.

(7) "العائلة الميزابية" البنية التقليدية والتحولات الحديثة.

(8) هذه الهياكل الاجتهادية والتنفيذية هي هياكل اجتماعية لا سياسية بالمفهوم المتداول ،أي المنفصلة عن المجتمع.

(9) الثقافة والشخصية ص 104

(10) سورة القصص ، الآية 38 — 39

(11) سورة القصص ،الآية 4

(12) من محاضرة للدكتور عبد الباقي ابراهيم ألقيت خلال ندوة أقيمت بالقيروان في اطار الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في 1 — 2 — 3 نوفمبر 87 وهي بعنوان العمران والعمارة في الحضارة الاسلامية

(13) نفس المرجع.

(14) عبد الباقي ابراهيم (المحاضرة).

(15) نفس المرجع

II - ميزان المعمار والممارسة الاجتماعية

قديما وحديثا

1- خاصيات ميزان

2- المعمار والممارسة الاجتماعية في ميزان قديما

3- عوامل التحول في ميزان ومؤسساته

4- المعمار والممارسة الاجتماعية في ميزان حديثا

۱- خاصیت میزان

۱- المدخل التاریخی
۲- الموقع الجغرافی والواقع المناخی
۳- الطبیعة الفکریة والعقائدیة

II - ميزاب: المعمار والممارسة الاجتماعية قديما وحديثا

1 - خاصيات ميزاب

1 - المدخل التاريخي

ان التعرض لتاريخ سكان وادي ميزاب في هذا البحث هي مسألة هامة بل ضرورية لمعرفة خصائص هذا المجتمع الفكريه والعقائدية التي صاغت حياته وثقافته المادّية والمعنوية ،خاصّة وأن هذا المجتمع هو مجتمع من "النموذج الفكري" الذي رأى النور تلبية لندا" فكرة (15) اذ هو مكون من عرب وبربر جاؤوا من الشرق والغرب ، من العراق والحجاز ،من المغرب والجزائر وتونس وليبيا (16) ،لا يجمع بينهم دم ولا عرق ولا نسب ،بل ان وادي ميزاب نفسه بما يمتاز به من مناخ صحراوي جاف وأرض جدباء بين صخور جرداء ناتية عن أماكن العمران البسيطة ، لا يستطيع أن يجلب اليه الا من كانت الحياة لديه آخر ما يسعى اليه . اذن فقد كان الفكر الاباضي والمذهب الاباضي هو الدافع الوحيد في تجمع هذه العائلات وهؤلاء الناس ذوى الأصول المختلفة والمتباعدة ،كما أن هدف الحفاظ على هذه العقيدة و هذا المذهب هو الدافع الوحيد في بقاء هؤلاء في هذه المنطقة وفي هذه الظروف الحياتية الصعبة والعسيرة . ونحن اذ نورد ما سبق ،فاننا نهدف بذلك مكانة الفكر والعقيدة لدى هذا المجتمع أفراده وجماعاته في صياغة مختلف مناهج حياتهم ،في الممارسة ،في السلوك ،في العلاقات ،بل قل في هدف حياتهم ، وهم "الذين سمّوا "بالشرّاة" أى الذين باعوا أنفسهم لله من قوله تعالى : "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ" (18) . فانعكاس قيم الاسلام ومناهجه الحياتية والسلوكيّة على الحياة المادية والمعنوية لهذا المجتمع شيء لا جدال فيه ، "وهم الذين سمّوا كذلك بالخوارج اشتقاقا من "الخروج في سبيل الله" أخذا من قوله تعالى : "وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ." (19)

والاباضية كفرقة من فرق الخوارج لم تخرج مرّة واحدة ،بل تتكرر هذه الظاهرة دائما عبر التاريخ ،وسواء كان ذلك محتوما أو ماديا ،بعدم الخضوع الى أى سلطان أو امام لا يحكم بما أنزل الله (وذلك حسب المذهب الاباضي طبعا) حيث كان أول شعار لهم "لا حكم الا لله" عندما رفعوه ضدّ علي بن أبي طالب حين رضي بالتحكيم بينه وبين معاوية رغم "أنهم يقرّون بأنه" الامام المحق" ويقرّون له بالامامة والعلم والنسب وأنكروا عليه التحكيم قائلين أن ما ردّ الله فيه الحكم الى الحكمين ... ارتدّ اليهما وما حكم فيه ولم يردّ الحكم فيه الى أحد مضى حكمه كقتال الفئة

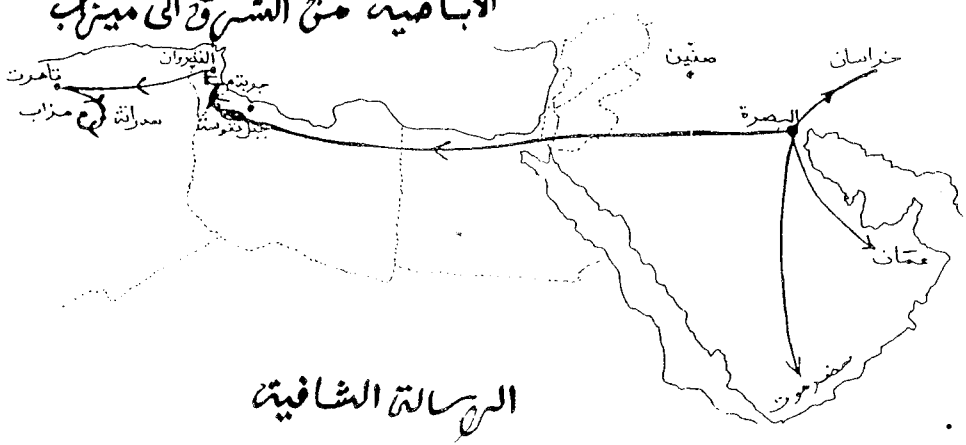
الباغية" (20) . لذلك ترى أن الاباضية لم يخضعوا في أي مرحلة تاريخية لأي دولة غير الدّول الاباضية كالدولة الرّستمية . وفي غياب الدّولة الاباضية اعتمدوا في تسيير شؤونهم الحياتية وصياغة ممارساتهم الاجتماعيّة على تنظيمات ذاتية محلية تستمدّ تشريعاتها وأحكامها من المذهب الاباضي ،أوبالهجرة من مكان الى آخر حيث كان أول خروج لهم من "صِفّين" ،أين وقعت المعركة بين علي ومعاوية الى قرية من الكوفة تسمى "حَرُوْرَاءُ" (21) "بعد ما يئست هذه الجماعة من رجوع علي الى رأيهم اجتمعوا في منزل أحدهم ، وخطب خطيبهم يقول : "أما بعد ، فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمان وينيبون الى حكم القرآن ،أن تكون هذه الدنيا ... آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ،وان مُنّ وَضُرّ ،فانه من يُمُنّ ويُضَرّ في هذه الدّنيا ،فانّ ثوابه يوم القيامة رضوان اللّه عزّ وجلّ والخلود في جنّاته ،فأخرجوا بنا اخواننا من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور الجبال ، أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلّة" (22) .

وتواصل هذا الخروج "اتقاءً للفتنة وحفظاً للدين" أي مذهبهم وعقيدتهم فخرج الكثير منهم الى عمان واليمن والمغرب بعد حروب كثيرة وشديدة مع الأمويين أظهر فيها الخوارج شدّة وبأسا ،حيث "أخلصوا لعقيدتهم وقاتلوا دفاعا عنها ،ولهذا نظر اليهم كثير من خيرة النّاس نظرة عطف واشفاق ،فقد روي أن علي بن أبي طالب ، في أواخر أيامه قال : "لا تقاتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه" (23) . ومن الروايات عن شدّة الخوارج وبأسهم في الدّفاع عن دينهم وعقيدتهم بكلّ اخلاص "أن ابن زياد أرسل أسلم ابن زرعة في ألفين لمحاربة فرقة من الخوارج ،فهزمه ابن بلال الخارجي في أربعين من أصحابه . " كما يروي أبو الفرج الأصفهاني في "الاغاني" أن أم حكيم الخارجية التي رفضت الزّواج من الكثيرين والتي كانت من أجمل النساء ،كانت تحمل على النار في الحرب وترتجز :

أحمل رأسا قد سئمت حمله *** وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عنّي ثقله

"هاته الصفات ،أعني الشدّة في الدين والاخلاص للعقيدة والشجاعة النادرة ..." (24) هي التي رسمت ملامح هجرة الاباضيين من تيهرت الى سدراته ثم الى وادي ميزاب حيث اتّبعوا سيرة امامهم عبد الله بن اباض الذي سلك بأصحابه محجّة العدل وفارق سبيل الضلالة والجهل" (25) ،وذلك بعد أن دمرت دولتهم ومركز امامتهم تيهرت فلم يرضوا بالركون الى الحكم الفاطمي والتخلّي عن مذهبهم ،بل اختاروا العيش في صحراء قاحلة تصعب فيها الحياة ويقل فيها أسباب العيش اعتقادا منهم بأنّ " مذهب الاباضيّة الوهبيّة هما الحق

الاباضية من الشرق الى ميزاب



الرسالة الشافية

والحمد لله ٥ الباب الخامس من الرسالة ٥

جرى تسمية اهل هذه القرى الخمس بالسبع بني مزاب بضم الميم وتخصيصهم بهذا الاسم ثم كثرة دارة الحاء بعد الزاي والصواب بني ميزاب بميم مكسورة بعدها ياء مبدلة من واو ومعنى بني ميزاب اصحاب الميزاب فهو اسم تاهل له كل اباضي وهي من اهل الدعوة ولو من عمان وذالك انهم كلهم يقفون في الطواف تجاه ميزاب الكعبة للدعاء، ولا يقفون في ذالك سواهم من اهل المذاهب اول ان ابو بلال مرداس بن حدير دخل الحجر الحكيم في ليلة مقمرة صاحية يدعو ربه هم الله دينه وفكرت عليه فكرة من الميزاب علامة لاجابة الدعاء، ولاصحاب وذالك انه كانت الميزاب يدعو الله راغبا لهوانا جاهرا ربكم الله ربانا فسمعه اهل الطواف فامنوا على دعائه ووجه الاول

لجريانهما على القرآن والسّنة" (26) وبذلك عبّروا مرّة أخرى عن تمسّكهم الشديد بعقيدتهم وعن تضحيتهم بكل شيء في سبيلها ورفضهم الركون للدنيا ولمن لا يحكم بما أنزل الله" فلا حكم الا لله" (حسب المذهب والفكر والتشريع الاباضي) هو سبب وجودهم وهو شعار حياتهم وهدفها .

وتكمن هنا أهمّية ما نورده من معلومات ومعطيات تاريخية في تحديد ملامح هذا المجتمع في علاقاته وحاجياته وممارسته التي صاغت نتاجه المعماري والتي كانت محدّدة له .

"على أنّه لا يؤخذ ممّا سبق أن عمران ميزاب كان دفعة واحدة ،وبصفة جماعيّة ،انّما كان تعاقبا وفي فترات امتدّت فيها الهجرة من هنا وهناك ،من ورقلة وسدراته ووادي ريغ وجربة والساقية الحمراء وتافيلالت بالمغرب وجبل نفوسة بليبيا وغيرها . في مدّة قرنين أو ثلاثة قرون ." (27)

الّا أن ذلك لا يعني أن منطقة وادي ميزاب لم تكن مسكونه قبل ذلك ،أي قبل وفود القبائل والعائلات الاباضية اليها . ذلك أن بعض المؤرخين وحتّى الاباضيين يذكرون أنّ هذه المنطقة كانت مسكونة من قبل بعض القبائل البربرية التي كانت على مذهب المعتزلة والتي تحوّلت بعضها (حسب قول الشيخ اطفيش) الى المذهب الاباضي على يد الشيخ محمد بن بكر (28) .

ونشير هنا الى أنّه كانت بوادي ميزاب – قبل انشاء أوّل مدينة ميزابية – بعض القرى والمداشر التي اندثرت ولم يبق منها الا بعض آثارها والتي لا يُعرف عنها الى حدّ الآن الا القليل والمتعلق خاصّة بأسمائها ومواقعها نذكر منها : ("تعزرت" "ترشي" و" أكنونای" ...) (29)

أمّا عن نشأة مدن ميزاب السّبعة فقد كانت على التّوالي :

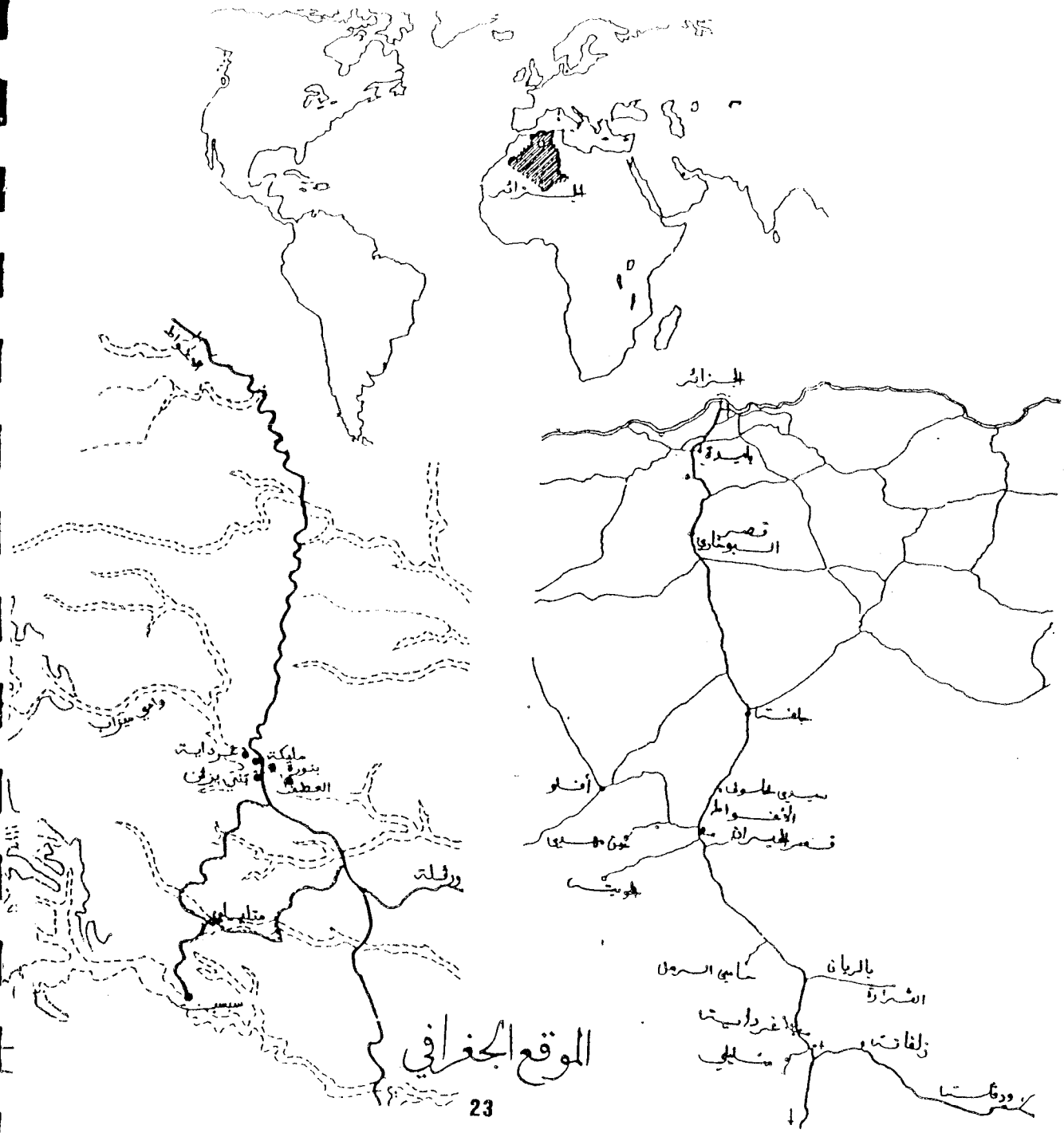
العطف سنة 1012م ،ثم بنورة سلة 1046 م ،ثمّ غرداية سنة 1053 م ،ثم مليكة سنة 1124 م ،ثم بني يزقن سنة 1347م ،ثم القرارة سنة 1630م ،التي تبعد عن غرداية بمسافة قدرها 85 كم ،ثمّ في الأخير بريان سنة 1679 م ،والتي تبعد عن غرداية بمسافة قدرها 48 كلم .

ويرجع هذا التعدّد في المدن – كما تذكر بعض المصادر التاريخية – الى عدّة عوامل منها ما هو دفاعي ومنها ما تعلّق باتساع العمران وكثرة السكّان ومنها كذلك ما كان نتيجة لخلافات بين بعض القبائل والعشائر . (30)

٢- الموقع الجغرافي والواقع المناخي:

توجد مدن وادى ميزاب في منطقة تبعد عن العاصمة الجزائر بمسافة قدرها 600 كم جنوبا ،وتسمّي هذه المنطقة "بشبكة وادى ميزاب" وهي مكوّنة من هضاب صخريّة كلسيّة تتخلّلها شعاب ضيقة تسيل فيها أودية كثيرة تتجمّع في وادى ميزاب الذى يخترق سهولا ضيقة اتخذها سكان هاته المناطق واحات ،كانت لزمن طويل مورد الرزق الوحيد والمكيف المناخي اللازم في هاته المنطقة التي تمتاز بمناخ قارى شبه مدارى (sub - tropical) وصحراوى ذى طابيعة جافة حيث تغيب فيه الرطوبة المتأتية من كثافة الماء المتبخر الذى يحمل الامطار ويعدل من الفروقات في درجات الحرارة فلا تكاد الشمس تغيب خلال كامل السنة الا في بعض الاحيان حين تقطعها بعض السحب الخفيفة والعابرة ٠

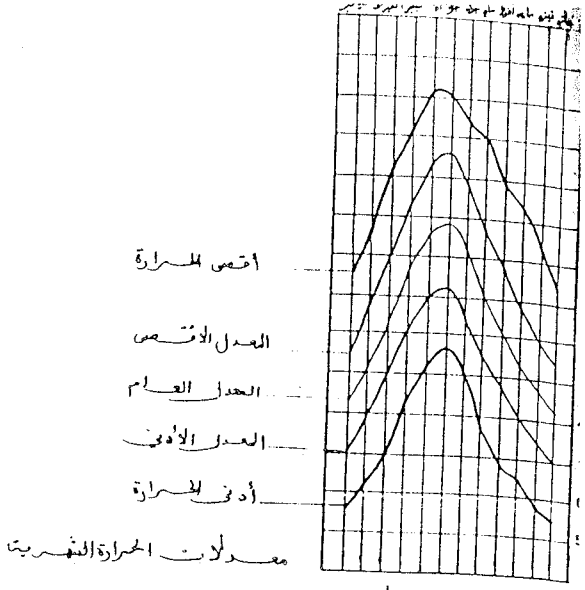
كما تمتاز هذه المنطقة بمطرة (Averse) غير عادية حيث تتسبب في سيلان مباشر وسريع للاودية على المنحدرات الصخرية ،تهدد الناس والحيوانات التي تستعمل مجارى الاودية كطرق معتادة "(31) ،ذلك أن هذه المنطقة تمتاز بتقلب وعدم استقرار غريبين في معدل نزول الامطار ،حيث يختلف هذا المعدل بين نزول عشرات المليمترات في بعض ساعات تتسبب في نزول الاودية بقوة وعنف لتجرد الارض من غلافها السطحي الثري ولتصبح مجرد صخور حرداء ،كما تهدد الزراعات والحيوانات ،هذا اضافة الى عجز الارض عن ابتلاع هذا القدر الهائل من الماء في وقت قصير ليتبخر الماء المتجمع من جديد تحت لهيب الشمس الحارقة فيرجع الجفاف الذى ربما يمتد الى عدة سنوات تكون قاسية على سكان هذه المنطقة والتي دامت احداها سبعة سنوات كاملة ٠ وفيما يلي نورد بعض الارقام والرسوم البيانية الموضحة لطبيعة هذه المنطقة الجغرافية والمناخية المتميزة والتي كانت ذات تأثير هام ومباشر في صياغة نمط حياة هذا المجتمع ومعماره ٠



الموقع الجغرافي

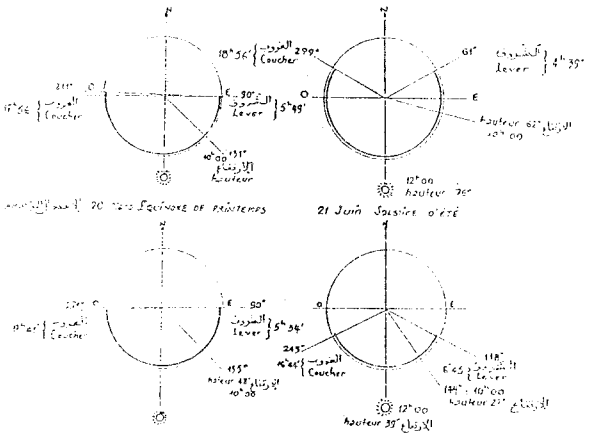


فيضان الوادي

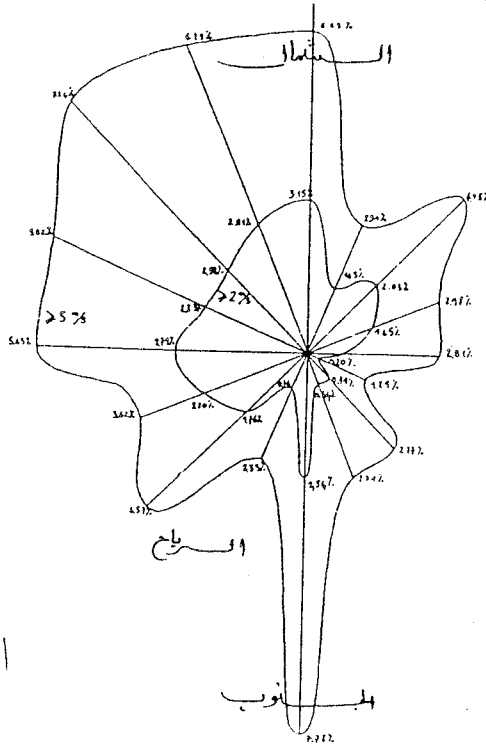


معدلات الحرارة الشهرية

المعطيات المناخية: Données climatiques



التخطيط الشمسي لمزاب : Diagramme solaire de M'Zab



الواقع المناخي



٢. الطبيعة الفكرية والعقائدية

ان الاباضية هي فرقة من الفرق الاسلامية التي تشترك مع بقية الفرق والمذاهب في الانتماء الى العقيدة الاسلامية التي جاء بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والتي ترتكز على أساسين التوحيد ممثلة في الايمان بالله كاله واحد خالق لكل شيء ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم التي هي شريعة الله التي بعثها للناس كافة ليتخذوها منهجا في عبادته ايمانا وعملا .

الا ان للاباضية كبقية الفرق والمذاهب ،وباعتبار تفاعل كل منها مع هذه الشريعة بالعقل الذي يتنوع ويختلف من فرد لآخر ومن جماعة الى أخرى ،مناهجا وأفكارا مميزة في طريقة فهم هذه الشريعة وفي مناهج وطرق تطبيقها في الحياة .

ونحن اذ نتعرض الى الطبيعة العقائدية والفكرية للمجتمع الاباضي ،فاننا لا ننوي تقييم هذا المذهب أو نقده ،باعتبار أن ذلك ليس من اختصاصنا ،مع عدم امتلاكنا للادوات التي تخول لنا ذلك ،كما أن دراستنا هذه لن تتناول بالبحث الا الاصول العقائدية والفكرية التي نرى أن لها علاقة مباشرة وواضحة بالنتاج المعماري الذي صاغه هذا المجتمع في ميزاب . لذلك اخترنا أن نستقي هذه الاصول من كتاباتهم حتى نبتعد عن كل تحريف أو تأويل ،ومن أصولهم العقائدية :

1) **التوحيد** : وهو الاقرار والاعتقاد الجازم بأن لا اله الا الله ،والله هو المالك الوحيد الخالق لهذا الكون ، والمدبر الوحيد الكامل لكل ما يقع فيه من أحداث ،وأن محمدا رسول الله خاتم الانبياء والرسل ورسالته حق على العالمين مع الالزام بتطبيقها واتباعها في هذه الحياة . (32)

والتوحيد هو الاساس الاصيل في ترسيخ عقائد الاسلام ،فبدونه لا يمكن أن يتمتع المسلم بعقيدة صلبة فاذا استقرت هذه العقيدة في حياة المسلم كانت الثمرة المرجوّة في القول والعمل بإذن الله (33) .

2) **الايمان** : هو قول وتصديق وعمل بحيث لا يجيزون الفصل بين القول والعمل ،فالاباضية يقرون بأن الدين والايمان والاسلام أسماء لشيء واحد وتطبيق الاسلام تطبيقا عمليا عقيدة وسلوكا في حياة الفرد والمجتمع . (34)

اذن ... فمن أتى بالقول وضيّع العمل فهو كافر منافق ضال فاسق عاص ليس بمؤمن ولا بمسلم ولا بمشرك (35) ومصيره الخلود الابدي في جهنم (36) لا كالاشعرية الذين يقولون بأنه "مؤمن مسلم عاص مذنب ليس بمشرك ولا كافر ولا ضال ولا فاسق ،ان شاء الله عذبه وان شاء رحمه" (37) .

3) **القدر** : ان الانسان له حرية الاختيار المرتبطة بالكسب (38) ان الحساب ينصب على الاعمال التي اكتسبها الانسان اكتسابا عن طريق جوارحه وارادته الحرّة (39) . ان الله يعذب على المقدور لا على القدر (40) . عكس القدرية التي ترى أن الانسان مسيّر الشيء الذي استغله خلفاء بني أمية في تبرير عصيانهم وفسادهم بينما لقوا محاربة شديدة من قبل الخوارج عموما .

4) العدل والوعد والوعيد :ان المؤمن سيخلد في الجنة أبدا . أما الكافر وعصاة المسلمين فسيكون مصيرهم الخلود الأبدي في جهنم (41) .

5) الولاية والبراءة :عند أصحابنا رحمهم الله الولاية في الله والبغض في الله هي حقيقة الايمان فمن لم يدن بها فلا دين له ولا ولاية له عندهم (42) .ومن تولى من لا تجب له الولاية فقد كفر . ومن أخرها بعد وجوبها فقد كفر (43) . والولاية يقصد بها الحب وايجاب الترحم والاستغفار للمسلمين الصالحين . أما البراءة فهي عكس ذلك بحيث توجب هجرة من هاجر بالكفر أو المعاصي (44) .

6) الامامة :الامامة فرض وواجب شرعا وعقلا ،بحيث تعتمد على الكفاءة الشرعية والاهلية المطلوبة (45) . "واشترطوا في الامامة الشروط التالية : أن يكون الامام ذكرا بالغا عاقلا عالما بالاصول والفروع وله دراية في الشؤون السياسية والحربية ،وأن يكون كامل الخلقة : أي غير مصاب بعاهة . ولا يخاف من اقامة حدود الله . وان الاختيار والبيعة هما الطريق لتنصيب الامام (46) .

وباعتبار أنه لا يمكن بأي حال من الاحوال الفصل بين الاصول الدينية والاصول الاجتماعية ،فالاسلام قد عالج العقائد الدينية وقضايا الحكم والاقتصاد أو الحرب والسلم ،والدولة ،ولم يفصل بين هذه القضايا . (47)

فللاباضية أصول اجتماعية منها :

1) الولاية والبراءة :

" أكد علماء الاجتماع أن الدين أقوى أنواع الرقابات التهذيبية في المجتمع وهذه الرقابة التهذيبية تتمثل في الولاية والبراءة عند الاباضية " (48) . لقد رأت الاباضية ،أن محبة المؤمن الموفي بدينه ،الحريص على واجباته ، وجبت محبته على المؤمنين وأعلنت ولايته بين المسلمين ،ووالت له المغفرة والرحمة من رب العالمين .

هذه القضية يكاد ينفرد بها الاباضيون عن غيرهم من الفرق الاسلامية ،فلم يساووا بين مؤمن تقي وعاص شقي في المعاملة ،وقالوا يجب على المجتمع أن يعلن كلمة الحق في كل فرد من أفراده ،وأن يتولى تهذيب الناشزين وتقويم المنحرفين وتربية المخطئين ،بالوسائل التي شرعها الاسلام للتربية الاجتماعية من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ،واعراض عمن لا يتولى الله . . . "لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" (49) والاباضية لا يخرجون العصاة من الملة ولا يحكمون عليهم بالشرك ،ولكن يوجبون البراءة منهم وبغضهم واعلان ذلك لهم حتى يقلعوا عن معصيتهم ويتوبوا الى ربهم. (50)

"" ان هذا الاصل يعد من أصول العقائد الاجتماعية الاباضية في معالجة سلوك المنحرفين ،حتى لا يشهروا الفواحش ،ولا يقلدهم آخرون ،فلا شك ان وجدوا الجفاء في أبناء مجتمعهم الاسلامي وحسوا أن مصالحهم قد تعطلت كلية أنهم سيقومون باصلاح أنفسهم عن طريق التربية الذاتية الهادفة الى تغيير أنماط سلوكهم والسعي الى اكتساب الفضيلة الاخلاقية والابتعاد عن الرذيلة (51) .

2 ـ مسالك الدين :

اجمعت كل الفرق الكلامية في الاسلام على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واستدلوا بقول الله عز وجل : " وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (آل عمران آية 104) والاباضية يحصرون هذا الركن ـ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ في مسالك الدين التي هي أربعة :

الظهور ،والدفاع ،والشراء ،والكتمان .

ان هذا الاصل يعد من أصول الفكر السياسي عند الاباضية وهو يحمل مدلولا ثوريا لازالة الظلم والحيف السياسي عن المجتمع الاسلامي واجتثاث جذوره . (52)

الظهور : ان المجتمع الاسلامي إمّا أن يكون ظاهرا على أعدائه ،حرا في أراضيه ،مستقلا بأحكامه ،عاملا بكتاب الله وسنة رسوله ، منفذا لأحكام الدين لا يخضع لأجنبي بوجه من الوجوه ،ولا يستبد به حاكم ولا يطغى ذو سلطان .

فهذه الحالة هي حالة الظهور وهي أكمل الحالات للمجتمع المسلم ، وعليها يجب أن تكون الامة ،لانها المنزلة التي ارتضاها الله للمؤمنين "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ " (المنافقون 8) .

الدفاع :اذا انحدر المسلمون عن هذا المقام ،وتضاءلوا عن هذا الشرف ،وجب حينئذ أن يقف المسلمون في طريق الدولة الباغية يأمرونها بالمعروف،وينهونها عن المنكر ،ويلزمونها أن تسلك بهم طريق الصواب ،فاذا اعتزت بالاثم ،واستمرت على الظلم ،واستكبرت أن تخضع لامر الله ،وأن ترجع الى سبيل الله فحينئذ يأتي القسم الثاني من التنظيم الاسلامي وهو الدفاع. والدفاع في مسالك الدين يرادف لما يعبر عنه في العصر الحاضر بالثورة . الثورة على الاستعمار الأجنبي ،أو الثورة على الاستعمار الداخلي : كالثورة على الظلم ،والثورة على الاقطاع والثورة على الفساد والثورة على الانحراف عن دين الله في كل مظاهره وأشكاله . والزعيم الذي يقود هذه الثورة يسمّى امام الدفاع.

الشراء : فاذا ضعف المسلمون حتى عن هذا الموقف، وأصبحوا لا يستجيبون لداعي الثورة ويفضلون طريقة سلام، ويركنون الى الدّعة والاستراحة، جاء المسلك الثالث من مسالك الدّين، وهو الشراء. فحتى لقلة منهم اذا بلغوا أربعين شخصا أن يعلنوا الثورة على الفساد. لقد اشترط لهذا التنظيم شروط قاسية لا يقبلها الا الفدائيون، الذين وهبوا حياتهم لحياة الأمّة الاسلامية، وذلك أنّه لا يحل لهم بعد أن ينخرطوا في هذه المؤسسة أن يعودوا الى بلادهم، أو يستقرّوا في أمكنتهم أو يتخلّوا عن رسالتهم، حتى ينتهي بهم الأمر الى النجاح أو القتل. (53)

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ" ـ البقرة 207 ـ

"إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ" ـ التوبة 111 ـ

الكتمان : يعد أدنى درجة في الجهاد ويتمثل في عدم مساعدة الظالمين والابتعاد عن وظائفهم وارشاد الناس الى الخير العام وتهذيب نفوسهم عن طريق المساجد وجمعيات خيرية دينية تسعى الى غرس فضائل الاسلام وقيمه الخلقية وتربية النشئ تربية دينية اسلامية سليمة ونشر الوعي الديني بين طبقات الشعب. (54)

الامامة : "الامامة فرض واجب شرعا وعقلا". (55) "فابطال الامامة وازالة قيامها هو ابطال اقامة الحدود وأحكام الله" (56) "والجدير بالذكر أن الاباضيّة ترى أنه لا يجوز بأية حال أن تبقى الأمّة الاسلامية بدون امام مهما كانت العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى تقام الحدود الاسلامية ولهذا لا يجوز الخروج على الامام العادل، أما اذا كان الامام ظالما جائرا فيجوز الخروج عن سلطته." (57)

الكلام :

لا يختلف الفكر الاباضي عن مختلف المذاهب والمدارس الكلامية الاسلامية في ركائزه وأصالته حيث اعتمدت أصوله العقائديّة على بعدي التوحيد والايمان، أما أصوله الاجتماعيّة التي لا تنفصل عن الأصول العقائدية، فانّها تميّزت بمبدأي الجهاد والاستخلاف، ذلك أنّ الايمان والعمل شيء واحد و"لا يمكن بأيّ حال من الاحوال الفصل بين الأحوال الدينية والأحوال الاجتماعيّة" (58)

اذ لا ايمان بدون عمل ولا عمل صالح بدون اتباع المنهج الالاهي في الحياة.

اذن وباعتبار أن الاسلام قد اعتبر دين الدّنيا والآخرة وباعتبار كذلك أن الاباضيين يجدون أنفسهم ملزمين كبقية المسلمين بتطبيق الاسلام في كل مناهج حياتهم، فاننا نجد الاسلام حاضرا في كل مجالات الحياة المادية والمعنوية.

والمعمار كجزء من النّتاج المادى لهذا المجتمع ،لم يخرج بدوره عن هذا الاطار العقائدى ،والـــذي سنحاول في بحثنا هذا الكشف عن مدى تأثره بهذه الطّبيعة الفكرية بما تتضمنه من أصول عقائديّة واجتماعية .

2- المعمار والممارسة الاجتماعية في ميزاب قديما

١- الممارسة الاجتماعية في ميزاب: طبيعتها وأطارها

٢- انعكاس الممارسة الاجتماعية على العمارة

أ- في اختيار موقع بناء القصر

ب- في تقسيم الاراضي

ج- في الهيكلة العمرانية للقصر

د- في نمو القصر

ي: في الطرق والمسالك

هـ- في المنافع

و- في المسكن

٣- استنتاجات (استخراج الاسس والقواعد التي صاغت المعمار التاريخي في ميزاب

2- المعمار والممارسة الاجتماعية في ميزاب قديما

1- الممارسة الاجتماعية في ميزاب: طبيعتها وأطارها

من كل ما سبق نلاحظ أن المجتمع الميزابي الذى قام على أساس الفكر والمذهب الاباضي والمرتكز على العقيدة الاسلامية، بل الذى كان الهدف من وراء وجوده هذه العقيدة وهذا الفكر حريص كلّ الحرص على تطبيق مبادئه العقائدية والفكرية في جميع مجالات حياته، في ممارساته الفردية والجماعية، وذلك استنادا الى أصوله العقائدية والاجتماعية المذكورة آنفا، فنجد اذن الكتابات العديدة التي تستنبط الطرق والمناهج الحياتية من هذه العقيدة كما نجد كذلك الهياكل الدينية الاجتماعية التي تمثل العمود الفقرى لهذا المجتمع، تقوم الى جانب هذا الدّور بالتنفيذ والمراقبة وذلك في أدق هذه الممارسات الاجتماعية بحيث ضمنت التواصل الثقافي والحضاري لهذا المجتمع طيلة قرون عديدة.

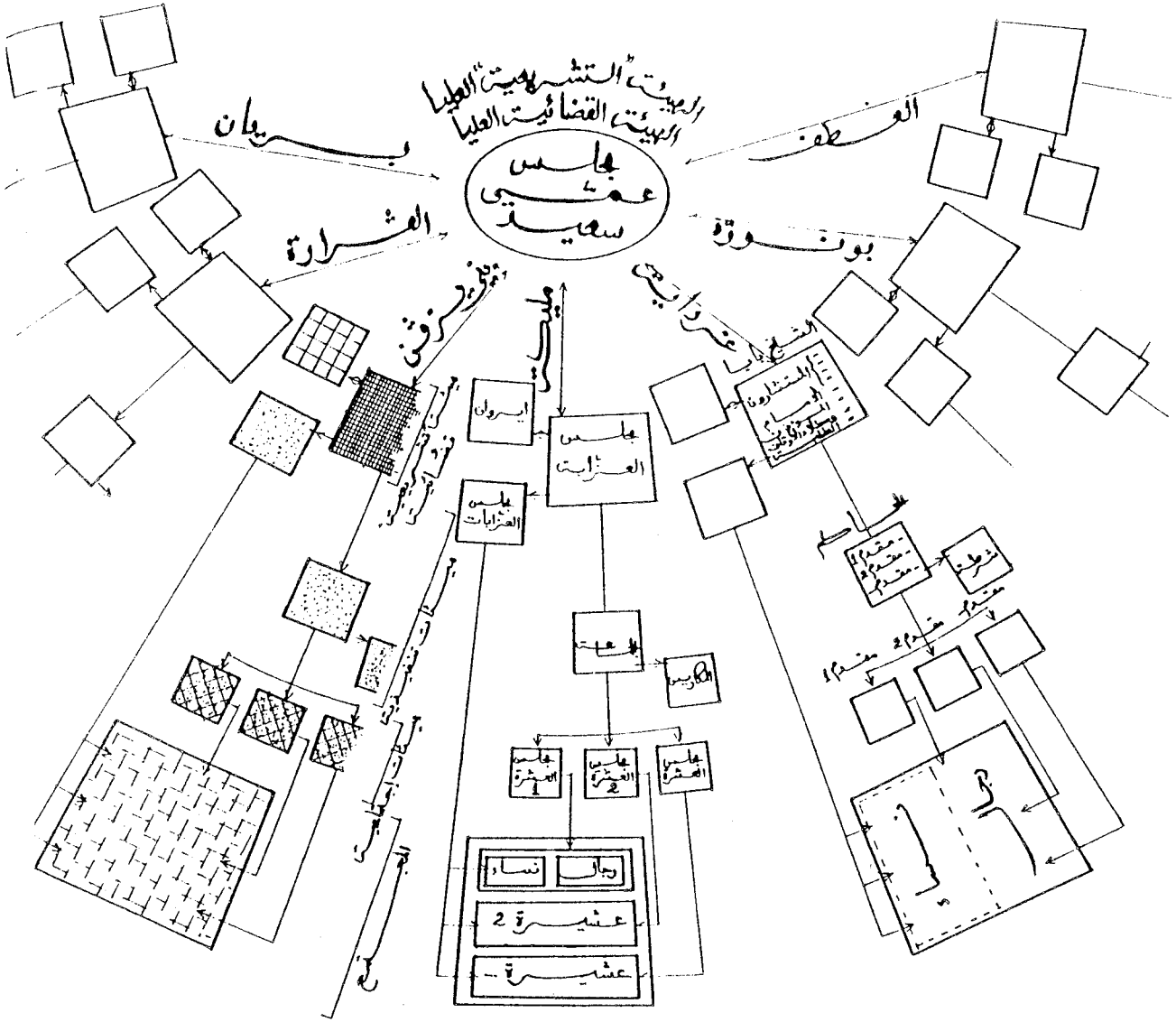
وباعتبار أن كل انتاج مادي في مثل هذا المجتمع (المجتمع التاريخي) هو التعبيرة الثقافية عن الحاجيات والطموحات والاهداف الاجتماعية المتفاعلة مع الواقع المادى والموقع الجغرافي والمناخي فان النتاج المعمارى كعنصر في هذا النتاج لم يشذ في ميزاب عن هذا الاطار بحيث أننا نجد كل القيم والأفكار التي صاغت الممارسات الاجتماعية في ميزاب منعكسة على هذا المعمار ومتجلية فيه في أبسط مظاهره وأشكاله.

لذلك نرى أنه من الضرورى تناول التنظيم الاجتماعي والسياسي في ميزاب بالدرس باعتباره المؤطر والمراقب للممارسة الاجتماعية والانتاج المادي لهذا المجتمع.

التنظيم السياسي والاجتماعي في ميزاب : (59)

يقوم النظام الاجتماعي على نوعين متكاملين من المؤسسات :

مؤسسات دينية تضمّ هيئة العزابة في قمة الهرم الذى يمثله هذا النظام وتضم مستويات عديدة وهي تتصرّف في الشؤون الدنيوية بالرغم من أن طابعها يتميز بأنه ديني وتتميز بأن سلطتها تشريعية أكثر مما هي تنفيذية وخاصة ابتداء من 1882 وذلك عندما انتزع منها الاستعمار السلطة القضائية وقام بتحديد صلاحيتها، ومؤسسات ذات طابع دنيوى تقوم على نظام الجماعة وهي بمثابة هيئة سياسية عليا، تتكوّن من ممثلي العشائر.



التنظيم السياسي في ميزاب

الهيئة الدينية : العزابة .

المعنى الاصطلاحي لكلمة العزابة : [60]

"يقول أبي عمار الكافي في طبقات الدرجيني الجزء الأول ص 6 ،وأول ما استعمل هذا اللقب العزابة — في أيام الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ،لما أسس الحلقة ورتب قوانينها أي في العقد الأول من القرن الحادي عشر م — ويعرفها بأنها جماعة منتخبة من أهل الورع ،والصلاح والثقة في الدين والأمانة والصدق يتولون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان ويقومون بجميع الوظائف الدينية والدنيوية ."

من هذا التعريف يتضح لنا أن العزابة جماعة تمثل فئة من رجال العلم والدين انتظمت على شكل حلقة تقوم بدور السلطة الروحية والدنيوية ، فمنها تصدر القرارات المتعلقة بتنظيم الحياة داخل المجتمع،ونشاطها لا يقتصر فقط على التوجيه الديني بل يتعداه ليشمل المستويات الأخرى للحياة في أغلب الأحيان تتكون هيئة العزابة من اثني عشر عضوا وهم يمثلون العشائر الموجودة حيث يراعى أن يوجد ضمن الحلقة عضو على الأقل من كل عشيرة وهذا حفاظا على التماسك والتضامن داخل المجتمع،بحيث تتوزع السلطة التشريعية والتنفيذية بينها بشكل ديمقراطي وتتضمّن الحلقة تدرّجا هرميا يكون في قمته الشيخ بابا ،وهو الذى يملك القرار النهائي بعد التشاور مع بقية الأعضاء ويكون مقرها المسجد أين توجد حجرة خاصة باجتماعاتهم يمنع على أحد غيرهم دخولها .

وفيما يلي سنقدم صورة عن النظام الذى تقوم عليه الهيئة .

بنية وتركيب حلقة العزابة :

1) شيخ العزابة : ويسمى الشيخ بابا ويكون في قمّة الهرم وهو أعلم من في الحلقة وأكثرهم حكمة .

2) المستشارون : ويكون عددهم أربعة لا يفارقون الشيخ ويتمثل دورهم في أنهم يشاركون الشيخ قراراته وهم أعلى مرتبة في الحلقة بعد الشيخ بابا .

3) الامام : وهو المكلّف بالصلاة ويمكن أن يكون من الاعضاء الأربعة المستشارين ونفس الشيء بالنسبة للمؤذن .

4) وكلاء الأوقاف : يقوم برعاية الأوقاف شخصان يتصرفان في ضبط المدخولات والمخروجات في ميزانية الحلقة وهم يختارون من أوسط الناس حالا وثراء ويشترط فيهم الثقة والنزاهة .

5) المعلمون ـ الطولبة ـ : تخصص جماعة من أعضاء الحلقة للقيام بمهمّة التدريس وتنظيم التعليم ويشترط فيهم العلم والكفاءة وحفظ القرآن .

6) بايروان أو حملة القرآن وهم جماعة من الطلبة حافظون للقرآن يمثلون القوة التي تقوم بالاستمرار والنيابة بعد العزابة أي أنهم "كمجلس النواب بالنسبة للشيوخ" .

لقد تمكن العزابة من فرض سيطرتهم على الناس بفضل تنظيم محكم يتمثل في مجموعة من القوانين تسمى باتفاقات العزابة ،يجب على العامة احترامها وفي حالة مخالفتها فان العزابة يصدرون الأمر بما يسمى بالتبرية .

ـ التبريـــة : (61)

انها مقاطعة الشخص الذي يقوم بمخالفة بعدم مكالمته وزيارته والاتصال به وحرمانه من الحقوق الدينيـــة والمدنيّة وهي وسيلة من العقاب المعنوي تهدف الى مراقبة سلوكيات وتصرفات الأفراد في المجتمع وأيضا العمل على تطبيق واتباع ما يصدر عن العزابة من قوانين وأوامر ، وهي عبارة عن عملية لعزل الفرد الذي يقوم بمخالفة أو معصية عن بقية أفراد المجتمع ،حيث يحرم من تعامل الناس معه فلا يشترى منه ولا يباع له ويمتنع الناس عن زيارته ولا يقبلون زيارته وتنقطع صلاته مع بقية الأفراد فلا يشاركونه أفراحه ومآتمه واذا توفي ولم يعلن توبته فان مهمة غسله ودفنه تتم مـــن طرف العامة من الناس أو من طرف ـ امصوردان ـ وهي الطبقة السفلى في الهيئة الدينية ويحدث هذا في غياب العزابة ،والتبرية عبارة عن أمر يصدره العزابة في أوساط الرّجال وتصدره هيئة الغاسلات (Timsiridine) فـــي أوساط النساء وهذا بعد اثبات المخالفة عند صاحبها ويتم الاعلان عنها في مجمع عام من الناس ،وتبقى التبريـــة قائمة وسارية المفعول الى أن يعلن الشخص توبته .

القـــومـــة :

هي الاعتراف بالذنب والتعهد بعدم ارتكابه ثانية وتتمّ التوبة بحضور المتبرّأ منه بنفسه الى العزابة ،تكون التوبة في المسجد في صلاة جامعة يحضرها عامة الناس يبدأ بذكر اسمه واسم أبيه والعشيرة التي ينتمي اليها ثمّ يعلن عن الذنب الذي ارتكبه ويصرح بتوبته الى اللّه ورجوعه الى حضيرة المسلمين ،فتستمر هذه العمليّة مرات عديدة الى أن يصدر أمر العزابة بالعفو منه .

أحيانا يكون الذنب كبيرا فلا تقبل توبته في أول يوم ثم يطالب منه أن يقوم باعادة العملية مرّات عديدة في أيام متتالية،عندما تقبل توبته يقدم اليه العزابة درس وعظ وارشاد يستفيد منه جميع الحاضرين ويأخذون منه العبرة وبعد الدرس يعلن كبير العزابة عن قبول التوبة فيقال أن فلان في ولاية المسلمين ،أي أن ولايتهم له عادت اليه بعد ما صدرت بشأنه براءتهم منه.

والولاية والبراءة هما من أهم الأركان التي تستند عليها الأصول الاجتماعية عند الاباضية [63]

ـ الولاية : معناها القبول والتودد والتعاون وهي واجبة عند الاباضية نحو من توفرت فيه شروط المسلم التقي ،وتبقى قائمة ما لم تصدر عن هذا الشخص مخالفة أو عصيان يعرضه الى براءة المسلمين.

ـ البراءة : وهي هجرة وعزل من صدرت بشأنه أعمال تخالف ما أمر الله والرسول وأجمع عليه المسلمون ، وتهدف أساسا الى مقاومة الانحرافات والمعاصي حتى لا تنتشر.

ومن الأدوار التي يقوم بها العزابة أيضا ،مهمة الاشراف على التجارة في السوق ومراقبة المذابح وسائر المرافق العمومية،بالنسبة للتجارة في السوق فهي عبارة عن عملية لبيع المنتوجات المختلفة من أبخسها قيمة الى أغلاها ثمنا ويتمّ ذلك عن طريق البيع بالمزاد العلني مرات عديدة في الأسبوع،يبدأ البيع بعد صلاة العصر أي بعد نزول العزابة من المسجد واتخاذهم لمكانهم الخاص بهم في السوق وهو مكان يساعد على مراقبة جميع أركانه بسهولة ،وكما هو معلوم فان قسما كبيرا من المنتوجات الموجودة في السوق تقوم به النساء في المنازل وبما أنه لا يمكن لهن أن يبعنها بأنفسهنّ فان مراقبة السوق من طرف العزابة تهدف أساسا الى حماية حقوقهنّ واغطائها كاملة خاصة اذا علمنا أن الاشخاص المعنيين للقيام بالبيع في السوق يتمّ ترسيمهم من طرف العزابة ،وما يمكن ذكره هنا هو أن الشخص الذي يكون في التّبرية ،لا تقبل معاملاته سواء بيعا أو شراء الى أن يعلن توبته.

فيما يخصّ المذابح (Abattoires) فقد كانت فيما سبق تحت رقابة المسجد وخاضعة له وهذا من أجل مراقبة كيفيّة الذبح وأيضا الذبائح التي تدخلها.

فيما يخص تنظيم الحياة الاجتماعيّة فان سلطة العزابة كانت تسعى الى تنظيمها خاصّة بالأعراس والافراح وكافة المناسبات والتجمعات الأخرى.

فيما يخص المهر نجد أن القيمة المحددة من طرف الحزابة كان يراعي فيها الحد الأوسط الذي يطيقه جميع الناس وان شاء الغني في المجتمع أن يزيد عليها فيمكنه ذلك بعد الأشهر الأولى من الزفاف، وهذه القيمة المحددة كانت ترتفع حسب الظروف ويكون ذلك دائما بأمر من الحزابة ونفس الشيء بالنسبة للهدايا التي تقدم للعروس، وتخضع المراسيم المتعلقة بمصاريف العرس وطريقة اقامته وتحديد مدته الى نفس القاعدة وتهدف هذه الرقابة الى تحقيق جو من المساواة بحيث لا يشعر الفقير في المجتمع بأنه محروم أو عاجز عن الزواج .

ونفس الشيء أيضا بالنسبة للمآتم وما يتبعها من سنن وعادات فيما يخص دفن الميت وتلاوة القرآن ... وأهم ما يلاحظ هنا هو عدم وجود اختلافات بين قبر الغني والفقير سواء من حيث المكان الذي يقبر فيه أو من حيث الشكل، اذ يمنع على الناس كافة زخرفة القبور أو بناءها لذلك كان الشخص الذي يقوم بعملية القبر يعين من طرف المسجد .

وأول شيء يسأل عليه الحزابة بعد قبر الميت هو الوصية فيقومون بمتابعة ما جاء فيها والسهر على تطبيقها وتعيّن لهذه المهمة جماعة من الأمناء والثقاة .

من الأدوار التي يقوم بها الحزابة أيضا : النظر في مشاكل الناس والفصل في قضايا النزاع والخصومات. (63)

وفي حالة صدور تمرد أو رفض لاحدى الأحكام، فان الحزابة يمتنعون عن القيام بمهامهم والقصد من ذلك القاء الرأي العام الذي لا يلبث أن يطالب باحترام هذه القرارات وتنفيذها ويذكر ابراهيم محمد طلاي أن هذا النوع من الاضراب ـ العصيان المدني ـ قد اتخذ شكلا ظاهرا أيام الاحتلال واتخذوه سلاحا، كثيرا ما أزعجوا به سلطات الاستعمار، كما وقع ذلك في قضية التجنيد الاجباري سنة 1911 م عندما حاول الفرنسيون فرضه على الأهالي .

على مستوى وادي ميزاب توجد هيئة عليا تقوم بالاشراف على الهيئات الموجودة على مستوى كل مدينة وتسمّى هذه الهيئة العليا بمجلس عمي سعيد، وهو عبارة عن مجلس أعلى يضمّ ثلاثة أعضاء من كل مدينة يقومون بالتمثيل لدى المجلس . أمّا أعماله فتتمثل في تنسيق وتنظيم الحياة في المنطقة والسعي من أجل الصلح بين القبائل المتنازعة والنظر في المشاكل التي توكل اليه عندما يعجز عزابة مدينة ما عن حلّها ويعتبر بهذا محكمة استئناف

وقد صدر عن هذا المجلس دستورا يضمّ مجموعة من اللوائح تسمّى (الاتفاقات) وتتمتع بقوّة القانون وتبقى سارية المفعول ما لم يصدر بشأنها قرار بابطالها أو تحويرها "لم يبق من اتفاقيات هذا المجلس الا نحو مائة وخمسين اتفاقا ،ويذكر أبو اليقضان أنّ أقدم اتفاق لهذا المجلس يرجع الى سنة 807 هـ." (64)

مجلس الغاسلات :

عبارة عن هيئة دينية تمثل مجلس العزابة في أوساط النساء تسمّى بالغاسلات لأن المهمّة الأساسيّة لها هو غسل الموتى من النساء والأطفال دون السابعة ،وهي خاضعة لمجلس العزابة وتعمل على تطبيق ما يصدر عنها من قوانين وفرضها في أوساط النساء وقد تمكنت من ضبط وتسيير سلوك وتصرّف النساء عن طريق فرضها لرقابة فائقة وحراسة شديدة والشيء الذى يلاحظ هو أن قوّة السلطة التي تفرضها هذه الهيئة في أوساط النساء تفوق بكثير السلطة التي تفرض على الرجال من طرف العزابة وهذا هو السبب الذى جعل المرأة في ميزاب تبدو أكثر محافظة على التقاليد من الرجل – فيكفي أن نتخذ عملية التبرية – كمثال لنلاحظ أنها مطبقة لدى النساء بكثرة ونكاد لا نشاهدها عند الرجال وأيضا بالنسبة للأخطاء والمخالفات التي تحاسب عليها المرأة فيكفي مثلا أن ترتدى المرأة حذاء ذو كعب طويل أولا تلبس جوارب حتّى يقال لها أنك في التبرية.

في حين أن الرجل يتصرف بحرية كبيرة جدا لدرجة أن التدخين بالرغم من كونه يعتبر محرّما في المجتمع الا أن صاحبه لا يخضع للتبرية.

العشيرة :

عبارة عن وحدة تضمّ عدّة عائلات تنتمي الى جدّ واحد ولكل عشيرة مجلسها الخاص بها والذى يتكون من ذوي الرّأى السديد والخبرة ويهتمّ مجلس العشيرة بمصالح العائلات والأفراد وله دور كبير في حماية الضعفاء من أيتام وأرامل وفقراء.

للعشيرة مقرها الخاص بها وهي عبارة عن دار تسمّى حجبة ،تتم فيها الاجتماعات وتقام فيها الأعراس والأفراح وتستعمل أيضا لايواء الضيوف سواء في اطار العشيرة أو المجتمع عامة أى في المهرجانات العامة للبلاد ، تمول هذه الدّيار من طرف الأعضاء كل حسب طاقته ويستفيد منها الجميع،والعشيرة تمثل الوسيط الذى يربط الفرد

بالمجتمع : فعندما يصدر عن الفرد ما يتنافى والتقاليد العامة أو عندما يتعدّى أحد الأفراد على شخص ما فان الابلاغ بأمره يتم على مستوى العشيرة ،حيث يعرض على مجلس التأديب وفي حالة اصراره على الخطأ فانه يحال الى العزابة ، ولا يرفع بدعوته الى المسجد الا في حالة ما اذا عجزت العشيرة عن وظيفتها .

الجماعـــة :

عبارة عن هيئة ذات تنظيم سياسي مدني تضمّ ممثّلا من كل عشيرة يسمى ـ مقدما ـ أوضامنا ينتخب بطريقة ديمقراطية ويكون له نائب يساعده في تمثيل العشيرة ،يقوم برئاسة الجماعة حاكم ويكون له نائب أيضا .(65)

تخضع الجماعة لسيطرة ومراقبة العزابة ،حيث يمكنها أن تصدر قوانينها الخاصة بها ولكن بعد موافقـــة العزابـــة .

أما وظائفها فتتمثل في تنظيم الحراسة ،ولها شرطة خاصّة تسمّى ـ المكاريس ـ تقوم بمراقبة الأبواب والاسوار داخل المدينة وخارجها أي بالواحات أين تنتشر الآبار وسواقي المياه خاصّة في الظروف التي كان الماء فيها قليلا حيث ساد الجفاف والقحط فكان لا بد من مراقبة عمليّات استخراج المياه وتصريفها ،وهي مسؤولة أيضا على صيانـــة المرافق العموميّة من طرقات وغيرها أما ميزانيتها فتتكون مما تدفعه العشائر في كل سنة .

عند الاحتلال تقلص نظام الجماعة وانحصرت أدوارها .

بالنسبة لنظام الجماعة لم يكن دوره مقتصرا فقط في المنطقة وانّما كان يتعدّاها ،حيث قام الميزابيون بانشاء نماذج من هذا النظام في كل منطقة يتعدّى عدد الميزابيين فيها العشرة وكان دورها يتمثل في مراقبة شؤونهم ، مساعدة من كان يبحث عن عمل ،ايواء من لم يجد مسكنا أو مكان ينام فيه ريثما يجد عملا ،حيث وجدت لهذا الغرض منازل في كل مكان تسمّى بدار الغرش ـ وهي ملك مشاع تقوم بتسييره جمعيات متخصصة كما كانت الجماعة تراقب سلوك المشحرفين والخارجين عن المجتمع .

٢ـ انعكاس الممارســـة الاجتماعيّة على العمـــارة

أ ـ في اختيار موقع المدينة القصر

تعرضت المصادر التي تناولت بالبحث مسألة المدينة الاسلامية الى شروط اقامة المدينة الاسلاميّة واختيار موقعها ،وعن اختيار الموقع يشير ابن الأزرق : الى أن ما تجب مراعاته في أوضاع المدن أصلان مهمّان :

دفع المضار ،وجلب المنافع. ثم يذكر أن المضار نوعان : أرضيّة " ودفعها بادارة سياج الأسوار على المدينة ووضعها في مكان ممتنع،امّا على هضبة متوعّرة من الجبل وامّا باستدارة بحر أو نهر بها ... فيصعب منالها على العدوّ ويتضاعف تحصينها " والنّوع الثاني من المضارّ سماوي ، ودفعه باختيار المواضع طيّبة الهواء ،لأنّ ما خبث منه بركوده أو تعفّن بمجاورته مياه فاسدة أو منافع متعفّنة أو مروجا خبيثة سرع العرض فيه للحيوان الكائن فيه لا محالة ... وجلب المنافع يتأتّى بمراعاة أمور منها : توفّر الماء ... ،وطيّب المرعى ... وقرب المزارع الطيّبة لأنّ الزرع هو القوت.. والشجر للحطب والخشب ،فالحطب لعموم البلوى به في وقود النّيران ،والخشب للمباني " (66) . وعكست هذه النوعيّة من مصادر التّراث الاسلامي وغيرها استفادة الفكر الاسلامي من خبرات الأمم السابقة اضافة الى خبرتها . فقد اعتمد الفكر الاسلامي قول حكماء الرّوم : أن "أصلح مواضع البنيان أن يكون على تلّ أو "كبس" (*) رئيس" ليكون مطلا ،وأحق ما جعلت اليه أبواب المنازل وأفنيتها وكواؤها المشرق واستقبال الصّباح فان ذلك أصلح للابدان بسرعة طلوع الشمس وضوئها ."(67) " (68)

أماسكان وادى ميزاب و بالرغم من أنهم لجأوا الى هذا المكان النائي ذي الطبيعة الجغرافية و المناخية القاسية حفاظا على عقيدتهم فقد اختاروا مواقع بناء قصورهم فوق قمم الهضاب — و هي عادة البربر في بناء قراهم و مدنهم و من ذلك جاءت تسميه القرية بالقصر وذلك جلبا للمنافع و دفعا للمضار ، كما جاء في مصادر الفكر الاسلامي ، فكان بذلك للبعد الدفاعي (دفع المضار) أهمية كبرى عند الميزابيين ، و هم الذين كانوا عرضة للتتبع و الهجومات المتتالية ، سواء من قبل مختلف الانظمة الحاكمة في شمال افريقية آنذاك ، أو من قبل القبائل المجاورة التي تزحف على هذه المدن بحثا عن القوت و أسباب العيش حين يشتد القحط.

و لم يجد الميزابيون بدا من الاحتماء بقمم الهضاب لتكون حصنا آخر يضاف الى الحصون التي كانت تقام قبل كل بناء في القصر ، ليكون لهم درعا واقيا ضدّ الاعداء (عسكريا و اجتماعيا) و حزاما فاصلا بين الداخل و الخارج ، بين المجال الخاص للمجتمع الميزابي الاباضي ، المجتمع الاسلامي الحقيقي (حسب المذهب الاباضي طبعا) و مجتمعات الزيغ و الضلال ،بين الحق و الباطل .

و روعي ، في اختيار قمم الهضاب ، كذلك ، الابتعاد عن مجرى الوادي و الاراضي المعرضة لسيلان و سير مياه الامطار ، و الحفاظ على الاراضي الصالحة للزراعة اضافة الى الاشراف و المراقبة لما في أسفل الهضاب و سرعة الاغاثة عند حدوث هجوم أو خطر ما . أما عن الوجهة (Orientation) في هذا الاختيار ، فكانت عموما و في جلّ القصور الميزابية القبلة أو المشرق ، باعتبار شروق الشمس من تلك الناحية و الاحتماء من رياح الشمال الغربي

الشديدة و القوية و التي تتبعها في فترات من السنة زوابع رملية من الناحية الاخرى . و هذا يؤكد كذلك أخذهم بعين الاعتبار العامل الصحي في اختيار الموقع المناسب لعمارتهم ، اضافة الى امتياز هذه المنطقة بهواء صحي و نقي .

وهكذا يتجلى لنا مدى انعكاس جزء من الممارسة الاجتماعية ، المتمثل هنا في علاقة سكان ميزاب بغيرهم من المجموعات الاخرى (أي المجتمع الميزابي بغيره) و مكانة حفظ الدين و حفظ النفس لديهم ، باعتبارهما من الكليات الاساسية للعقيدة الاسلامية ، على اختيار مواقع قصورهم .

خلاصة : نستطيع أن نقول في الاخير أن اختيار موقع بناء القصر عند الميزابيين له بعدان أساسيان هما :

- البعد الدفاعي (ضدّ الاخطار الخارجية) - (اجتماعيا و عسكريا)
- البعد الوقائي و الصحي (ضدّ الاخطار الطبيعية) .

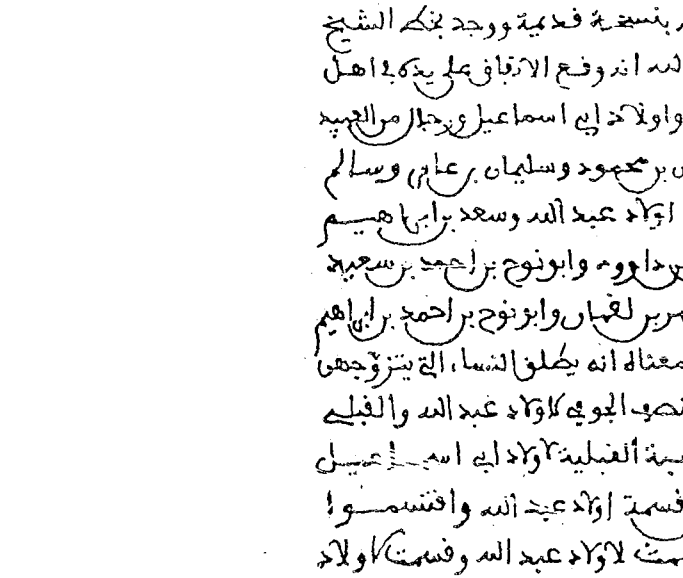
ب- في تقسيم الاراضي

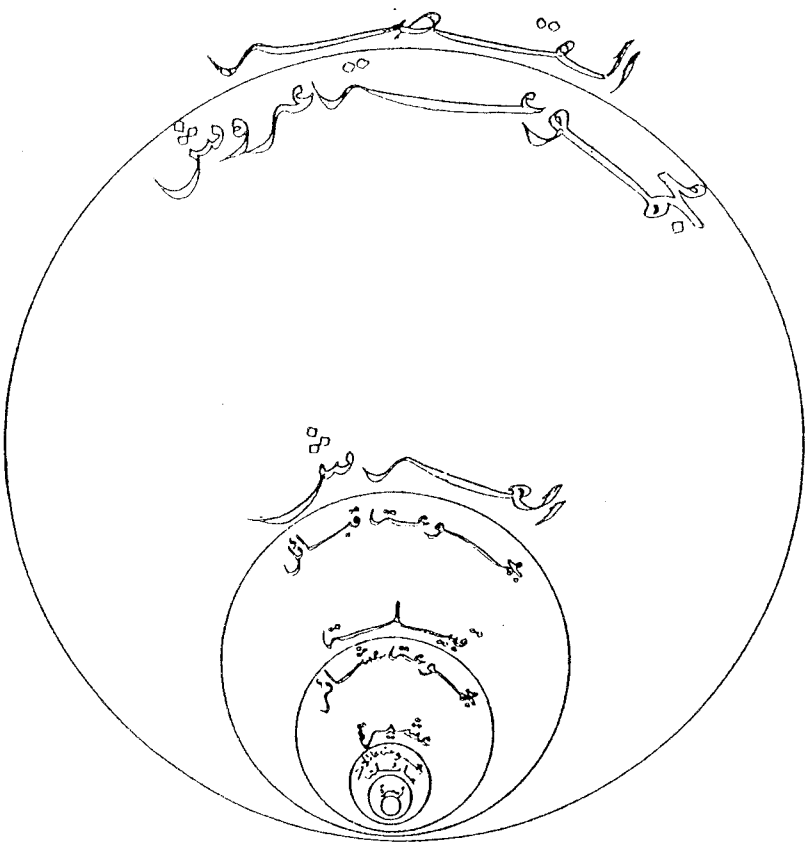
لا يخضع تقسيم الاراضي في المدينة الاسلامية الى مقاييس فنية أو مادية بحتة ، بل الى مقاييس اجتماعية أساسها التكافل و التعاون بين أفراد المجتمع، ذلك أن الارض أرض الله و ما الانسان الا مستخلف فيها و متصرف فيها بقدر حاجته دون ظلم أو جور . يقول تعالى " إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ ٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " (69) إذن فكل الناس لهم الحق في الانتفاع بأرض الله ، وذلك وفق ما تمليه الظروف و الحاجيات . فتقسيم أراضي المدينة الاسلامية المراد بناؤها يقع بالاتفاق بين القبائل و العائلات المكونة لها ، و ذلك على يد أهل النظر حيث كانت مسؤولية توزيع الخطط في المدينة في العهد الاسلامي الاول على يد رسول الله صلى الله عليه و سلم باعتباره الحاكم (70) و قد كان منهجه في توزيع الخطط يهدف "الى تجميع كل قبيلة في خطّة خاصة بها و تركت حرية تقسيم الخطة للقبيلة وفقا لظروفها وامكاناتها في الانشاء و التعمير و مدى الحاجة الى ذلك فكأنما روعيت النظرة المستقبلية لامتداد العمران" (71) .

و باعتبار تكوّن المجتمع الميزابي من بطون و عشائر فاننا نجد نفس هذا المنهج في تقسيم أرض القصر المراد بناؤه في ميزاب بحيث كان هذا المنهج "انعكاسا للصياغة الاسلامية للمجتمع حيث حاولت الموافقة بين الطبيعة القبلية ، و التأكيد على رابطة صلة الرّحم بين أفراد القبيلة الواحدة و جمع هذه القبائل في خطط متعدّدة تجمعها مدينة واحدة ذات كيان مادّي متكامل و اطار اجتماعي أشمل و أعمّ ، و هذا اطار التآخي الذي وجه اليه الرسول صلى الله عليه و سلم ليذوّب النزعات القبلية و يخلق المجتمع الواحد " (72)

اذن فمراعات العلاقات الاجتماعية هي مسألة ضرورية بل أساسية في تقسيم الخطط و الأراضي في القصر ذلك أن دعم الروابط العائلية و روابط صلة الرحم بالجوار تعتبر من الاهمية بمكان بحيث تتحقق بذلك اللحمة بين مختلف أفراد المجتمع بتجانس أفراده و عدم اجتماع أضداده و بتمكين كل فرد في هذا المجتمع من مجال اجتماعي يشعر فيه بالراحة و الطمأنينة و يسهل فيه تبادل المصالح و درء المفاسد ... كما أن تجمّع القبيلة في خطة واحدة يساهم في تسهيل ادارة المدينة باعتبار أن لكل عشيرة مجلسا يتولى أمورها بتلبية حاجياتها و السهر على تطبيق قرارات الهياكل التشريعية فيها (العزابة) و مراقبة سيرورتها .

و مثال هذا التقسيم نجده مذكورا في الرسالة الشافية حيث يقول الشيخ أطفيش : "و وجد بخط عمي دحمان بن الحاج رحمه الله أنه وقع الاتفاق على يده في أهل نورة مع أولاد عبد الله و أولاد اسامعيل و رجال من العبيد عبد الله بن أحمد و سليمان بن محمود و... ، و كان الاتفاق على أن النصف الجوفي لاولاد عبد الله و القبلي لاولاد أبي اسماعيل و الرحبة القبلية لاولاد أبي اسماعيل و الجوفية لاولاد باكة من قسمة أولاد عبد الله و اقتسموا جهة تنومة و تمزار قسمت لاولاد عبد الله و قسمت لاولاد أبي اسماعيل من فوق تنومة الى أسفلها قسمت بقسمة و الاصول النازلة كلها لاولاد أبي اسماعيل ما خلا ما يكون من بني مصعب. وجد ذلك بخطّ عمّي دحمان الشيخ رحمه الله بتاريخ عـ 1121 ـسام" (73).





النظام المحوري للهياكل الاجتماعية في ميزاب

لإسماعيل مروق بتومة الى اسفلها فسمت بقسمة والأصول
النازلة كلها الا ولاد ابو اسماعيل ما خلا ما يكون من بني مصعب وجد
ذلك بخط عمي دحمان الشيخ رحمه الله بتاريخ عشرين وامّا

خلاصة : ان تقسيم أراضي القصر في ميزاب يخضع اذن لمقياسين :

ـ مفهوم الملكية في الاسلام الذي يعتبر الكون كله ملكا للـه دون الانسان الذي يقتصر دوره على التصرف في هذ الملك و الاستخلاف فيه.

ـ طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تستند الى التركيبة الأسرية و القبلية للمجتمع.

ج- في الهيكلة العمرانية للقصر :

بعد توضيح و تبيان المقاصد و الاهداف الاساسية التي اعتمدت في اختيار موقع القصر فاننا سنتناول بالبحث هيكلته من حيث صياغته و طريقة توظيفه باعتبار ارتباط التوزيع المادي و المكاني لعناصره و مكوناته بالحاجيات الاجتماعية و الاقتصادية لسكانه والمصبوغة بالنمط الثقافي الخاص لهذا المجتمع.

فالقصر الميزابي يتكون أساسا من حيث تشكله من أربعة عناصر و هي :

ـ المسجد

ـ المساكن

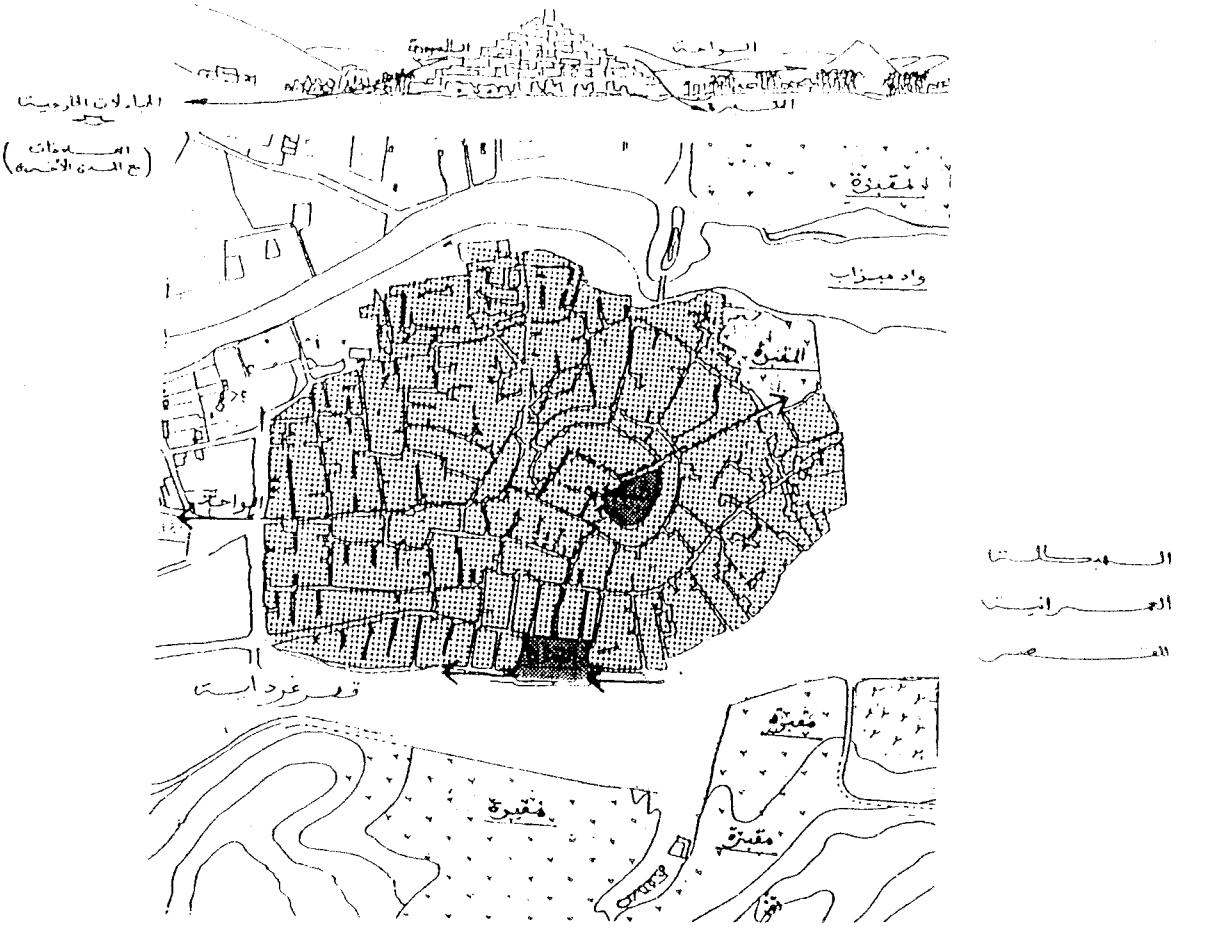
ـ السوق

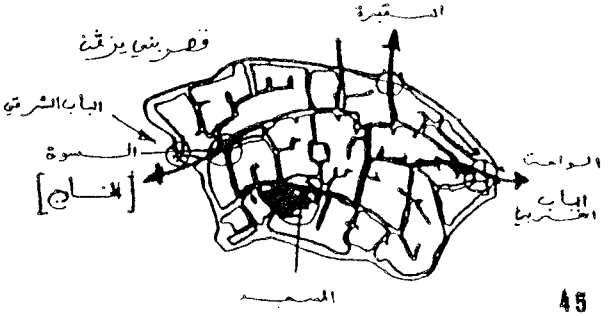
ـ المارقات

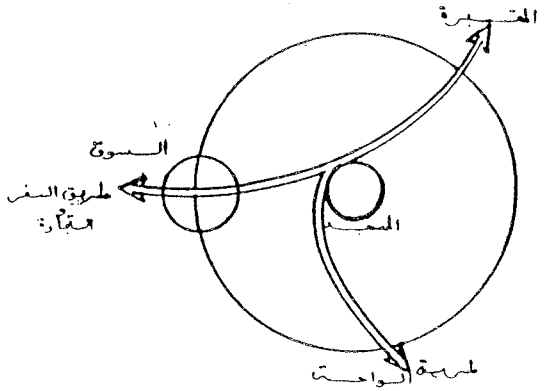
و هو في جملته يمثل كتلة واحدة رغم تميّز عناصره بوظائف مختلفة و استقلال مجال الواحد منها عن الآخر.

و تتوزع العناصر الاربعة المكونة للقصر و التي سبق ذكرها كالآتي :

يحتل مسجد القصر الوحيد وسطه و المكان المرتفع فيه، في حين يتخذ السوق موضعه في أسفل القصر و في طرفه حيث يلتصق بالحصن ليكوّن مجالا مشتركا بين داخل القصر و خارجه. أما المجال السكني الذي يمثل الجزء الاكبر من فضاء القصر ويكوّن نسيجه العمراني ، فهو يحيط بالمسجد و يتواصل ليبلغ حصن القصر وسوقه ، بل ان بعضا من المساكن تكوّن أحيانا جزءا من الحصن نفسه. أما الطرق فهي تمثل شرايين القصر و قنوات الاتصال فيه و هي تنقسم الى طرق رئيسية و أخرى فرعية ، و طرق عامة و خاصة ، و طرق نافذة و غير نافذة تختلف باختلاف وظائفها و المنافع


الواحة
الجبال المحيطة
المقبرة
وادي ميزاب
القصر
الواحة
قصر غرداية
مقبرة
مقبرة
مقبرة
المساجد
العمارة
القصر


المقبرة
قصر بني يزقن
الباب الشرقي
السوق
[الخان]
الواحة
الباب الغربي
المسجد


المقبرة
السوق
طريق السفر
المسجد
ملتقى الواحة

المرتبطة بها . و حصن القصر به أبواب ترتبط بطرقه الرئيسية و تربطه بمختلف المجالات الخارجة عنه و المتمثلة في المقابر المحيطة به و الواحة و طرق السفر .

و رغم أن هذه الهيكلة تخضع الى القواعد الاسلامية العامة لتخطيط المدن فانها تأثرت بعوامل اجتماعية ، اقتصادية ، دفاعية و جغرافية مناخية خاصة تميّز القصر الميزابي عن بقية المدن الاسلامية .

لقد كان للبعد الاجتماعي الاثر الكبير في صياغة هيكلة القصر الميزابي حيث أن التخطيط يقوم أولا بالاتفاق على حدوده و مواقع منافعه (من مسجد و سوق و غيره) و مقاييس و مواقع طرقه ، فالاتفاق هو أساس من الاسس الاجتماعية الاباضية يستمد قوته من مبادئ الاسلام و قيمه .

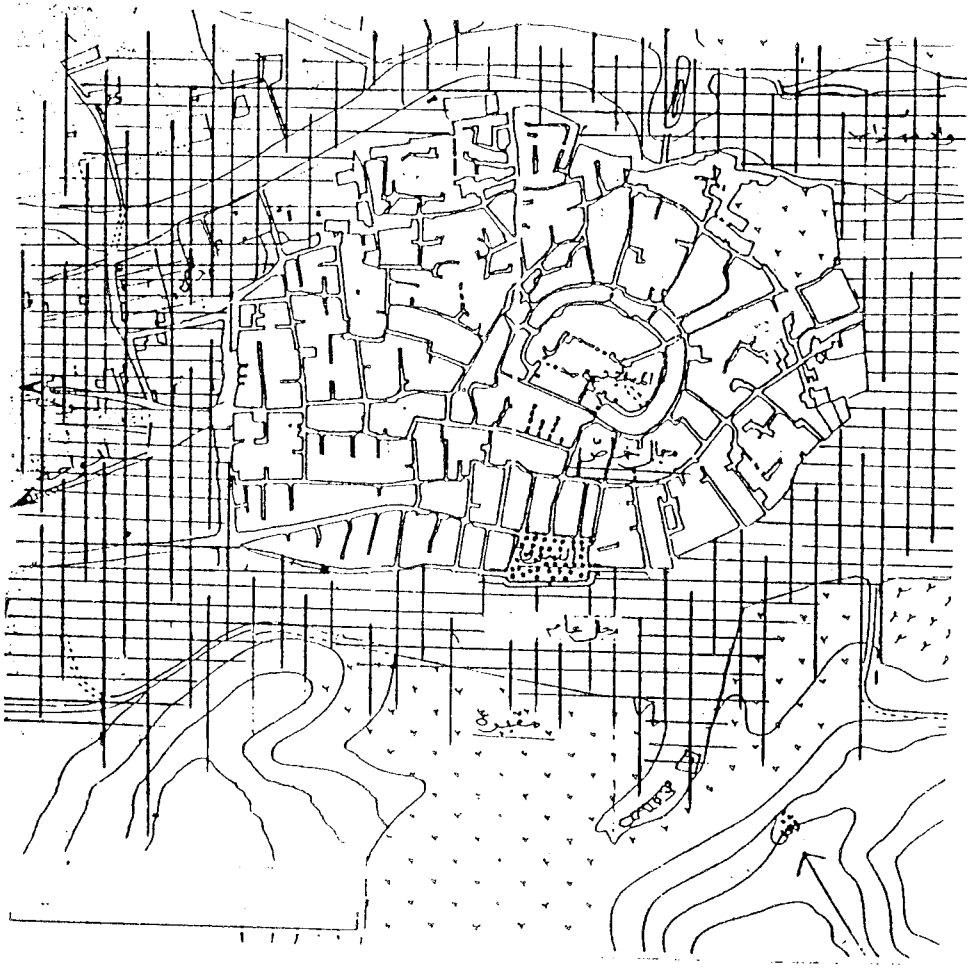
و تحكم التوزيع المجالي و الفضائي للمدينة الميزابية أزواج متقابلة (74) متفاعلة الواحدة مع الاخرى و تعكس هذه الازواج البعد الاجتماعي الذى صاغ هيكلة المدينة و تتمثل هذه الازواج في ما يلي :

- الزوج الاول : (الداخلي / الخارجي)
- الزوج الثاني : (العام / الخاص)
- الزوج الثالث : (الديني / الدنيوى)
- الزوج الرابع : (الحي / الميت)
- الزوج الخامس : (الرجالي / النسائي)

و تتبع الزوج الخامس و هو (الرجالي /النسائي) أزواج اخرى تحدد حسب السن من ذلك الصغير و الكبير و الصبي و الشاب فالشاب و الكهل ثم الكهل و الشيخ الخ ...

و بخصوص الزوج الاول فاننا نستطيع أن نقول أن المجال الداخلي بالنسبة للمجتمع الميزابي بل لكل فرد من هذا المجتمع هو القصر كله و ماخرج عن ذلك أي ما وراء السور يعتبر مجالا خارجيا . فالقصر بدوره و طرقاته و منافعه كلها يعتبر مجالا واحدا و هو مجال خاص بهذا المجتمع و لا يجوز للدخيل اختراقه أو الانتفاع به ، لذلك نجد دائما ، و في مختلف مراحل نمو القصر تحولا دائما في مكان السوق الذى يجب ان يكون على مشارف المدينة و الذى يمثل نقطة وصل بين الداخل و الخارج بين الخاص و العام باعتباره يمثل موقع التبادل التجارى بين سكان القصر و البدو من القبائل المجاورة و الوافدين على المدينة .

ان مفهوم الداخلي و الخارجي في المجتمع الميزابي هو مفهوم ثقافي عقائدى لا شخصي أو فردى ذاتي ، فالفضاء الداخلي للفرد هو المجتمع بأسره و الفضاء الخارجي هو كل ما خرج عنه . ان المجتمع الميزابي يمثل كتلة و كلا لا يتجزأ ، فكل فرد فيه يعتبر مسؤولا عن المجتمع بأكمله و حارسا له و مثال ذلك أن الغريب يجد نفسه معرضا



الهيكلة العمرانية للقصر

حسب السنوج (خاص/عام)

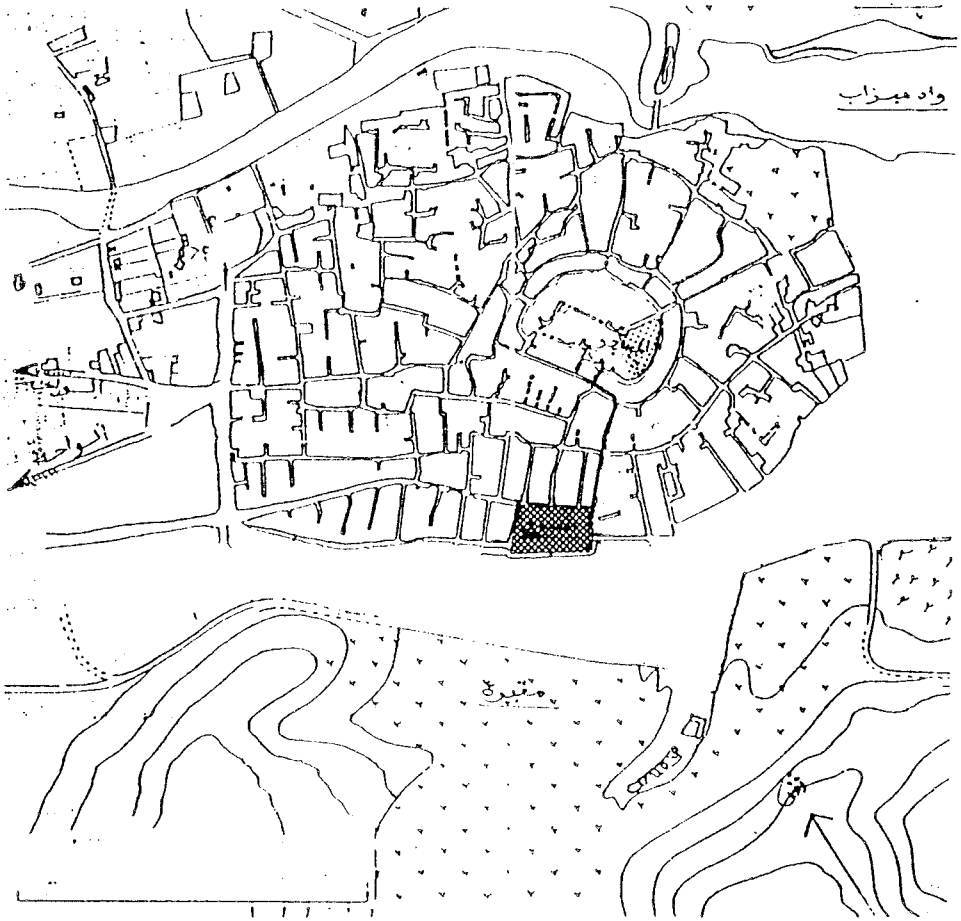
للاستجواب أينما وجد في القصر و ذلك من قبل أي فرد من المجتمع. و ينطبق نفس الشيء على أي فرد من أفراد المجتمع كلما تأخر عن الدخول الى القصر بعد غلق أبوابه عند المغرب ليصبح بذلك محل ريبة و شك باعتبار أن الفضاء الخارجي الذى كان فيه هو فضاء مهمّش لا تحكمه أية قوانين و لا يخضع لأية مراقبة، بعكس الفضاء الداخلي (للمجتمع) و الذى هو القصر الذى يخضع لقوانين مضبوطة تؤطر ممارسات الافراد و الجماعات فيه و تراقبها. فحصن المدينة الميزابية اذن يعتبر حصنا دفاعيا لا من جانبه المادي فقط و لكن من جانبه المعنوى أيضا فهو حصن عسكرى و ثقافي للمجتمع ضدّ كل ما من شأنه أن يهدده في دينه و ماله و نفسه و عرضه.

و اخيرا فان كل من دخل في الصور يعتبر أصيلا و كل من خرج عنه يعتبر دخيلا، و هذا المقياس هو مقياس ثقافي فكري لا عرقي أو طبقي.

ان التدرج في تقسيم المجالات حسب أصنافها (داخلية و خارجية، خاصة و عامة، نسائية و رجالية الخ...) هو جوهر هيكلة المدينة الميزابية و مختلف مجالاتها و فضاءاتها، و يخضع هذا التدرج الى التركيبة و الهيكلة الاجتماعية للمجتمع الميزابي المصبوغة بالفكر الاباضي المعتمد على القيم و المبادىء الاسلامية من صلة الرحم و الحفاظ على الحرمات و تدعيم التكافل الاجتماعي الخ...) و الذي ينطلق من الاسرة كخلية أولى الى المجتمع كله كوحدة و كتلة متجانسة مرورا بالعائلة ثم العشيرة و القبيلة، و بخصوص الخاص و العام فان القصر الذى يعتبر مجالا خاصا بالمجتمع الميزابي يعتمد هو نفسه على تقسيم يحتوى على مجالات خاصة و عامة بالنسبة لافراد و جماعات هذا المجتمع. فالقصر ينقسم الى "خطط" حسب القبائل و العشائر و تعتبر الخطة مجالا خاصا بالقبيلة أو العشيرة التي تحتلها و الطرق التي تنقسم الى رئيسية و فرعية و ثانوية و نافذة و غير نافذة تخضع الى تدرج في تصنيف ما هو خاص منها و ما هو عام بحيث أن طرق القصر الرئيسية التي تعتبر خاصة بالمجتمع الميزابي هي عامة بالنسبة لمختلف القبائل فيه و ما هي خاصة بكل قبيلة هي عامة بالنسبة لمجموع عشائرها و ما هي خاصة بكل عشيرة هي عامة بالنسبة للعائلات المكونة لها و ذلك وصولا الى الطريق الخاص بالعائلة يقول الشيخ أبو العباس أحمد : "و أما الشارع الذى هو لعامة أهل المنزل (*) دون غيرهم من الناس فانهم يمنعون من يجوز فيه من غيرهم و لا يتمانعون فيما بينهم من الجواز فيه (7#5) كما أن السوق و المسجد يعتبران مجالين عامين في القصر الا أننا نجد السوق الذى هو فضاء عام مقصورا على الرجال دون النساء و الصبيان و حتى الشباب ليبقى المسجد الفضاء الوحيد في القصر المخصص لكل أفراد المجتمع باختلاف أجناسهم و اعمارهم رغم أنه هو نفسه مقسم الى فضاءات حسب الجنس و السن.

أما في ما يخص الزوج الثالث و المتمثل في الديني و الدنيوى فتتبعه في مستوى الهيكلة جملة من الرموز





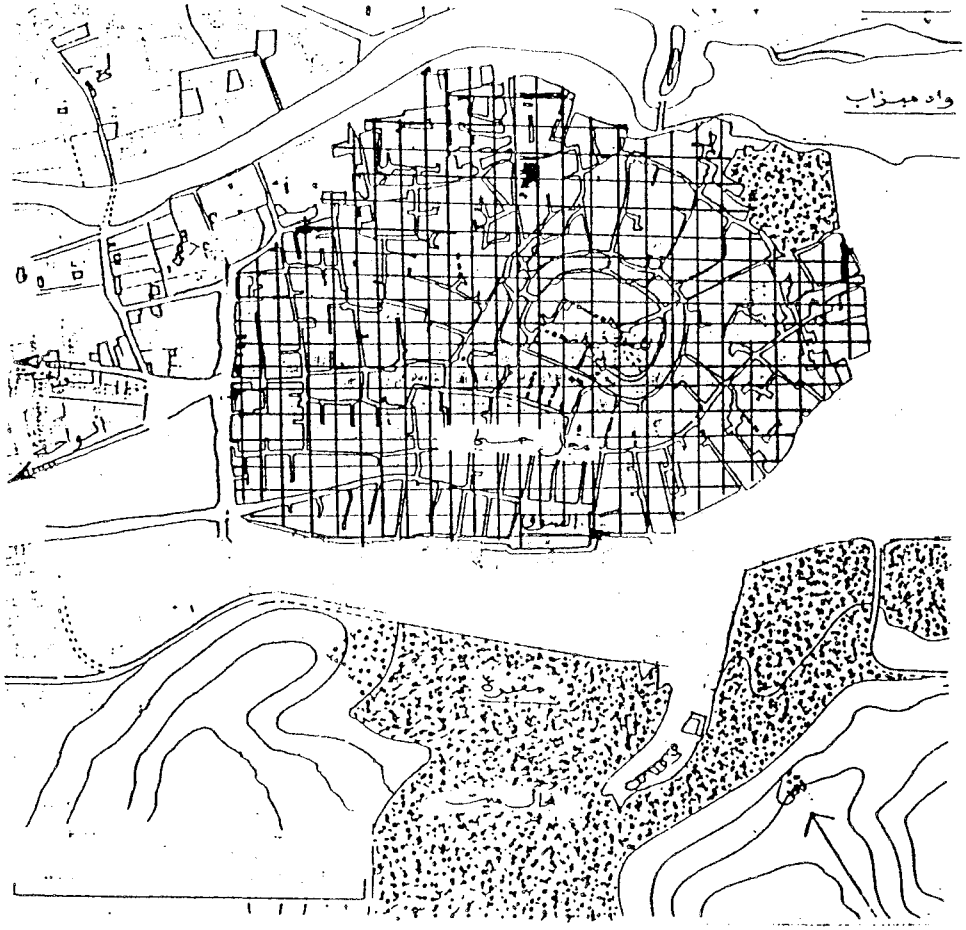
المدينة العمرانية القصر
حسب الشرح (بيني / دنيوي)

تنعكس على المجال بحيث كل ما هو ديني له سمة العلوّ والارتفاع و الاشراف فنجد المسجد الذي هو رمز الدين يحتل الموضع المرتفع في المدينة و وسطها أما ما هو دنيوي فانه يأخذ مكانه في أسفل المدينة ، فالسوق الذي تتمظهر فيه المعاملات التجارية الدنيوية يمثل رمز الدنيا لذلك وجب إبعاده الى اقصى حدّ ممكن عن المكان الطاهر المرتفع الذي يحتله المسجد. الا أن ذلك لا يعني وجود قطيعة بين ما هو ديني وما هو دنيوي اذ أن الاسلام يعتبر أن عبادة اللـه تتجلى في كل ممارسة فردية أو جماعية و مهما كان مجالها ، من هنا نجد أن الهياكل الدينية في المجتمع الميزابي المتمثلة في مجالس العزابة هي التي تقوم بتسيير السوق و الاشراف عليه ، أما هذا الفصل الذي اتخذناه فانه لا يعدو أن يكون فصلا معنويا مجازيا .

و يتجلى تأثير البعد الروحي و مدى تعلق المجتمع الميزابي بدينه و عقيدته على مستوى هيكلة المدينة عبر هذا الزوج "ديني / دنيوي" في القيمة العقارية لعمارة الفضاء بحيث نجد أن هذه القيمة ترتفع كلما صعدنا من أسفل المدينة أو من السوق الى أعلاها حيث المسجد . بالرغم مما يمثله المكان المرتفع من حصانة و أمن أكبر من الذي في الاسفل الا أن ذلك لا يعتبر السبب الرئيسي في اختيار المكان المرتفع رغم أنه هو أيضا يدخل في اطار حفظ النفس باعتباره كلية من كليات الدين وجب القيام بها .

حيث أن المجال المحيط بالسوق يحتوي على ايجابيات اقتصادية و معاشية تتمثل في سعة أرض المسكن و سهولة بنائه و الوصول اليه الى جانب قربه من السوق ، الشيء الذي يؤهله لتوظيفه اقتصاديا أما المكان المرتفع من المدينة فانه يحتوي على صعوبات عديدة من حيث قلة المساحة الارضية المعدة للمسكن و صعوبة بنائه، تضاف اليهما صعوبة التنقل من الاسفل الى الاعلى الخ ... من هنا يتضح جليا و من خلال الفارق في القيمة العقارية بين المجالين، مكانة حفظ الدين في حياة المجتمع الميزابي و في صياغة فكره و ممارسته .

أمّا تقسيم المدينة الى مجال حي وآخر ميّت أو بالأحرى مجال نابض وآخر ساكن فيظهر ذلك في التناقض الكلّي بين القصر الذي يمثل مجالها النابض بما يحتويه من عناصر الحياة ومن بناءات وفضاءات تزخر بالأنشطة وبين مساحات المقابر المحيطة به والتي تفتقد (قصدا) الى أبسط الاشارات الدّالة على الحياة بحيث أنّه يمنع البناء على القبور أو حتّى تجصيصها لتصبح مجموعها مجرّد أرض لا يمكن التفريق فيها بين قبر وآخر الاّ ببضع أواني الفخار المكسورة (رمزا للموت) والتي هي نفسها مصنوعة من تراب، أوبالأحجار الموضوعة هنا وهناك على كل قبر، اشارة له وتعريفا بصاحبه لمن وضع هذه الآنية عليه ولمن يريد زيارته ويعكس هذا المظهر النظرة الاسلاميّة للانسان التي تعتبر أنّ الناس سواسية "كأسنان المشط" في حياتهم وبعد مماتهم، لا امتياز لأحد منهم الا بعلمه وتقواه يقول



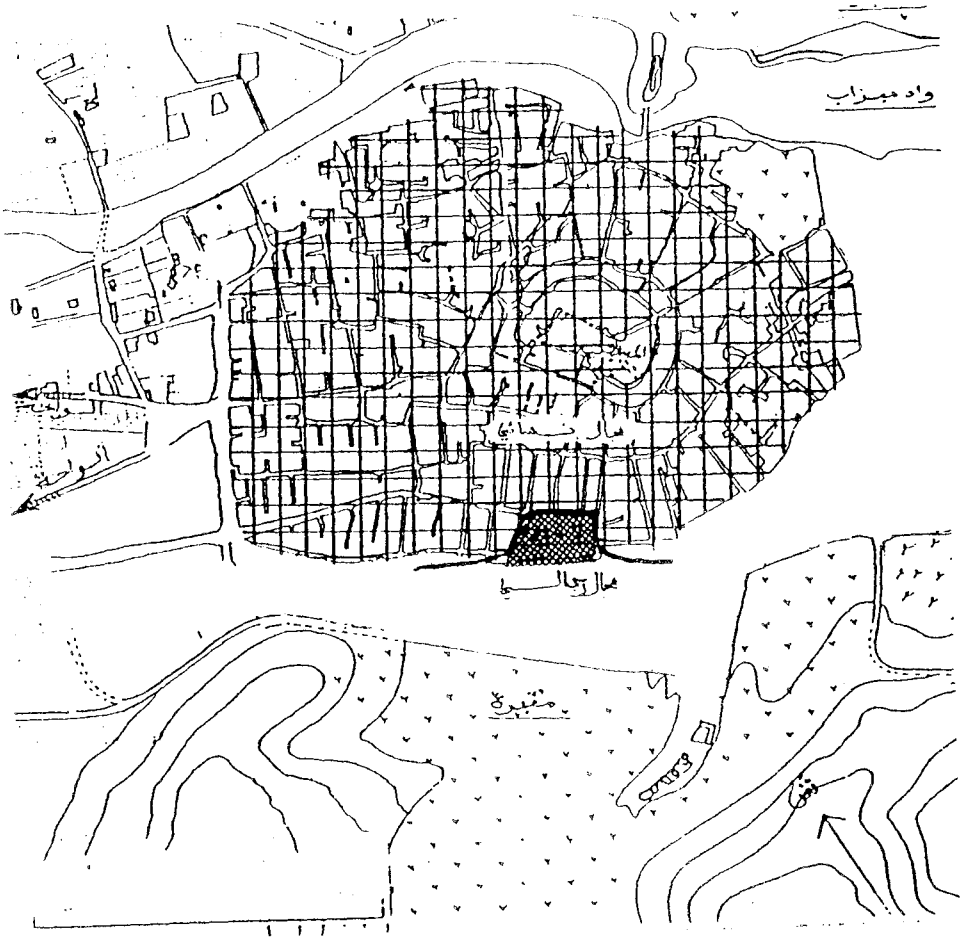
الهيكلية العمرانية للقصر

سنة الرفع (حجوا/ميت)

الله تعالى : "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (76) كما أن في ذلك تذكير بأصل الانسان ومقصده يقول تعالى : "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى" (77) ويصبح المصلّى في المقبرة المساحة الوحيدة المبنية والتي قليلا ما تكون مغطاة اتقاءً عوارض الطقس المختلفة الى جانب بعض الرموز البسيطة المبنيّة على قبور العلماء اكراما لهم ،والذى هو في حقيقة الأمر تشريف للدين وحض للأحياء على الأخذ به ،قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم : " من لم يحزن على موت عالم ــ أى من حيث علمه ولو لم يعمل به ــ فهو منافق " (78) ورغم وجود هذا التناقض بين هذين المجالين ، (القصر والمقابر) الا أن هناك علاقة هيكليّة بينهما تتمثّل في قرب المقابر من القصر نظرا لحاجة سكّان القصر اليها في مختلف الأوقات سواء للدفن أو للزيارات الدورية التي تؤدّى فرديّا وجماعيّا على امتداد السنة ، لذلك أحدثت الطرقات والمسالك الموصولة بها والتي تخضع لمقاييس تأخذ بعين الاعتبار وظيفتها . كما أن تقسيم أراضي المقابر كان انعكاسا للتركيبة الاجتماعيّة لسكان القصر حيث أن لكلّ عشيرة مقبرتها الخاصة بها وهذه العادة ليست غريبة عن نمط هيكلة المدينة الاسلامية ،ذلك أنه في عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كانت " لكل قبيلة في خطتها مقبرة خاصّة بها". (79)

وأخيرا يأتي تبيان مدى تأثر هيكلة القصر الميزابي بالزّوج الخامس (النسائي الرّجالي) . فالرّجل والمرأة هما العنصران المكوّنان للمجتمع ولكلّ عنصر منهما دوره ووظيفته الاجتماعيّة المحدّدة حسب قيم ومعايير الفكر الاباضي المعتمد على العقيدة الاسلامية ،والتي تقوم عليها الحياة الاجتماعيّة في ميزاب . كما أنّ طبيعة العلاقة التي تربط بينهما تخضع أيضا لنفس هذه القيم والمعايير . فمهمّة الرّجل ودوره هو العمل والتقوّت باعتباره المطالب اجتماعيّا بتوفير الغذاء لأفراد أسرته الذين هم تحت رعايته ومسؤوليته . أمّا المرأة وهي العنصر الثاني المركّب للمجتمع فهي مطالبة بتربية أبنائها وهي المسؤولة عن تنشئتهم . ووفق هذين الدّورين المتكاملين لكلّ من الرّجل والمرأة ،ونظرا للعلاقة المحدودة التي تربط بينهما والتي لا تكون الا في اطار الزوجيّة أو في الاطار العائلي الضيّق ، يتشكّل مجتمعان اثنان ضمن المجتمع ككلّ وهما مجتمع رجالي ومجتمع نسائي،ويتبع هذا التقسيم المجتمعي تقسيم في فضاء المدينة الى مجال رجالي وآخر نسائي تتبع كلّ منهما جملة من الرّموز صيغت عفويا وحسب العرف المجتمعي .

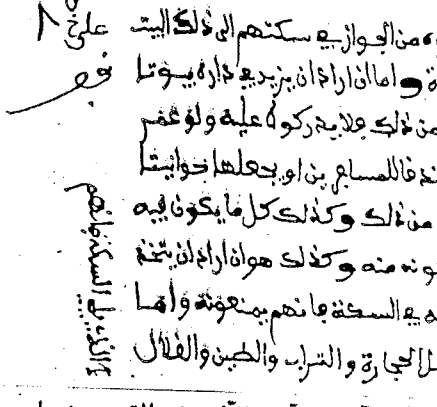
في حين يمثل السّوق المجال الوحيد في القصر ، المخصص للرّجال ، يعتبر الجزء الباقي منه مجالا نسائيا بالأساس ، ذلك أنّه يتكوّن من مجموع مساكنه والطّرق النّافذة اليه . والمسكن هو فضاء المرأة الخاص ومجال نشاطها فهي تكتسب قدرا أوسع بكثير من الرّجل فيه ، بل انّ الرّجل صاحب البيت يحتّم عليه اعلان قدومه عند الدّخول اليه ، كما أنّ حريته في استعمال المنزل مقيّدة وظيفيّا ،فضائيّا وزمنيا ، وأصبح بذلك المسكن رمزا للمرأة ،فيقال مثلا عند



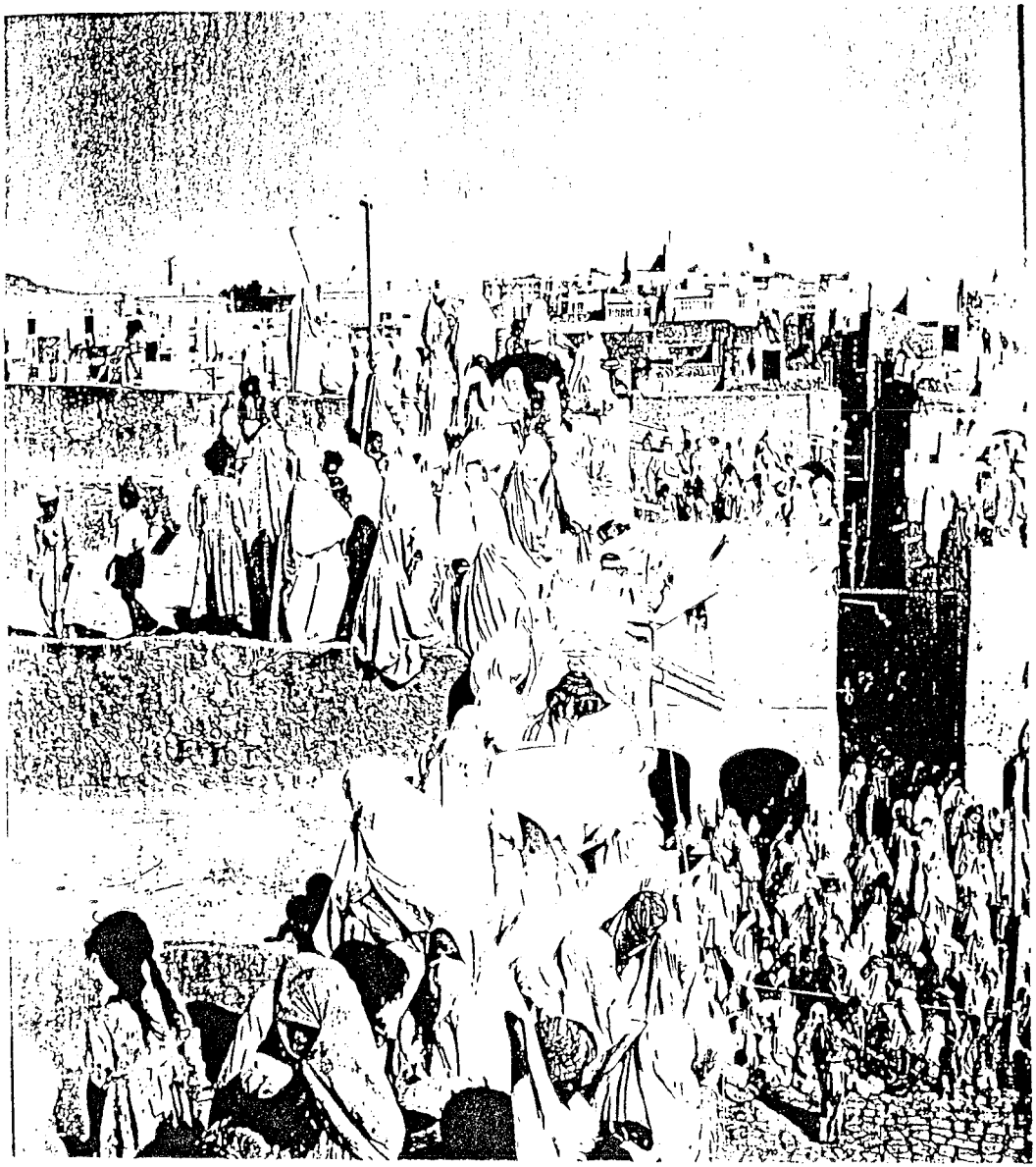
الهيكلة العمرانية للقصر

حسب السوج (رجالي/نسائي)

دخولها منزلا " خلّي الدّار تجوز "، ونظرا لما تقدّم ،فان استعمال الطّرق من قبل الرّجال لا يكون الاّ للمرور والعبور فقط ،ورغم ذلك فانّ النساء عادة ما يستعملن أسطح المساكن للعبور من منطقة الى أخرى حتى يتجنّبن مجرّد الالتقاء بالرّجال في الطّارق فكأنّما تصبح بذلك الطرق مجال مرور الرّجال والأسطح مجال مرور النّساء ، ومع ذلك أيضا ،فانّ توقف رجل أو بعض الرّجال في طريق ما ،يصبح محلّ ريبة وشك ، فالعرف والقوانين الميزابية تمنح احداث دكاكين أو وظائف أخرى في هذا المجال من شأنها استقطاب العنصر الرّجالي . ومثال ذلك المنع في التّغيير في الفضاءات أو الوظائف قوله : " ... وأمّا ان أراد أن يزيد في داره بيوتا لم تكن قبل هذا ويعمّرها كلها فاراد وا منعه من ذلك فلا يدركوه عليه ولو عمّر تلك البيوت غيره من النّاس وأمّا أن يجعله فندقا للمسافرين أو يجعلها حوانيتا أو رحى أو حمّاما أو معصرة فانّهم يمنعونه من ذلك وكذلك كلّ ما يكون فيه مجمع النّاس في تلك الدّار أو سوق فانّهم يمنعونه منه وكذلك هو ان أراد أن يتّخذ مكانا يجلس فيه قدّام داره أو مكانا يرقد فيه في السّكة فانّهم يمنعونه" (83)


واخر الى داره ولا يمنعوه من ذلك ولكن يمنعوه من الجواز في سكتهم الى ذلك البيت
ويمنعوه ايضا من الجواز من بيته الى السكة واما ان اراد ان يزيد في داره بيوتا
لم تكن قبل هذا ويعمرها كلها فاراد واصنعه من ذلك فلا يدركوه عليه ولو عمر
تلك البيوت غيره من الناس واما ان يجعله فندقا للمسافرين او يجعلها حوانيتا
او رحى او حماما او معصرة فانهم يمنعونه من ذلك وكذلك كل ما يكون فيه
مجمع الناس في تلك الدار او سوقا فانهم يمنعونه منه وكذلك هو ان اراد ان يتخذ
مكانا يجلس فيه قدام داره او مكانا يرقد فيه في السكة فانهم يمنعونه واما
وضع كل ما يحتاجون اليه في تلك السكة مثل الحجارة والتراب والحطب والغلال

" ... ولا يحدثوا في تلك السّقيفة حوانيتا ولا غيرها ممّا يضرّ بمن يمرّ من النّاس في القصر ويمنعوا من يمرّ من النّاس في القصر ويمنعوا من أراد أن يتخذ فيها موضعا للجماعة أو يربط فيه دابّته باللّيل أو النّهار وكذلك الصّنّاع كلّهم من الخرّازين والجزّارين يمنعون من القعود في تلك السّقيفة ونصب صنائعهم فيها فان أراد أهل القصر أن يجعلوا في قصرهم سوقا واتفقوا على ذلك كلّهم فلهم ذلك وان اختلفوا في ذلك فالقول قول من أبى منهم ذلك ... " (84)



فالعمل اذن على تجميع الدكاكين ومختلف الوظائف الرجالية في السوق، يرجع إلى هدف تجميع الرّجال في فضاء واحد تسهل مراقبته، وتكون بذلك للرّجل الصّلاحيات الكاملة في استعمال مجال السّوق (مركز لقاءات، محاوراته، التقائه بالأجانب، عمله، تجارته ...)

وتمنع المرأة من ارتياده أو حتى العبور منه، ومرور امرأة من هذا المجال مبعث على الرّيبة والشكّ بل تصبح بسلوكها هذا، المرفوض اجتماعيا وعرفا معرّضة لانتقادات المجتمع وضغوطه، لذلك فقد رسمت طرق ثانوية محيطة بالسوق تستعملها النّساء في تنقلها دون اللّجوء الى المرور عبر السّوق.

الاّ أنّ هذا التقسيم الأوّلي العام (نسائي/رجالي) تتبعه تقسيمات ثانوية حسب السّنّ. فالسّوق الذي هو مجال خاصّ بالرّجال تجده مقصورا على الكهول والشيوخ دون الصبيان الذين يتخذون من الأزقة والطرق مجال لعبهم ليكونوا بذلك تحت اشراف امهاتهم ورعايتهنّ، أمّا الشباب فانّ مجال تجمّعهم وتواجدهم يكون خارج القصر كلّية. ووجود شاب بالسّوق يكون عرضة للاستجواب.

وكما ذكرنا في بداية هذا العنصر من أنّ هيكلة القصر تأثرت بعوامل عديدة اجتماعيّة اقتصادية، دفاعية وجغرافيّة مناخيّة، فقد تناولنا بالبحث المستفيض العامل الاجتماعي ومدى تأثيره على هذه الهيكلة، الا أننا سنعرض العوامل الأخرى بعجالة لاجتناب التكرار في بعض المسائل التي سبق شرحها، وهذا باعتبار تداخل هذه العوامل وتكاملها الواحد مع الآخر، فالعامل الدّفاعي يؤثر في الاجتماعي، والاجتماعي في الاقتصادي الى غير ذلك. والجدير بالاشارة هنا أنّ للعامل الدّفاعي أثره الواضح في هيكلة القصر في ميزاب بحيث نجد أول ما يعترضنا في القصر هو حصنه وأبوابه، وهذه عناصر معمارية دفاعية بالأساس رغم ما تمثله من بعد ثقافي اجتماعي سبق شرحه، ثمّ يأتي موقع المسجد من القصر والذي يحتلّ وسطه وأعلاه ليكون بذلك آخر قلعة دفاعيّة يحتمي

بها السّكان عند اختراق أسوار القصر ،وتمثل صومعته برجا للمراقبة والاتصال ببقية الأبراج الموجودة خارج القصر سواء في الواحة والهضاب المحيطة بالوادي أو في القصور الأخرى المجاورة .

فلوسطية المسجد هذه اذن ،بعد دفاعي كما أنّ لها بعدا ثقافيا اجتماعيا وروحيّا سبق شرحه كما ذكرنا . وبضاف الى الحصن والمسجد،الطرقات الضّيقة والملتوية التي يصعب على الغازي اختراقها بسهولة،كما أنّ في ذلك تأقلما مع التضاريس — وما يمثّله من تسهيل للسير فيها والصّعود الى الأعلى — وحدّ من شدّة الرّياح وحرارة الشمس،فتكون بذلك متأثرة بالعامل الجغرافي والمناخي ،وفي هذا الاطار ،تأتي الوجهة العامّة للقصر ككلّ والتي غالبا ما تكون جنوبيّة شرقيّة ،وهذه الوجهة تحمي القصر من رياح الشمال الغربي ،كما توفر له شمس الصّباح النافعة . أمّا العامل الاقتصادي فيبرز خاصّة في موقع السّوق من القصر ،فالسّوق تقع فيه المعاملات التجارية والمبادلات مع الأطراف الأخرى الخارجية لذلك كان في موضع أقرب ما يمكن من حصن القصر فهو في علاقة شبه مباشرة مع الخارج ،ولا ننسى هنا ما لهذا الموقع من أبعاد ثقافية اجتماعية سبق تناولها بالبحث،كما أنّ في اختيار المسجد كموضع حزين لمؤونة سكّان المدينة وأسلحتهم تعبيرا آخر لوحدة هذه العوامل وتداخلها ،ذلك أنّ بالدّفاع حفظ للعرض والنفس والمال والدّين وبالاقتصاد كذلك حفظ لنفس هذه الكلّيات الدّينية بالأساس .

أخـــيرا

أنّ احتفاظ القصور الميزابيّة بتمازج وتناسق في شكلها وهيكلتها طيلة قرون عديدة راجع الى حرص المجتمع والهياكل الاجتماعية على تطبيق القوانين المتفق عليها والمنظّمة لعملية البناء والانشاء والتخطيط بكلّ دقة . يقول الشيخ أبو العبّاس : " واذا اراد قوم أن يحدثوا منزلا[5](*) عامّة كانوا أو خصائصا فانّهم يحدثون في أرضهم أو في أرض من أذن لهم أو في أرض ما لم تكن لأحد كما اتفقوا على حدوثه وعمارته فيما يحمّر كلّ واحد منهم ويجوز لهم الاتفاق على عمارته بالسّويّة أو على ما لهم فيه قلّ أو كثر ويجعلون له طرقه ومجازاته ومنافعه على ما أتفقوا عليه من سعة طرقه وذلك باتفاقهم كلّهم العامّ منهم والخاصّ أو ما رأى لهم أهل النّظر منهم أو من غيرهم ممّا اتفقوا عليه من البنيان والحدث فان بنوا أو عمّروا فلا يصيب من أراد منهم نقض ذلك ولا نزوعه سواء ضرّ ذلك عامتهم أو خاصّتهم أو غيرهم من النّاس فلا يجدون زواله عمّا كان عليه "[6](*)

خـلاصـــة

ممّا سبق ومن خلال هذه النّصوص القانونية المنظمة لعملية البناء والتخطيط في قصور ميزاب يتضح أنّه بعد الاتفاق على هيكلة القصر المراد بنائه يمنع أي فرد أو جماعة من المجتمع من تحوير في أي فضاء خارجـــي

أو داخلي ،عامّ أو خاصّ ،في شكله أو وظيفته المحدّدة له ،من شأنه الاخلال بالنّسق العامّ للقصر أو احداث أي خلل في هيكلته التي صيغت حسب القواعد الاسلامية والتي من أهمّها " درء المفاسد وجلب المنافع" ومنع الضرر عملا بقول الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم : " لا ضرر ولا ضرار " ،فلا مجال لتداخل وظائف مجالات وفضاءات مختلفة ولا مجال لتحويل أو تحوير في وظيفة أي فضاء كاستعمال الطّريق التي يتمثل دورها في التنقل فقط ، كمكان للتجمّع أو البيع والشراء ،أو كتحويل مسكن الى سوق أو حمّام أو فندق ... لأن في تغيير هيكلة القصر وتحوير وظائف مختلف المجالات فيه بما لا يتفق مع المبادئ الاولى التي كانت وراء صياغته ،تغييرا في الممارسات والعلاقات الاجتماعية المبنية على الأسس الاسلامية والقواعد الفكرية للمجتمع الميزابي الاباضي ،وتقليص قدرة المجتمع والهياكل الاجتماعيّة على المراقبة وبالتّالي قلب مبادئ وقيم هذا المجتمع بما يحدث الانخرام والتفكك في طبيعته ونمط حياته وسلوكه وبالتالي ثقافته التي وجد من أجلها .

وتتضح جوانب التخطيط الاسلامي للمدن الميزابية ابتداء من اختيار الموقع ثمّ تخطيط الموضع تخطيطا يحقّق غايات المجتمع الفردية والجماعية والمادّيّة والرّوحية ،انطلاقا من الفكر والمذهب الاباضي المبني على القيم والمبادئ الاسلامية ،فبرز الى حيّز الوجود التكوين أو التّركيب المادي للمدينة الميزابية الذى تحكمه قوانين اجتماعية تنظّم عناصره ومكوّناته تنظيما خاصا متميّزا صاغ في النهاية الهيئة الواحدة التي نراها في جميع المدن الميزابية .

كما تتضح الاسس والمحاور الرّئيسية التي حكمت تخطيط المدينة الميزابية ،والتي تميّزت في هيئتها المادّية عن المدن الأخرى لما تشتمل عليه من تكوينات معمارية أساسية وهامّة ،مرتبطة بحياة المجتمع الميزابي داخلها ، وأسس تحكم توزيع هذه التكوينات على خطّة المدينة باعتبار النّظم التي تسير وفقها حياة المجتمع في المدينة الميزابية والمؤسسات المختلفة التي تضبط حركة الحياة وفق هذا النسق .

واتجهت دراستنا للحياة الاجتماعية العامّة في ميزاب من منظور خاصّ يحاول الرّبط بين الحياة الاجتماعية في المدينة الميزابية وملاءمة تخطيط المدينة لممارسة النشاطات الاجتماعية ومدى تأثر هذا التخطيط بتلك الجوانب التي تحكم الحياة الاجتماعيّة في ميزاب ،وكيف أنّ المدينة الميزابيّة بهيكلها التخطيطي والعمراني ما هي الا صدى لجوانب النشاطات الاجتماعية فيها .

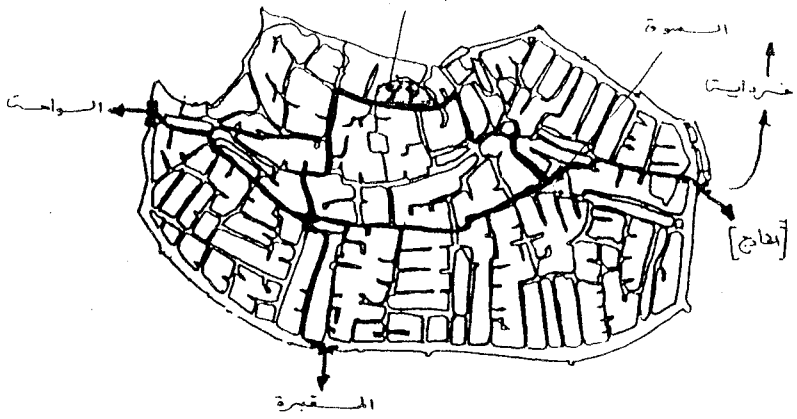
ان التزايد السكاني في مدن وادي ميزاب شيء عادي نظرا للنمو الديمغرافي من جهة ، ونظرا كذلك لتوافد الكثير من الافراد والعائلات وحتى القبائل [75] على ميزاب ملجأ الكثيرين من اباضية شمال افريقية وقبلتهم في الكثير من المراحل التاريخية وذلك حين كانوا يتعرضون لبطش بعض الامراء وتنكيلهم سواء ذلك في اطار تصفية حسابات أو كردّة فعل على ثوراتهم التي لا تهدأ أو خروجهم عن السلطة الحاكمة الذي لا يتوقف ، فيكفي وجود أربعين من الثوار [76] حتى يعلن العصيان وتبدأ الثورة .

الا أن هذا النمو كان يضطر سكان هذه المدن اما الى بناء مدينة أخرى ، بعد ترك المسافة الفاصلة بينهما والتي يحدد أدناها الشيخ اطفيش بقوله "حريم المدينة خمسمائة ذراع" [77] أو الى توسيع المدينة الاصلية باضافة خطط وأراضي اليها مع تجديد مرافقها العامة وتحويلها أو توسيعها حيث أن الحصن والسوق يتم تحويلهما مع التكبير فيهما بينما يتم توسيع المسجد الاصلي باضافة بعض المساكن المجاورة له والتي يهبها أصحابها، أو بعد شرائها منهم وذلك دون العمل على احداث أسواق أو مساجد أخرى لتنافي ذلك مع اطار الهيكلة الاصلي والاولي الذي يضبطه العرف وتضبطه القوانين المذكورة آنفا .

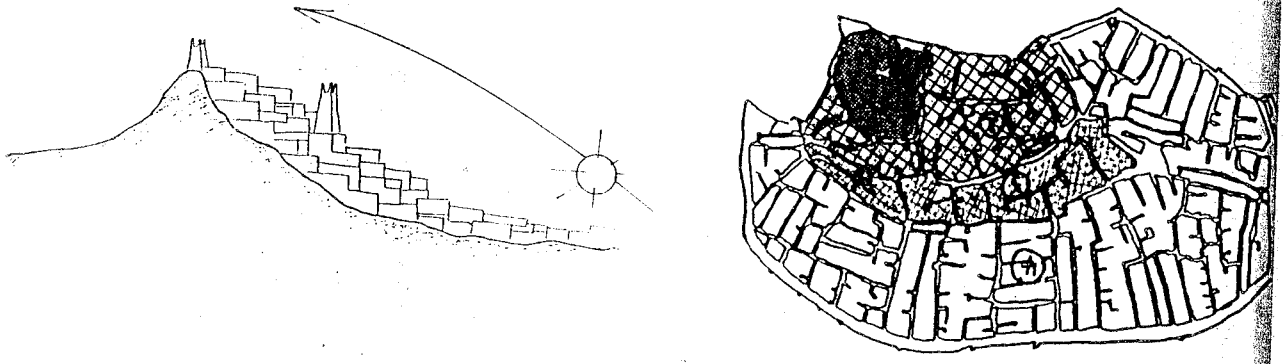
اذن فان المدن الحالية لم تكن على العمران والاتساع المشاهد عليها الان ، فغرداية مثلا جددت الاسوار فيها ، والاسواق ثلاث مرات ، وكذلك القرارة مع كونها حديثة العهد . وبني يزقن كان سورها في منتصف الجبل الذي بنيت عليه ، ثم امتدت الى ما عليه سورها الان ، وكذلك مليكة ، كانت محصورة في الناحية الشرقية الجنوبية ثم امتدت الى أعلى ناحية الشمال [85] .

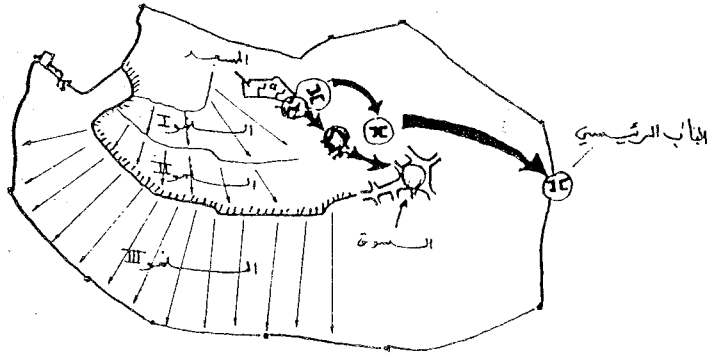
الا أن هذا التوسع وهذه الاضافات لا تكون الا باتفاق كل السكان في القرار وذلك حول نسبتها ومساحتها وموقعها ، ليكون ذلك الاتفاق ، الذي هو مبدأ اسلامي [84] ، ملزما لجميع السكان فيكون بذلك قانونا اجتماعيا ذاتيا يسعى كل فرد لتطبيقه ومراقبة من يتجاوزه لينتقل بعد ذلك الى قوانين مكتوبة ومصادق عليها من قبل مجلس العزابة في شكل اتفاقات بين من يهمهم الامر . وباعتبار أن لكل فرد حق الاستشارة والاخذ برأيه ، وباعتبار كذلك أن مسألة احداث المنافع أو تحويلها أو توسيعها يرجع اقرارها الى كل أفراد المجتمع ، فهم مطالبون بانجازها والمشاركة فيها بما أوتوا من الامكانيات المادية والبشرية .

يقول الشيخ أبو العباس "ولا يسبب أحدهم أن يزيد الى القصر من أرضه شيئا الا باتفاقهم وسواء في هذا



مراحل نمو قصر شيزوثن





كانت الارض لهم كلهم أو لبعضهم دون بعض أو لواحد منهم أو هي بينهم مشاع فلا يفعلوا في هذا كله شيئا من الزيادة والنقصان والتقصير دون ما اتفقوا عليه في التطويل وان اشتركوا في السور والبيوت فانهم يتواخذون عليها كما اشتركوها وان اشتركوا في السور ولم يشتركوا البيوت فانهم يتواخذون كلهم على ما انهدم من السور ولو أنه انما انهدم ما يقابل بيت احدهم" (88)

عليه ولا يصيب احدهم أن يزيد الى القصر من ارضه شيئا الا بانتهائهم وسواء في هذا كانت الارض لهم كلهم او لبعضهم دون بعض او لواحد منهم او هي بينهم مشاع فلا يفعلوا في هذا كله شيئا من الزيادة والنقصان والتقصير دون ما اتفقوا عليه في التطويل وان اشتركوا في السور والبيوت فانهم يتواخذون عليها كما اشتركوها وان اشتركوا في السور ولم يشتركوا البيوت فانهم يتواخذون كلهم على ما انهدم من السور ولو انه انما انهدم ما يقابل بيت احدهم وان

خلاصة :ان نمو المدينة ،أو بالاحرى القصر في ميزاب يخضع الى الاسس التالية :

- الحاجة الملحة الى التوسع .
- الاتفاق على مجال التوسع من حيث مساحته ووجهته وتقسيمه بين مختلف عناصر المجتمع
- اعتماد اسس الهيكلة الاصلية والحفاظ عليها
- المشاركة في انجاز ما هو مشترك من منافع ...

ج/ في الطرق والمسالك :

ان الطارق في المدينة الميزابية لا تتجاوز وظيفتها الرئيسية العبور والمرور حيث انها تمثل قنوات الاتصال بين مختلف منافعها ومرافقها الا أن احداثها وتخطيطها يكتسي اهمية كبرى في هيكلة المدينة ،لذلك صيغت القوانين الضابطة لانواعها وتقسيماتها والمحددة لوظائفها وطارق استعمالها والحقوق والواجبات الفردية والجماعية التي تتبع مستعمليها وذلك وفق القيم والمناهج التي تحكم العلاقات والممارسات الاجتماعية .

من هنا وانطلاقا من هذه القوانين ،التي صاغت هذه الطارق سنعمل على ابراز ثلاثة مسائل هامة تتعلق بالطرق في المدينة الميزابية وهي :

1 ـ احداث الطرق

2 ـ اقسام الطرق وانواعها

3 ـ وظائف الطارق واستعمالها

1 ـ احداث الطرق

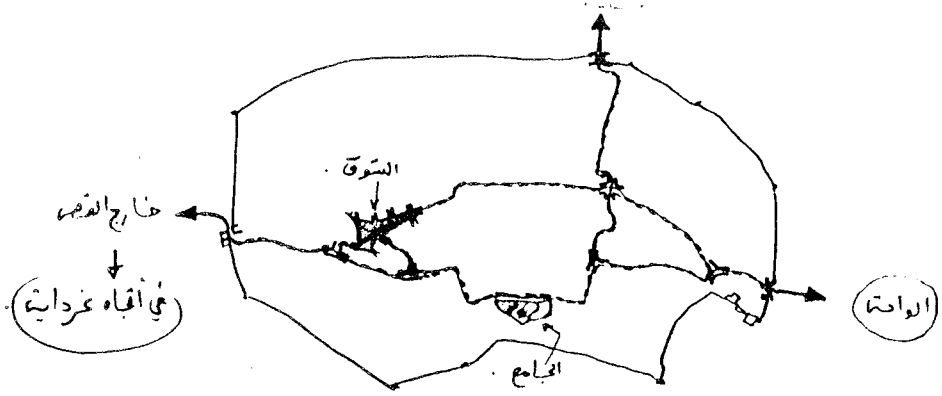
فيما يخص مسألة احداث الطرق التي تخضع لعدة عوامل سبق شرحها عند دراسة هيكلة القدر ، فانها تكون سابقة لعملية البناء والانشاء التي يقوم بها السكان لمساكنهم بحيث يتم الاتفاق على ما هو رئيسي فيها ، في أمكنتها ومقاييسها ومعانيها عند تقسيم الخطاط بين مختلف القبائل وقبل احداث اي بناء لتتكفل كل قبيلة بعد ذلك باستخراج الطارق التي تكون داخل خطاتها والتي تحتاجها عشائرها التي هي بدورها تقوم بنفس العمل بالنسبة للعائلات المكونة لها وكل هذا يتم بالاتفاق بين كل من كانت في مجاله وخصصت له بحيث يكون تخطيط هذه الطرق ، في موقعها وطبيعتها ومقاييسها والمعاني التي احدثت من اجلها ، تخطيطا جماعيا يقوم به كل فرد في المجتمع وذلك اعتمادا على مبدأين اسلاميين فقط وهما :

" دفع الضار وجلب المنافع" حتى اننا نجد ذكر كلمة المنفعة في مخطوط مختصر العمارات للشيخ اطفيش في صفحة واحدة تسعة مرات بينما نجد كلمة الضرة تذكر في صفحة أخرى ثمانية عشر مرة .

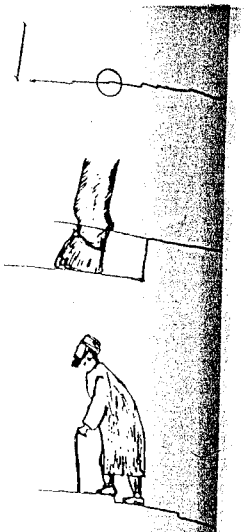
يقول الشيخ أبو العباس أحمد " واذا أراد قوم أن يحدثوا منزلا ، عامة كانوا أو خصائصا فانهم ... يجعلون له طارقه ومجازاته ومنافعه على ما اتفقوا عليه من سعة طرقه وذلك باتفاقهم كلهم العام منهم والخاص أو ما رأى لهم أهل النظر منهم" (89) .

وتعتبر هذه الطارق اصيلة في ذاتها بحيث أنها لم تكن نتيجة أو فراغا احدثه بناء المساكن ، كما يعتقد البعض ، نظرا لالتوائها وعدم استقامتها واختلاف مقاييسها من واحدة الى أخرى ... ، حتى أن الشيخ ابا العباس يذهب الى القول بأنه "لا ينظر الى البيوت في الطارق ، وانما ينظر الى موضع يقصدونه ولا يستغنوا عنه مثل القصر والحصن وموضع خزينهم وودائعهم " (90) .

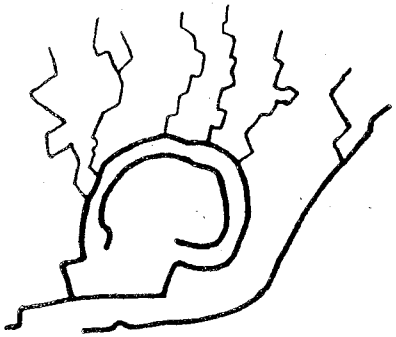
وتعتبر هذه الطرق واجبة ومتأكدة عند البناء والانشاء ، ذلك انه اذا تم البناء في اي موضع من المدينة ، وجب احداث الطارق اللازمة التي تربطه بمختلف مرافقها وأجزائها ولو كان ذلك على حساب أرض الغير ودون سابق اتفاق فعمارة أرض ما موجبة لاحداث الطارق الموصلة لها حيث يقول الشيخ أبو العباس " وان احدث قوم منزلا (91)

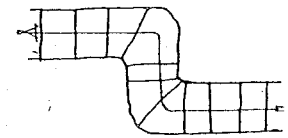


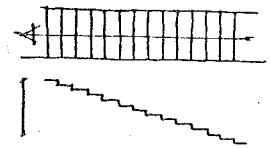
المسالك الرئيسية في مدينة بني يزقن .

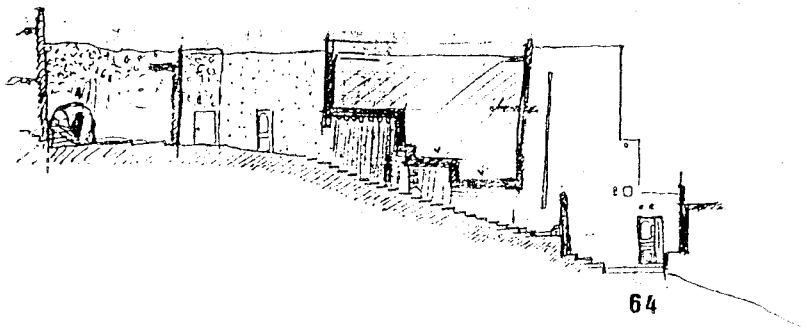












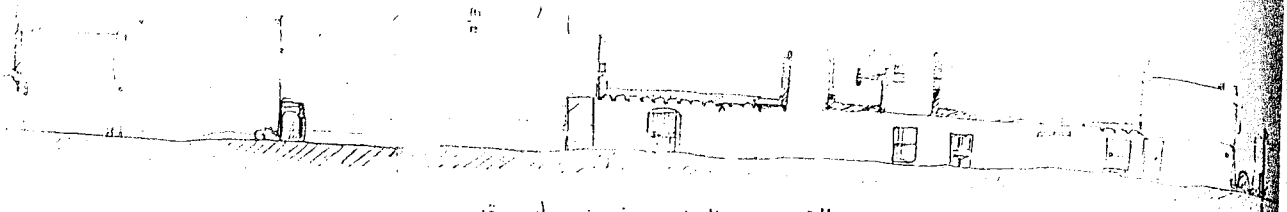
في ارضهم وقد احاطت به أرض غيرهم وكانت عمارة منزلهم على طريق واحد فأرادوا أن يخربوا طريقهم التي يحتاجون اليها كلها وأبى لهم ذلك أصحاب تلك الارض ،وقالوا لهم ليس لكم علينا الا طريق عمارتكم ،فانهم لا يجدون ذلك ويخربوا لهم طريقهم كلها " (92) .

كما تشهد هذه الطرق تفرعا تلقائيا متواصلا مع مرور الزمن ، ذلك ان تقسيم بعض المساحات أو المساكن ، سواء بالوراثة أو بغيرها ،يتطالب احداث طرق ومنافذ جديدة موصلة لها (93) .

ان احداث الطرق وتخطيطها الذي لا يكون الا بالاتفاق والشورى يبقى نهائيا ومقدسا " بحيث لا يستطيع أي فرد أو جماعة تحويره بالزيادة أو النقصان خاصة اذا كانت الطرق عامة . أما ان كانت هذه الطرق خاصة ،فلا يمكن تحويرها الا باتفاق من يملكونها كلهم وبدون استثناء حيث يقول في ذلك الشيخ أبو العباس " وأما أهل منزل كانت لهم طرق كثيرة وهم عامة فأرادوا أن ينقصوا منها نظرا منهم لصالحهم أو يزيدوا فيها فانهم لا يجدون ذلك وان كانوا خصائصا فانهم يفعلون هذا باتفاقهم " (94) .

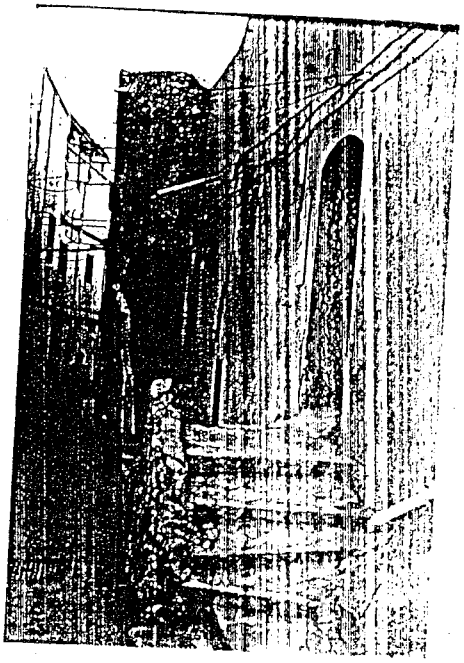
2 ـ اقسام الطرق وانواعها

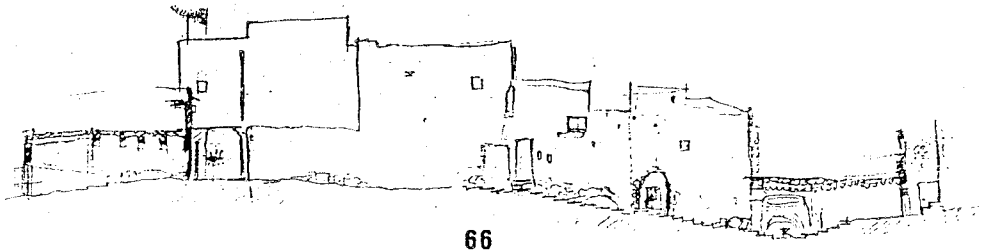
لقد تم تقسيم الطرق في المدينة الميزابية وتحديد انواعها ومقاييسها حسب طبيعة ملكيتها والمعاني التي جعلت من أجلها ،فالشيخ ابو العباس وهو يقسم هذه الطرق حسب ملكيتها يقول "والازقة على ثلاثة أوجه منهم الشارع الذي يسلكه العامة ،ومنهم السكة النافذة تكون لقوم مخصوصين ومنهم سكة غير نافذة تكون للعامة وتكون للخواص (95) أما تقسيمها حسب معانيها والوظائف التي جعلت من أجلها فيرجع ذلك الى انها لا تخطط الا عند الشعور بالحاجة لها ،كأن تكون موصلة الى المسجد أو السوق أو المساكن أو خارج القصر ،للواحة أو المقبرة أو طريق السفر ... ، ليأتي بعد ذلك تحديد خاصيات كل منها ومقاييسها وبالتالي انواعها مع ضبط الحقوق والواجبات التي تتبعها . فطريق الرجالة الموصلة الى المساكن أو المسجد ليست مشابهة لطريق الواحة من اين ينقل الحطب ومختلف المحاصيل على ظهور الدواب ،وطريق الفحص التي تسلكه المواشي للرعي ،تختلف عن طريق السفر التي تسلكه الجمال وقوافل الحجاج والتجار ،التي تختلف هي نفسها عن طريق المقبرة التي يستعملها أهل البلد عند زيارة المقابر أو الخروج بحامل الموتى . لذلك فاننا نجد الشيخ اداقيش يفصل أنواعها حسب وظيفتها وطبيعتها وبالتالي مقاييسها بقوله " حريم طريق الرجالة ثلاثة اذرع وطريق السقاية خمسة اذرع وكذا طريق الحطابة ... وطريق الزنابيل والغرائر والراويات سبعة اذرع ... وكذا طرق الحمير على اختلاف ما يحمل عليها سبعة اذرع ... وطريق الجمال



الطريق الاولى في غرداية







اثني عشر ذراعا على اختلاف ما يحمل عليها ... والمحامل فأربعة وعشرون وطريق الماشية كلها الى الماء والرعي أربعون ذراعا وكذا طريق قوافل الحجاج ... وذلك كله اذا أرادوا احداث طريق ... (96) .

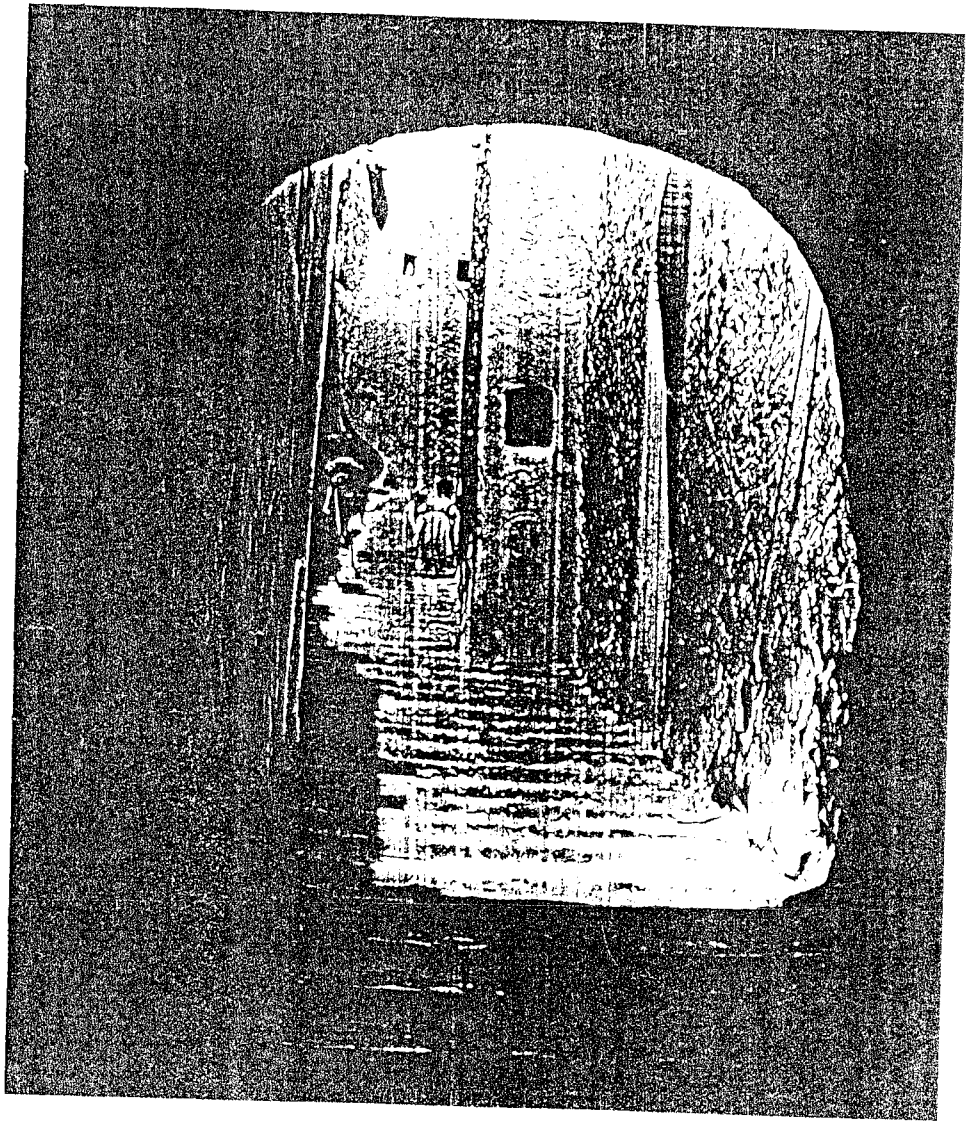
3 ـ وظائف الطارق واستعمالهـا

لقد كانت الطارق في ميزاب انعكاسا واضحا لممارسات المجتمع فيها سواء ما تعلق منها بالفكر أو العلاقات أو مختلف النشاطات ،اضافة الى تأثير طبيعة الارض والمناخ الخاص بالمنطقة حتى أن العرف والقوانين التي حددت اشكالها ومقاييسها كانت تستند الى نوعية الوظيفة التي جعلت من أجلها وبالتالي الممارسات التي تحتضنهـا .

وباعتبار أن الطرق في المدينة الميزابية لا تتجاوز وظيفتها الرئيسية العبور والمرور فقط (97) دون نسيان أن البعض منها كان ،عفويا ،مجال لعب الاطفال ،فانه قد منع كل ما من شأنه أن يغير هذا المعنى أو يحدث أي ضرر بمستعمليه كاحداث حوانيت أو مراحيض أو مربط للدابة ... أو وضع الحجر أو الخشب أو الغبار أو النفاسة ... (98)

فاستعمال الطرق راجع اساسا الى المعنى الذي جعلت من أجله ،الا ان كانت الطريق خاصة فان امكانية التصرف في الطريق باحداث ما لم يكن قبل ذلك أو نزوعه يرجع الى اتفاق من يملكها ،والاتفاق لا يمكن أن يكـــون الا عاما شاملا ليتحقق بذلك مبدأ الشورى والاجماع الذي لا ظلم ولا ضلال بعدهما كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ،لذلك فقد حرص المجتهدون في ميزاب على تحقيق هذا الاجماع عبر القوانين التي صاغوها والتي تتناول مسألة الطارق حيث يقول الشيخ اطفيش في احدى فصولها " اما السكة النافذة للخاصة أو الغير نافذة لهم فلا يحدث بعض من فيها بابا أو غيره الا اذن أهلها كلهم من في سطره ومن في السطر الاخر من في اعلاها أو اسفلها أو وسطهـا " (99) .

اما انعكاس العلاقات الاجتماعية على الممارسة التي تكون للناس في الطرق والتي لا تتسطيح بأي حال فصلها عن ثقافة المجتمع وفكرة المعتقدين على العقيدة الاسلامية ومناهج الحياة التي صاغتها بمبادئ وقيم احترام الكبير والعطف على الصغير والضعيف والتكافل والتآزر والتعاون بين المؤمنين في اطار الاخوة في الله حيث أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " (100) فاننا نجد بعضها مدون في مخطوط الشيخ اطفيش والتي نقلها عن الشيخ أبي العباس رغم تأخر الاول عن الثاني بثمانية قرون تقريبا مما يعكس اهتمام علماء ميزاب والمجتهدين فيها بالمحافظـة على قيم الاسلام ومبادئه في مجتمعهم ، يقول الشيخ اطفيش " وفي الاثر (101) ان التقى رجلان في سكة ولا يجدان



الجواز فيها بمرة فمن وجد منهم أن يخرج من الطريق حتى يجوز صاحبه مثل ان وجد ساحة في السكة أو دارا أو بيتا يدخله فليفعل وان كان أحدهما قد حمل على ظهره ولم يجد ميلانا عن طريقه والآخر لم يحمل شيئا فالذي لم يحمل شيئا يخرج من الطريق للذي حمل ولم يجد الميلان ومن كان منهما في الراحة دون صاحبه فهو أولى بالخروج من الاخر ... فليخرج الابن للاب ... والله اعلم"[102] . ويدل هذا أيضا على اعتماد العلماء المشرعين الميزابيين على قيم الاسلام ومبادئه في صياغة القوانين التي تعم الجانب المادي من حياة المجتمع وهذا دليل آخر على وحدة المجتمع الميزابي في فكره وممارساته في منهجه العبادي ببعديه الفكري والحياتي والمعاشي .

كما أنه اضافة لما ذكرناه من انحكاس طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة على الطارق وذلك في فصل هيكلة المدينة ،فان النساء يتجنبن الخروج في الاوقات التي تكثر فيها حركة الرجال في الطارق ،كما انهن كثيرا ما ينسحبن من الطريق التي يمر منها رجل أو مجموعة من الرجال وذلك الى طريق آخر يمكّنهن من الوصول الى المكان الذي يقصدنه . أما اذا حدث والتقى الرجل والمرأة في الطريق ،فانه كثيرا ما تلجأ المرأة الى احدى الزوايا في انتظار مرور الرجل خاصة اذا كانت الطريق ضيقة .

ان احترام الوظائف والمعاني التي جعلت من اجلها هذه الطارق شيء متأكد حتى انه " ان جعلت لمعنى شيء معلوم فإنه يمنع من اراد أن يتخذها لغير ذلك المعنى " [103] أما ان كانت المضرة أقل من المعنى الذي جعلت له فيجوز ذلك ومثاله " .. ان كان انما يدخل قبل ذلك بالدابة ثم أراد أن يدخل اليها بغير ذلك الصنف من الدواب فانه ان كان أقل مضرة من الاولى فانه يدخل به " [104] . والهدف من هذا كله هو تحقيق المعنى المراد من الطارق من درء المفاسد وجلب المنافع فتحديد عرض طريق السقاية مثلا والتي تكون عادة بجانب البئر ،بخمسة أذرع يرجع الى امكانية التقاء سقّاءين في الطريق وهما يحملان روايا الماء كما أن تحديد عرض طرق الحمير بسبعة أذرع اعتمد على امكانية التقاء حمارين في الطريق محملين بالزنابيل ،مع العمل على توفير الحماية للراجلين من احمال الحطب والقش والشوك ... التي يحملها الحمار حتى لا تمزق ثياب الناس في الطارقات أو تتسبب لهم في حوادث مختلفة أما اذا بطل المعنى الذي وجدت من أجله الطريق ،فان الطريق تبطل مباشرة .[105]

وقد رسمت هذه الطارق بشكل دائري وشعاعي وذلك لاسباب منها :

ـ ابراز المسجد الذي يحتل وسط القصر والذي يمثل محور الانطلاق في نموه ،بحيث أنه يسهل النصر الى الدومة من أي مكان في القصر لا فقط نتيجة ارتفاعها ولكن أيضا لتوجه الطرق لها وما لهذا التخطيط من تأثير متواصل للشعور في أي مكان من المدينة بمراقبة المسجد بل مراقبة الله لكل أفراد المجتمع ليكون بذلك تذكير متواصل بعلاقة الانسان

بالله وبوجوب العمل في كل مجالات الحياة بشرعه ومنهاجه نحو الاستقامة أكثر فأكثر والسمو والارتفاع نحو الله .

التأقلم مع طبيعة الموقع الذى يمثل جبلا بحيث أنه روعيت في رسم هذه الطرق التضاريس التي تحدث صعوبة في التنقل من مكان الى آخر في القصر لذلك أحدثت الطرق الشعاعية التي تنقل الانسان من مستوى الى آخر أعلى أو أسفل منه كما أحدثت الطرق الدائرية التي تنقل السكان من موقع الى آخر من القصر في نفس المستوى وذلك بدون عناء أو مشقة حتى كأن هذه الطرق أحدثت في أرض مسطحة وكثيرا ما تكون هذه الطرق أكثر اتساعا ،خاصة أن البعض منها كان يمثل حريم المساكن بالنسبة للصور وذلك قبل امتداد القصر .الا أن الطرق الشعاعية لا يمكن استعمالها اذا كانت مستقيمة لذلك فاضافة الى الهدف الدفاعي ،فقد استعملت فيها نسبة من الالتواء للتخفيض من حدة الصعود على السكان والدواب ،كما أنه ،وتجنبا للانزلاق الذى يحدث عند الصعود ،أحدثت درجات لا يتجاوز علو احداها العشرة سنتمترات بينما لا يقل عرضها عادة عن الستين سنتيمترا وذلك مراعاة للدواب التي تستعملها وخاصة منها الحمير التي تستعمل بكثرة .

ـ أما تأثير البعد المناخي على طبيعة طرقات مدن ميزات ،فاننا نلاحظ أن وجهة الشوارع الرئيسية والكبيرة لمختلف مدن ميزاب شمالية جنوبية وذلك من أجل أن تكون عمودية مع أشعة الشمس وحركتها الظاهرة ،مما جعل الشوارع تكتسب ظلا طول النهار ،ساعد في ذلك ارتفاع واجهات المساكن التي لا تحدد الا بخوف مضرة ما حيث يقول الشيخ اطفيش " ولا يمنع بعض أهل السكك بعضا من تطويل الحيطان الا أن كان فيها ميلان على جيرانه أو يتخوف وقوعه أو جعل عليهم الظل " (105) .أي منع الشمس من الدخول الى وسط الدار المجاورة . وقد ساهم هذا النمط في عزل حيطان الواجهات الخارجية للمساكن مما ساهم الى حد كبير في تخفيض درجة الحرارة المرتفعة جدا في فصل الصيف في المساكن خاصة اذا علمنا أن هذه الوجهة (شمالية ـ جنوبية) تساهم في اكتساب هذه الطرق الرياح الشمالية التي تعمل على استمرار دوران الهواء فيها بقدر أكبر من السّرعة .

خـــــلاصـــة :

تخضع عملية تخطيط الطرق واستعمالها في ميزاب الى جملة من الشروط والقيم نذكر منها :

في التخطيط : الشروط : ـ الاعتماد في اقرارها على الحاجة اليها .

ـ الاعتماد في تخطيطها ،من حيث الموقع والمقاييس والشكل ... على وظيفتها وطريقة استعمالها .

ـ المشاركة في اقرارها وتخطيطها وصياغتها لكل من جعلت له .

في الاستعمال : الشروط : ـ منع تغيير معناها ووظيفتها .

ـ استعمالها حسب ملكيتها والتصرف فيها بحسب ذلك ،حقا وواجبا .

ـ تحقيق وائفها وتيسير استعمالها بأيسر الطرق .

القيـــم : ـ منع الضرر أيا كان مصدره

ـ مراعاة طبيعة العلاقات بين الافراد والجماعات في المجتمع القائمة على المبادئ الاخلاقية والقواعد الصوفية في الاســـلام .

د.في المنافع

المقصود بالمنافع في المدينة الميزابية هي المرافق العامة بالمفهوم المتعارف عليه ،والتي ينتفع بها المجتمع، وهي كل ما يحتاج اليها من مسجد للصلاة وسوق لاقتناء لوازم المعيشة والحياة ،ومقابر لدفن الموتى،وغيرها من المنافع الاخرى كالحجبة "أو دار العشيرة والبئر الخ ... وسنتولى هنا بالبحث انعكاس الممارسة الاجتماعية فـــي بعض هذه المنافع.

* المسجـــــد .

يقول تعالى : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " (107) فالهدف من الحياة ،بل من وجود الانسان اذن هو عبادة الله ،والعبادة هي كل مناحي الحياة ،فالزواج والعمل والاكل والنوم والدراسة عبادة ،والمراد بالعبادة هو الله ،أي أن غاية الانسان المسلم في هذا الوجود هو الله وكل عمل أو سلوك يسلكه في هذه الحياة هو للـــه " يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ " (108)

واطار العبادة هذه ،هو الكون الذي سخره الله للانسان ليستخلفه فيه ، وليفعل فيه بعقله . فالانسان متصرف في هذا الكون من منطلق الاستخلاف الذي حباه به الله ،فالمنزل والسوق والطريق والواحة والمقبرة والمسجد وبالتالي المدينة ككل هي كلها مواقع عبادة .

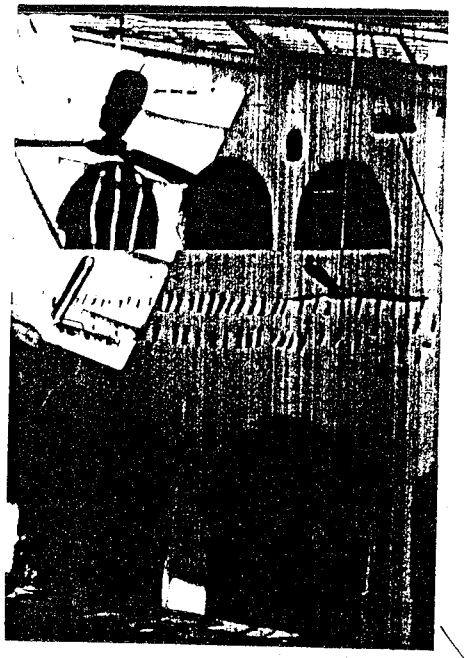
الا أنه ،ونظرا الى أن الصلاة تمثل الركن الأول بعد الشهادتين في الدين وعماده وأساس العبادة كلها ، رفعت بيوت الله ليذكر فيها اسمه ويسبح له فيها عباده المؤمنون وتقام فيها الصلاة وتؤتى الزكاة ،يقول تعالى : "فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ،رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ " (109) . فغاية اقامة المسجد هو تجميـــع

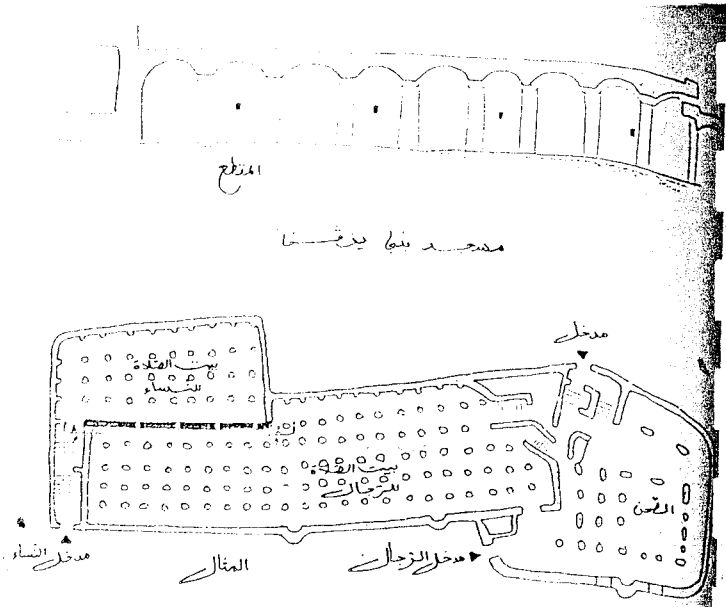
مسجد غرداية

الناس للقيام بفريضة الصّلاة والعبادة جماعيا لتقوية الوحدة والتآلف بينهم وليكون اطارا يلتقون فيه على الخير ويتآخون ويتوادّون ويتراحمون ويذكرون اللّه .

مـــوقـــع المسجد :

انّ المسجد من أهمّ المنافع في القصر لما له من دور أساسي في حياة المجتمع الميزابي ،فبالاضافة الى وظيفته الدّينيّة فانّه كذلك مركز البحث في الشؤون السّياسيّة والتربوية والاجتماعيّة ،كما أنّه مركز السّلطة المسيّرة في ميزاب (العزّابة) . وتمحورت بذلك حياة المجتمع حول المسجد باعتباره رمز العبادة ورمز الدّين وباعتبار مكانة الدّين في وجود هذا المجتمع، فالصلاة التي تقام خمس مرّات في اليوم والليلة تجدها الأساس في تقسيم مختلف فترات الحياة اليومية عند الميزابيين . وانعكست أهمّية المسجد في حياة المجتمع على موضعه في القصر، فهو النّواة الاساسية في تخطيطه وهيكلته وهو المحتلّ لوسطه والمكان المرتفع فيه ،فكان أوّل ما يختطّ ،ومن حوله كانت تخطّ الخطط والمساكن وتنتهي اليه الطّرق والمسالك ليكون قريبا من كل أجزاء وأنحاء القصر ،فهو اذن بمثابة القلب النّابض في جسم المدينة ،يبعث فيها الحياة ويؤطرها .فموقع المسجد من المدينة كموقع الصّلاة من الدّين . وباعتبار ما لأهمّية الدّين والحفاظ عليه عند الميزابيين ،ذلك أنّ تارك الصّلاة وجب قتله [٢٥] في المذهب الاباضي ولو شهد بالشهادتين لأنّ الاسلام عقيدة وعمل اعتمادا على "قول الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : " لا ايمان لمن لا صلاة له" وقوله أيضا : "ليس بين العبد والكفر الا تركه الصّلاة . " [١٢] ،فانّ حياتهم ونشاطهم اليومي يتمحوران حول المسجد وذلك عبر أوقات الصّلاة ابتداء من صلاة الصّبح الى صلاة العشاء . فيبدأ النّشاط اذن منذ الصّباح الباكر حين يؤذّن لصلاة الصّبح ،فيتوجّه الميزابيون الى المسجد لأداء الصّلاة ،ومنه الى مكان العمل ،الذي غالبا ما يكون في الواحة ،وذلك الى أن يأتي وقت الزّوال فيعود الجميع الى القصر ليذهب كلّ واحد الى بيته للغداء والرّاحة الى أن يحين وقت صلاة الظهر ،عندها ،يتوجّهون من جديد الى المسجد الى أن تنقضي صلاة العصر ومنها يخرج المصلّون وتدبّ الحياة من جديد في المدينة ، فيتوجّه الكهول والشّيوخ الى السّوق في حين ينصرف الشّباب الى الواحة أو خارج القصر ،وذلك حتى موعد صلاة المغرب أين يتوجّه الجميع الى المسجد بعد أن يتوقف السّوق عن النّشاط ،ويسعى من بخارج الحصن الى العودة عند المغرب لتغلق أبواب القصر . وعند انقضاء صلاة المغرب ينقسم المصلّون في المسجد الى حلقات ومجالس حسب أعمارهم ،لتلاوة القرآن ولتلقي دروس على أيدي الطّلبة أو مشائخ العزّابة ،وذلك حتى موعد صلاة العشاء ،ليعود الجميع الى بيوتهم بعد انقضاء الصّلاة ،عندها تتوقف الحياة في المدينة ليركن الكلّ الى الرّاحة ،وتعود الحياة من جديد في اليوم الموالي بنفس النّسق .





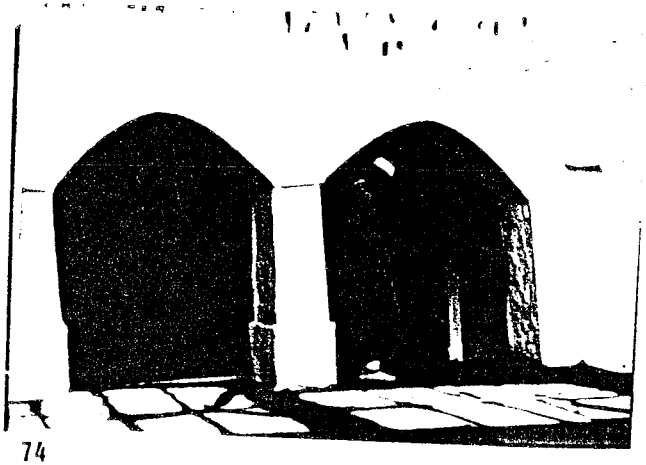
الضعف

مسجد وادي سنة

بيت الصلاة

الضعف





وحدة المسجد :

وحرصا من المجتمع الميزابي على توحيد الكلمة وعدم الفرقة ،لم يسمح باقامة أكثر من مسجد في القصر ، فكانوا ،كلّما اتّسع القصر وتزايد عدد السّكان فيه ،يقومون بتوسيع المسجد وتكبيره ،باضافة بيوت أخرى تشترى من أصحابها ،أو تعطى كهبة أو تبرّع،كما أنّ في وحدة المسجد ، وحدة السّاطة ،وحدة التسيير ،وحدة المراقبة وبالتالي وحدة المجتمع،تقول الآية الكريمة : " وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . " (112)

تركيبة المسجد

والآن وبعد أن تطرّقنا الى مكانة المسجد في المدينة ومكانته في المجتمع الميزابي، نمرّ الى البحث في تركيب مختلف فضاءاته والممارسة التي تتبعها .

فيما يخصّ تركيب الفضاءات ،فانّ مسجد القصر في ميزاب يحتوى أساسا على بيت للصّلاة وصحن ،وبيت صلاة للنساء ومخزن للتعور وغرفة للعزابة وفضاء للوضوء . وتشكّل هذه الفضاءات " حريم المسجد ، لتأتي بعد ذلك العناصر الملحقة بالمسجد كالمراحيض والمحاضر". أمّا المراحيض فيجب أن تكون منفصلة عن المسجد ،باعتبارها مكانا غير طاهر الشيء الذى انعكس مباشرة على المعمار في عمليّة فصل المراحيض عن فضاء الوضوء الدّاخل في حريم المسجد، وتدعيما لذلك يقول الشيخ أطفيش في هذا الشأن (عند قضاء الحاجة) : "لا تقضى في حريم قبر لأنّ حرمة الميّت كحرمة الحيّ ،ولا حريم مسجد،ولا يقابل جداره ولا يستدبر منكشفا" (113) . وأما "المحاضر" (114) والتي تتمثل وظيفتها في تدريس القرآن وتعاليم الدّين والتي بالرّغم من أنّها تخضع لتسيير واشراف المسجد ،الا أنّها منفصلة عنه دون أن تكون بعيدة منه ، بحيث تكون خارجة عن حريمه ،وهذا تأكيد آخر على الشّدّة في تطبيق مبادىء وتعاليم المذهب الاباضي في الطّهارة ،لأنّ من يؤمّ المحاضر هم من الأطفال والصّبيان . ممّا يبرز مكانة حفظ الدّين عند هذا المجتمع حتّى من خلال جزئيّات كهذه .

وأمّا فيما يخصّ الممارسة التي تتبع فضاءات المسجد فتتمثل أساسا في الصّلاة التي تقام بعد قيام المصلّين بالوضوء وابدال الثياب اليوميّة بأخرى خاصّة بالصّلاة ،تكون عادة بيضاء اللّون ،أسوة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهي ميزة من مميّزات هذا المجتمع (الاباضي) . وعند الوقوف وراء الامام ، يكون الجميع في صفوف متتالية بنفس اللّباس،لأيظهر فرق بين المصلّين فالمسلمون جميعا "سواسية كأسنان المشط" مبدأ سعى الاباضيون الى تدعيمه حتى على مستوى المظهر الخارجي لهيئتهم وهندامهم . وتكون جماعة العزّابة في الصّلاة خلف الامام مباشرة .

لما يرمز اليه ذلك من موقعهم القيادي والرّيادي في المجتمع،ووجوب طاعة أفراد المجتمع لهم وأتباعهم .

كما أنّ النساء يؤدّين الصّلاة في بيت مخصصة لهنّ ،يدخلنها من باب مستقل عن الباب الرّئيسي للمسجد . بحيث تكون معزولة عن بيت الصّلاة المخصّصة للرّجال بحائط سميك يحتوي على بضع ثقوب تسمح بمتابعة الصّلاة فقط .

أما السّلوك الذي يجب أن يكون في المسجد فهو سلوك عبادة ترتسم عليه ملامح الخشوع والتسليم لله ،بحيث يتجرّد الانسان من كل عوارض الدّنيا والتفكير فيها لذلك يمنع الكلام واللّغو في بيت الصّلاة أو عند تلاوة القرآن ، لأنّ ذلك السّلوك مرفوض باعتباره رمزا للنقاشات والمحاورات الدنيويّة ،المتّصلة أساسا بالشارع والسّوق : حتّى أنّه يقال لمن يتحدث في بيت الصّلاة " أسكت لست في السوق " حيث روي عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : "من تكلّم في خمسة مواضع كلام الدنيا ،أحبط اللّه تعالى عمله أربعين سنة : في المسجد ،وعند تلاوة القرآن ،وذكر العلماء والآذان ،والمقبرة الآن تاب ولو بعد أربعين سنة" [115] كما أنّ من القيم الاجتماعيّة التّي تتجلّى من خلال الممارسة في المسجد : احترام الصّغير للكبير بحيث نجد أن الشيوخ ومن هم كبار السن الأولوية في الاتكاء على الحائط أو الأعمدة للاستراحة،ويأتي الآن ،المخزن الذي يعتبر عنصرا هامّا في فضاءات المسجد ،فهو مجعول لخزن التمور المتأتية من الزّكاة والأحباس ،توزع على الفقراء والمعوزين ،فتكون بذلك عملا اجتماعيّا يحقّق التكافل والتآخي بين المسلمين يرفع الضيم عن الفقراء والمحتاجين ،كما تشجعهم على ارتياد المسجد والتعلّق به ،وهذا يبرز الدور الاجتماعي الذي يؤديه المسجد في ميزاب . كما أنّ هذا المخزون في الغذاء يمثل خزينة المجتمع كلّه ، يقع اللّجوء اليه عند الحاجة . في أيام الشدّة والقحط فيتم بذلك حفظ المجتمع في نفسه وبالتالي دينه . كما تمثل الأحباس التي لا تقتصر على التمور والغذاء ،بل تتجاوز ذلك الى الأموال والعقارات ركيزة تعتمد عليها الهياكل المسيرة في نشاطها السياسي ومشاريعها الاجتماعيّة وتحقق لها استقلاليتها عن كل ما من شأنه اعاقتها عن التسيير أو منعها من التنفيذ . وبالاضافة الى دوره الديني والاجتماعي ،فان للمسجد دور دفاعي سبق شرحه في عنصر الهيكلة العمرانيّة للقصر الذي انعكس على طبيعة بنائه وفضاءاته وخاصّة منها الصومعة التي تحتل برج مراقبة واتصال بينها وبين أبراج المراقبة ومختلف المدن الأخرى .

أنواع المساجد :

وحرصا على اقامة الصلاة في جماعة لتدعيم الرّوابط الاجتماعيّة واللّحمة بين أفراد المجتمع،والمحافظة على الأخلاق والسلوك الاجتماعيّة المبنية على الاسس الاسلاميّة ، سعى الميزابيون الى احداث المساجد والمصليات في الواحات لاقامة الصلوات،خاصة في فصل الصيف أين يقضون كامل وقتهم ،ولكن هذه المساجد والمصليات ليس لها

دور المسجد الرئيسي الذي في المدينة باعتبار أن وظيفتها محدودة وتقتصر على الصلاة فقط.
كما أن هناك مصليات في المقابر تقام فيها الصلاة في العيد أو عند الدفن والتي عادة ما تكون في شكل مسطحات غير مغطاة أو مغطاة في جانب منها اتقاء للحرارة أو المطر أو الرياح، وهذه المصليات أو الأسطح لم تحدث إلا لأن المذهب الاباضي يرفض رفضا قطعيا الصلاة على الأرض التي يمكن أن تكون ممرا أو طريقا مما جعلهم (الاباضية) يسعون لايجاد حرم معلوم ومعين للصلاة تكون طهارته ثابتة ويرتفع عن كل النجاسات [116] ويمكن أن تكون هذه المصليات تحت الأرض لا يرى الا سطحها عند الاقتراب منها، وذلك لغايات دفاعية باعتبارها أكثر محمية وغير مراقبة.

وتختلف مساجد الواحة ومصليات المقابر عن مسجد القصر اختلافا كبيرا من حيث مساحتها التي لا تخضع لأي مقياس محدد، ووظيفتها التي تقتصر على الصلاة فقط، ومكوناتها التي لا تتجاوز الفضاء المخصص للصلاة، مع افتقادها للصومعة.

النسب والمقاييس :

ونخلص الآن الى الحديث في مسألة النسب (Proportions) والمقاييس في المسجد الميزابي الذي شكلت وصيغت فضاءاته بحيث روعيت فيه جملة من القيم نذكر منها : عدم الاشراف والبناء فوق الحاجة، لأن في ذلك تبذير والمبذرون أصحاب الشياطين، فكانت النسب متلائمة مع ما يحتاجه الانسان من فضاء يكفيه لأداء مختلف نشاطاته فيه (المسجد)، كما تجدر الاشارة الى أن المسجد في ميزاب لا يحتوي على أية نقوش أو زخارف، وكل هذا يعكس فكر وعقيدة المجتمع وشدة تمسكه وحرصه على حفظ دينه، فالزخرفة والنقوش والمغالات في البنيان كلها مظاهر دنيوية زائلة لا محالة وليست لها قيمة في حياة المسلم الحقيقي.

خلاصة :

يتمثل انعكاس الممارسة الاجتماعية في المسجد في النقاط التالية :

- موقع المسجد من القصر كموقع الصلاة من الدين،
- المسجد الواحد انعكاس لوحدة المجتمع،
- تركيبة عناصر المسجد هي انعكاس لجملة العلاقات وطبيعة الفضاءات ومهامها،
- وجود مصليات في الواحة والمقابر تأكيد على صلاة الجماعة وبالتالي وحدة المجتمع،
- المقاييس والنسب المستعملة في المسجد هي انعكاس لفكر المجتمع وممارساته.

*السّـــــوق :

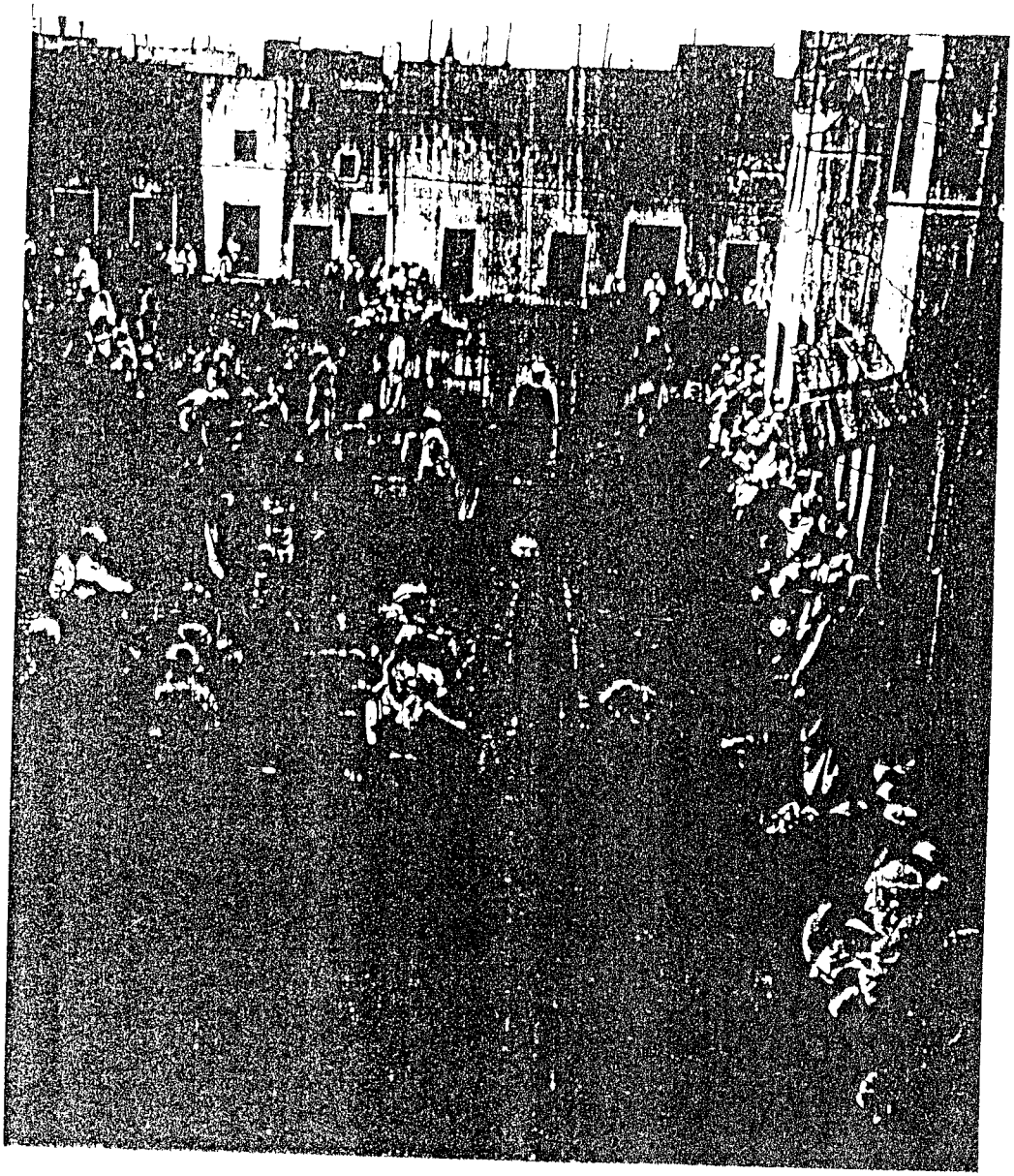
يعتبر السوق في المدينة الميزابية من المنافع الهامة للسّكان ،لما يمثله من فضاء اقتصادي واجتماعي وما يوفّره من مجال عام يتجمّع فيه مختلف أفراد المجتمع الرّجالي ، يتبادلون فيه عمليات البيع والشراء ،ويتحاورون فيه عن شؤونهم في شتى المجالات.

وللمدينة الميزابية سوق واحد ،يخضع لسلطة المسجد في التسيير والتنظيم والمراقبة ،حيث لا يبـــدأ النشاط فيه الّا بحضور أحد أعضاء العزّابة أو الأمين المكلّف بالاشراف عليه. وفي هذه الوحدة سعي الى وحـدة المجتمع،بوحدة المراقبة ووحدة التسيير. وفي السّوق الميزابي ،تنعكس جملة من الممارسات التي تحكمها القـيم والمبادئ الدينيّة والاجتماعية للمجتمع. وتبرز هذه الممارسات على مستوى موقع السّوق وشكله ومكوّناته. وتعتـبر هذه العناصر الثلاثة (الموقع،الشكل والمكونات) مميّزة للسّوق الميزابي عن غيره من الأسواق في المدن الاسلامية الأخرى. وسنمرّ فيما يلي الى تبيانها عنصرا عنصرا لنستشفّ من خلالها مدى انعكاس الممارسة الاجتماعيّة في السوق كجزء من الكيان المادّي للمدينة الميزابيّة وكجزء من المعمار الميزابي.

المـــوقـــع :

يحتلّ السّوق الموضع الأسفل من المدينة ،ويكون بذلك في طرفها وبالقرب من المدخل الرّئيسي لهـــا ، وكما ذكرنا في الفصل الخاصّ بهيكلة المدينة أنّ لهذا الموقع دلالات ثقافية واجتماعية هامّة، حيث أنّ في هذا الاختيار حدّ من حريّة الغريب الذي يدخل المدينة والذي يعتبر دخيلا وغير مراقب اجتماعيا ،بحيث لا يمكن له تجاوز السّوق الى داخل المدينة الذي يعتبر حرمة المجتمع ،بما يحتويه من مساكن ومن يفعل ذلك فقد تعـدى على حرمة المجتمع،ويصبح محلّ استجواب وتساؤل وشكّ وريبة من طرف السّكان ، الّا في صورة ما ان كان مرافقامـن قبل أحد سكّان المدينة ،فيعتبر حينئذ عنصرا من المجتمع باعتباره ضيف وتحت مسؤولية ومراقبة مُضَيِّفِهِ. اذن بهذا يصبح السوق حاجزا ماديّا ومعنويّا بين داخل المدينة وخارجها ويعتبر كذلك المجال المشترك بينهما . وتدعيما لهذا وحتّى لا يضطرّ الغريب ، (الدّخيل) ممّن يفدون على السّوق لبيع بضائعهم . الى عبور المدينة والذّهاب الى المسجد للصّلاة جعل داخل ساحة سوق غرداية مثلا مسطح مرتفع على مستوى الأرض بمقدار 70 صم تقريبا لأداء الصّلاة.

كما أنّ في هذا الاختيار فصل بين الفضاء الدّيني الرّوحي للمجتمع الذى يمثله المسجد والفضاء الدّنيوي ،



المادّي الذي هو السّوق والذي لا يخلو من الضوضاء والمحاورات واللّغو ،علاوة على عدم طهارته باعتبار ما يحتويه من مواشي ودوابّ وغيرها .

وهذا الفصل بين ما هو روحي وما هو مادّي أو ما هو ديني وما هو دنيوي ،ليس فصلا قيميّاولكنّه فصل معنوي باعتبار أنّ السّوق في حقيقة الأمر يخضع لسلطة المسجد وبالتالي للقيم والأحكام الاسلامية في سلوكيّات البيع والشّراء ، والسّلع وما الى ذلك .

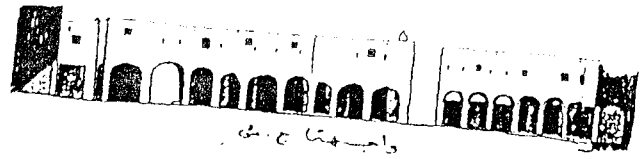
وهذا الموقع المميّز للسّوق في ميزاب يختلف عن مواقع الأسواق بالمدن الاسلامية الأخرى التي غالبا ما تكون في قلب المدينة محيطة بالمسجد الجامع.

وحافظت المدن الميزابية على هذه الميزة في مختلف مراحل نموّها ، فكان السّوق ،كلّما وقع امتداد المدينة ،ينقل من موضعه القديم الى طرف المدينة والاحتفاظ به كسوق واحد لها .

الشكـــل

انّ للسّوق في ميزاب أشكال متعدّدة ومتقاربة في آن واحد ،مع اختلافها وتميّزها عن أشكال الأســواق الموجودة في المدن الاسلاميّة الأخرى ، وهذه الأشكال المتعلّقة بالسّوق الميزابي تتراوح بين المثلث والمستطيل ، وكلّها في شكل ساحات ذات واجهات متعدّدة ومتقابلة ،تساعد على التجمّع والالتقاء والمراقبة خاصّة ،بحيث يكون الشيوخ والتّجار على أطرافها مشكلين حلقة دائرية وتدور عمليات البيع والشراء بالمزاد العلني بشكل يسّهل على المكلّف بادارة الحمليّة (الدّلال) القيام بعمله بدون اللّجوء للتنقل من مكان الى آخر ليعلم بالمزايدات فيكون في مكانه ويكفي أن يصيح بصوت عال معلنا الثمن وينظر من طرف السوق الى طرفه الآخر . حتّى يعلم باشارة التّجـار الى الزّيادة في الثمن ،فيزيد بمقتضى تلك الاشارة التي غالبا ما تكون بتحريك الرّأس بالرّفع أيْ بنعم . كما أنّنا لا نجد في ميزاب أسواقا في شكل طرق تجارية مثل أغلب المدن الاسلامية ،وذلك لعدم تسماح هذا النّوع من الأسواق ،في شكله هذا ،بالمراقبة الاجتماعية المباشرة لكلّ اجزائه في آن واحد ومن مكان واحد .

فالسّوق عند الميزابيين ليس مجرّد فضاء للتجارة وانما هو كذلك فضاء للالتقاء والتجمّع والتشاور والتحاور بين أفراد المجتمع وجماعاته ،وهو كذلك فضاء للمراقبة الاجتماعيّة والتأطير السّياسي .

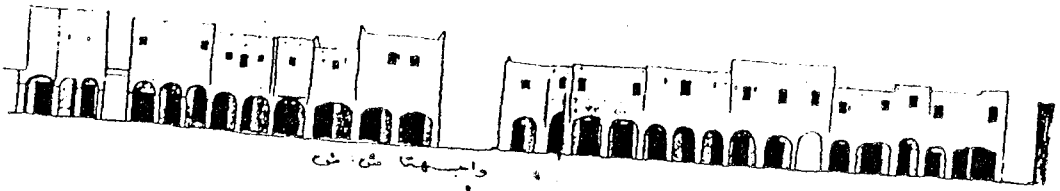


واجهتا ج ش



واجهتا ش غ

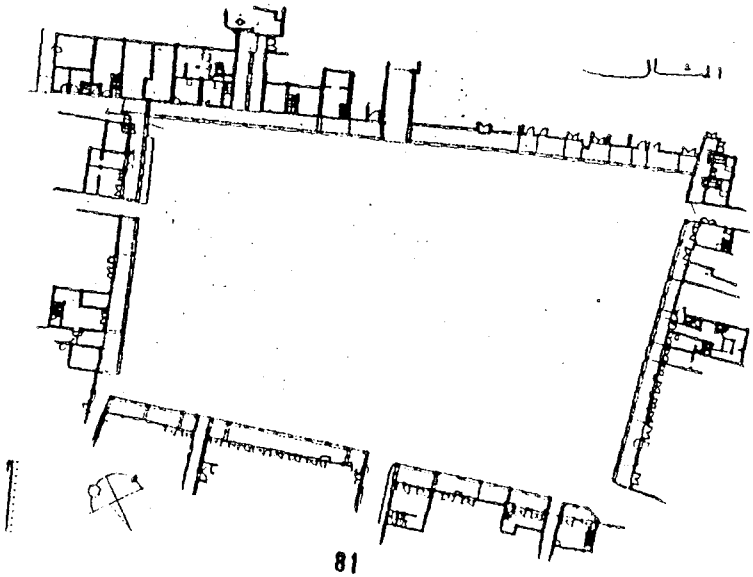
سوق
غـــــردايـــا



واجهتا ش ش



واجهتا ج غ



الشمال

مكوّنات السّوق :

انّ السّوق في ميزاب هو مجرّد ساحة (في القديم كانت رحبة) غير مجهّز تجهيزا كاملا مثل أسواق المدن الاسلامية الأخرى ،باعتبار أنّ وظيفته محدودة في الزّمن ومدّة النّشاط فيه (مبادلات خارجيّة قليلة ومناسباتيّة ،مرّة أو اثنين في السّنة ،وبيع وشراء داخلي محدود ،باعتبار محدودية الحاجيات لهذا المجتمع،الذي يكتفي بأبسط أسباب العيش)، ويقتصر توقيت النّشاط للسّوق على ما بين صلاتي العصر والمغرب،وهذا التوقيت مربوط برجوع الفلاحين (سكان المدينة من الرّجال) من الواحة ،حيث يقضون كامل يومهم تقريبا في العمل الفلاحي . وفي ساحة السّوق تفتح أبواب الدّكاكين المحيطة به والمركبة لمختلف واجهاته ،تحتوي هذه الدّكاكين في الكثير منها على طابقين ،يكون الطّابق العلوي مخزنا ،بينما يمثّل الطّابق الأرضي مجالا للبيع والشراء ، وتوجد بين هذه الدّكاكين مقرّات مجالس العشائر بحيث تكون منتشرة على طول واجهات السّوق .

ويجتمع في هذه المقرّات أعضاء مجالس العشائر ،للتشاور والنّظر في أمور عشائرهم ،فيكونون بذلك قريبين من أفرادها ،لتقبّل أيّ مشكل يعترض أحدهم ،كما أنّهم بتواجدهم في السّوق تسهل عليهم مراقبة السّوق وما يدور فيه . وتكون هذه الدّكاكين وهذه المقرّات مجهّزة بمقاعد مبنية أمامها ،في شكل " مصطبات" على امتداد واجهات السّوق ،تخصّص للشيوخ والتّجار . ومن المكوّنات الأخرى للسّوق ،نجد البئر للسّقاية والمسطّح للصّلاة فنجدأحهذين العنصرين في سوق بني يزقن (البئر) والآخر في سوق غرداية كما نجد في سوق غرداية أروقة مغطّاة على امتداد واجهاته في شكل أقواس متتالية لا يتجاوز عرض الواحد منها المترين .

أمّا فيما يخصّ النّسب والمقاييس التي تكون في عناصر السّوق الميزابي ،أي في حوانيته ودكاكينه وأروقته ، فهي لا تختلف عما ذكرناه عند تحليل مكوّنات المسجد والمسكن ،بحيث تخضع هذه المقاييس والنّسب الى مبدأ عدم التبذير والاسراف،بالبناء فوق الحاجة فتكون بذلك متلائمة مع طرق استعمالها ومع مستعمليها ، فالباب والقوس والارتفاع تحت السّقف والمدرج ... تلائم كلّها حجم الانسان ومقاييس جسمه .

خلاصة :

يتمثل انعكاس الممارسة الاجتماعية في السوق على النقاط التالية:

- السّوق الواحد في القصر : انعكاس لوحدة المجتمع،
- موقع السّوق من القصر : انعكاس لطبيعة علاقة المجتمع الميزابي بغيره ،

- شكل السّوق : انعكاس لوظيفته الاجتماعية وطبيعة العمليّة التجارية ،
- مكوّنات السّوق : انعكاس لطبيعة النّشاط فيه ،
- النّسب والمقاييس في السّوق : انعكاس لحاجيّات مستعمليه .

* الحجبة .

الحجبة هي عمارة على مسكن جماعي كبير نسبيا بالمقارنة مع المسكن العادي، تتخذه العشرة مقرا لجلساتها ولقاء أفرادها ومحاوراتهم ، وهو المكان الذي تقام فيه الحفلات في المناسبات كالاعراس مثلا ، فالحجبة عبارة على قاعة أفراح أو مركز ثقافي بالمفهوم المعاصر، وفيها يستقبل أهل العشرة (من الرجال طبعا) ضيوفهم الوافدين عليهم من خارج القمر، فهي اذن دار للضيافة . كذلك، ولكل عشرة حجبة خاصة بها في القمر. وهي تحتوي على طابقين،طابق سفلي وطابق علوي، ففي الطابق السفلي يوجد الفضاء الكبير الذي يتوسط الحجبة وهو بمثابة وسط الدار، فيه يلتقي جميع الرجال في حفلات الزفاف في حين تلتقي النسوة في مسكن أهل العروس . كما تقام هذه الاعراس بصفة جماعية في هذا الفضاء (الحجبة) ويصل عدد العرسان في المناسبة الواحدة وفي بعض الاحيان الى العشرة كتدعيم لروح التآخي و التآلف و التكافل الاجتماعي الذي يعمل الميزابيون على ترسيخه في شتى مجالات حياتهم .

وفي مثل هذه المناسبات يتم تخصيص الطابق السفلي للشيوخ وكبار السن بينما يصعد الصبيان و الشباب الى الطابق العلوي.

أما من حيث النسب و المقاييس، فان الحجبة تتميز بفضاءات متسعة نسبيا وذلك لاستيعاب العدد الكبير من روادها ولملاءمة مختلف الانشطة التي تحدث فيها.

* المقبـــرة .

من المنافع الهامة في المدينة الميزابية ، المقبرة ، لما تؤديه من دور هام في حياة أفراد المجتمع وجماعاته ، وتوجد المقابر خارج أسوار القمر وتعتبر المجال الميت في المدينة ، كما سبق شرحه في الجزء الخاص بهيكلة المدينة . ولأهمية المقابر، جعلت لها طرقها الخاصة ، وحددت وضبطت مقاييسها وأخذت بعين الاعتبار عند تخطيط وهيكلة المدينة .كما أن لكل عشرة مقبرة خاصة بها، وتمنع المشاء فوق القبور، التي لا تكاد تعرف الا ببعض الاحجار أو بفخ أواني الفخار المكسّرة التي توضع

عليها رمزا للموت، ذلك أنه كره تجصيص القبر [117] واقتداء بما فعله بلال في قبر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول الشيخ أطفيش: ... وعنه (بلال بن رباح) سنمت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعت عليه ثلاثة أحجار... [118]

ولا تبنى المقابر (حسب المذهب الاباضي) ولا يشيد فوق أرضها أي بنيان على مر الدهر [120]. فهي ذات حرمة، حيث يقول الشيخ اطفيش حرمة الميت كحرمة الحي ولا يجوز التعدي على تلك الحرمة لذلك نجد أن المقابر في ميزاب تظل مسيجة وتبقى على حالها حتى في غيرة أمتداد ونمو الغشاء العمراني للمدينة. كما نلاحظ أن المقابر في ميزاب مجهزة بعمليات تعرضنا لوضعها في الجزء الخاص بالمسجد.

والمقابر في ميزاب لها دور اجتماعي هام، فهي مواقع للقاء وتجمع الاهالي من نساء ورجال وأطفال، في المناسبات الدينية المختلفة كالعيد والحج ومواكب الدفن ومناسبات تنفيذ أوقاف الموتى المعروفة بالتشوية. [119]

وللمقبرة مكانة خاصة في حياة المجتمع، أفراده وجماعاته، فهي مكان يتذكر فيه الانسان الموت والدار الاخرة فيجدد العزم على العمل لاخرته بمزيد التمسك بشرع الله ومنهاجه.

* منافع أخرى.

كما أن هناك منافع مشتركة أخرى يقوم ببنائها كل أفراد المجتمع وتشرف عليها العزابة سواء مباشرة أو عبر الجماعة وتتمثل في الصور وأبراج المراقبة والسدود.. فالتكافل الاجتماعي هو أساس المجتمع الاسلامي حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وكل فرد في المجتمع مسؤول عنه وواقف على ثغرة من ثغراته وجب عليه حراستها حتى لا يؤتى المجتمع من هذه الثغرة.

ولولا هذه القاعدة ولولا عزيمة المجتمع الميزابي على حفظ دينه ونفسه وعرضه وماله لما أمكن بناء هذه الاسوار المحفورة في الصخر والممتدة آلاف الامتار، وهذا العدد الكبير من أبراج المراقبة، حتى أنه يحكي أن أحدها تم بناؤه في ليلة واحدة (برج بوليلة) وهذه السدود الضخمة... وكل ذلك بدون أن تكون هناك سلطة تجمع الضرائب وتجبي الاموال قسرا أو مُجنوة بل إن هناك من المنافع

المشتركة والعامة ما تم احداثها من قبل الافراد في المجتمع لم يكن رجاؤهم من ذلك الا رضاء الله «لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا»(121) . فالمال مال الله والارض ارض الله، وما الانسان الا مستخلف فيها ومستأمن عليها، يقول تعالى: «وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ»(122) ويقول ايضا: «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ»(123) كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من بنى فنطرة كمن بنى ستين رباطا بقزوين وأنفق الذي دينارا في سبيل الله وكتب الله له بكل درهم أنفقه في عمارة ستين حسنة ورفع له ستين درجة»(124)

لذلك كان الميزابيون يتسابقون في فعل الخيرات وبناء المنافع المشتركة والعامة فنجد في الطرقات وخاصة التي في الواحة، أواني الماء المبنية في حيطان الاجنة تملأ من الداخل ليشرب منها المار من الطرق، كما نجد المراحيض المبنية بنفس الطريقة على طول هذه الطرق، هذا اضافة الى بعض المساكن المبنية على ضفور الهضاب هنا وهناك بجانب الواحة لتستعمل كملجأ عند نزول الاودية، ذلك أن سرعة نزولها لا يمكن من وقت كاف للرجوع الى القصر، كما أن طرقات الاجنة وحتى الدور فيها و التي هي في مجرى الوادي تعمها المياه حتى تتجاوز المترين في كثير من الاحيان.

*) مـــواد البنـــاء

لقد تعرضت كثير من الكتب والدراسات الى مسألة مواد البناء وكيفية استعمالها في معمار وادي ميزاب كما تناولت هذه الدراسات ذكر خصائص هذه المواد ومميزاتها من حيث استجابتها وتأقلمها مع الظروف المناخية والطبيعية للمنطقة، ونخص بالذكر منها كتاب " Habiter le Desert " ونحن اذ نورد هذه النقطة الخاصة بمواد البناء في بحثنا هذا فذلك سعيا منا لابراز علاقة هذه المواد واستعمالاتها بالممارسة الاجتماعية والفكر المجتمعي فقط بدون الرجوع الى تحليل بعض دقائق تكوينها أو مصدرها أو طرق استعمالها، ونشير هنا الى أن المواد المستعملة في وادي ميزاب هي مواد محلية مستخرجة من المحيط الطبيعي المباشر لهذه المنطقة، فشيء طبيعي أن يستغل الميزابيون محيطهم المباشر في استخراج مواد البناء حيث أن الحجارة والجص (تِمْشِمْتْ) توجد لجانبهم مباشرة ولا تستوجب عناء كبيرا، كما أن النخلة بمختلف مكوناتها والاعداد الكبيرة منها الموجودة في الواحة لا يمكن الا أن توحي لهم باستعمالها في مختلف أوجه حياتهم بما في ذلك مجال البناء. أما استعمال هذه المواد فهو استعمال موجد في جميع مجالات ومكونات المدينة، فالمواد المستعملة في بناء المسجد هي

نفسها المستعملة في بناء المسكن وهي نفسها المستعملة في بناء الابراج والاسوار والسدود وغيرها من الحرشيات العمرانية والمعمارية، ولعل ذلك من أسباب أعتبار العمارة في ميزاب بالوحدة والتناسق والانسجام وساعد على ذلك عملية تقنين استعمال مواد البناء وتوحيدها ومن ذلك ما قاله الامام أفلح(125) «وأما ما ذكرت من أحدث على جاره بابا في موضع كان أرضا تعمل الابواب بالاعواد والجبس والحجارة بأي وجه عمله بتلك الوجوه ولم يعارضه جاره حتى يثبت بالعلم فانه يثبت عليه وأما ان كان بلده لا يعمل فيها الاعواد ولا يعمل الا بالحجارة وعمل هو فيها بغير الحجارة لكي يثبت على جاره فلا يثبت عليه بذلك حتى يعمله كما يعمل الناس أبوابهم»(126). فالوحدة اذن في مواد البناء مع وحدة المجتمع ووحدة المراقبة والتسيير فيه لعملية البناء والتشييد تنتج بالضرورة وحدة في المعمار تجعله مترابطا ومتلائما ومتناغما مع محيطه الطبيعي والبشري.

و في المسكن:

1) تقديم.

ترجع الاهمية الكبيرة التي يوليها المجتمع الاسلامي ومن خلاله المجتمع الميزابي للمسكن،(127) الى أهتمام الاسلام بالعائلة التي تمثل الركيزة الأولى والاساسية في البناء المجتمعي، فبصلاحها يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع.

اذن، وباعتبار أن المسكن هو فضاء العائلة الخاص الذي يمثل مجال نشاطها واطار علاقاتها، وباعتبار كذلك وجوب خضوع هذه النشاطات والعلاقات الى المنظومة الاسلامية في الحياة الاجتماعية، فقد وقع الاهتمام بتحديد نمط المسكن، وطريقة صياغة مختلف فضاءاته بشكل يتلاءم مع هذه النشاطات والعلاقات ويضمن تطبيق القيم والمبادئ الاسلامية التي من بينها قيم التكافل والمودة والرحمة. يقول تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»(128).

ولفهم طبيعة انعكاس العمارة الاجتماعية على المسكن في ميزاب يجب فهم طبيعة العائلة الميزابية ومختلف خصوصياتها وتركيباتها من جهة، وفهم طبيعة نشاطاتها والعلاقات التي تربط بين أفرادها وتربطها بمحيطها، من جهة أخرى.

2) العائلة الميزابية : خصوصياتها ومكوناتها.

يقول الاستاذ هبة الحاج رمضان في دراسته الاجتماعية التي تناولت بالبحث العائلة الميزابية "إن حجمها كان يتجاوز أحيانا ثلاثة أجيال مجتمعة في حياة مشتركة، وهي عبارة عن مؤسسة اجتماعية واقتصادية موحدة ومستقلة، تخضع في تنظيمها لسلطة واحدة، وهي سلطة الجد أو الاب أو الاخ الاكبر" كما يضيف "أنه يكفي أن يقوم الباحث بملاحظة المسكن العائلي لتأكيد هذه الفكرة، حيث أن النمط المعماري يرتكز في هذا الاطار على الاكثار في عدد الغرف لاستيعاب أكثر عدد من الافراد"(129) وهذا دون أن تكون حياتهم مستقلة تماما، بحيث يظهر ذلك في المرافق الحياتية الاخرى، كالمطبخ والحمام وفناء المنزل والسطح وغيرها، التي تم تصميمها بطريقة تساعد على الحياة الجماعية والمشتركة مع مراعاة الفصل بين المجال الخاص بالرجل والمجال الخاص بالمرأة"(130). وعند الزواج، مثلا يكون دخول زوجة الابن أو الأخ في العائلة اضافة امرأة لها وليس استقلال رجل عنها. كما أن هذا الابن أو الأخ المتزوج لا يشهد تغييرا في أسلوب حياته الا من حيث مكانته الاجتماعية، حيث تحول من شاب الى رجل متزوج تزداد مسؤوليته ومراقبته في آن واحد، وتخصص له بعد زواجه غرفة له ولزوجته، كما أنه يواصل ممارسة عمله ونشاطه الاقتصادي ضمن مؤسسة العائلة.

ويساعد على تأقلم الاسرة الحديثة في العائلة الأم، الزواج المبكر، حيث أن العادة والعرف في ميزاب لا يسمحان للشباب بأن يتجاوز عمر زواجهم العشرين سنة، بينما يكون عمر الفتيات الاقصى عادة الستة عشر سنة تقريبا، وذلك حرصا من المجتمع على حفظ الدين بتحصين شبابه للابتعاد به عن كل انحراف أو سقوط، كما أن الانجاب المبكر للاسرة يعتبر ايجابيا للزوجين الذين يجدان السند اللازم والكافي من ابنائهما في وقت غير متأخر، خاصة بالنظر الى أسلوب العيش القائم على الفلاحة.

اذن فان الاسرة الحديثة العهد والتي تعتبر صغيرة السن، لا يمكن لها بأي حال الاستقلال عن العائلة الأم سواء في تسيير حياتها أو في كسب معاشها، ذلك أن الزوجين لا يملكان بعدُ الرصيد الاقتصادي المعاشي أو حتى التجريبي الذي يمكن أن يوفر لهما القدرة على مواجهة الحياة، وبالتالي الاستقلال عن العائلة الأم.

اذن فان الاسرة الحديثة لا تجد غير الانصهار في هذه العائلة والذوبان فيها.

ان هذه الظواهر تمثل تجانسا كبيرا في المنظومة الاجتماعية للمجتمع الميزابي باعتباره مجتمعا اسلاميا يعيش وحدة بين عقيدته وسلوكه، فتحديد مهمتي الرجل والمرأة المختلفتين، وتحديد علاقتهما انعكاسا يوضح في مجالات وفضاءات العمارة والمسكن بصورة خاصة، كما أن المفهوم الاسلامي للعائلة التي يعتبرها أساس المجتمع وعموده والتي تتجلى فيها مظاهر الوحدة والالفة والاخوة والتكافل والاحترام...[494] تجلت بوضوح في النمط الجماعي الموحد لعيشها وفي توزيع الوظائف والادوار والمسؤوليات حسب الجنس وحسب السن الذي يدخل في اطار تجسيد مسؤولية الكبير على الصغير واحترام هذا الاخير للذي أكبر منه باعتبارها من القيم الاساسية في هذا المجتمع، والمجتمع الاسلامي عموما.

3 - تقسيم الوظائف والادوار في المسكن.

في حقيقة الامر، ان المسكن هو فضاء المرأة الخاص بها، بل تكاد تكون الوحيدة التي تجتمع به حيث أنه يمثل فضاء المدينة الوحيد - عدا المسجد - الذي يمكن أن تتواجد فيه، وهو يمثل مجال نشاطها وتحركها الحر، أين تتصرف بدون أي قيد، بل أنها تعتبر المسؤولة الوحيدة عن كل ما يحدث فيه خلاف الرجل الذي "لايظهر الا في فترات محددة، وذلك عند تناول الغذاء أو عند النوم"[495] والذي لا يمكن له الدخول الى مسكنه الا بعد الاستئذان حتى يسمح للنساء الزائرات أو اللاتي لا يجوز له مقابلتهن من العائلة (نساء الاخوة ...) بالاحتجاب يقول الشيخ اطفيش: "اذا علم أن فيه من لا يحل نظره منكشفا، وجب عليه الا يدخل الا بعد تقدم ما يعلم به دخوله وبعد امهال بقدر ما يستتر"[496] بل ان تواجد الرجل في المسكن من غير حاجة، يعتبر عارا في حقه وذلك حسب العرف في هذه الجهة حيث تقول النساء في المثل الشعبي: "يَبْرَ انْتَرْزِينْ وْلَا أَرْجَازْ إِنْتَدَّارِينْ" أي أن المصباح عند الظهيرة أهون وأنفع من رجل المنازل، ذلك أن مكان الرجل هو خارج البيت للعمل والتقوت والدفاع.

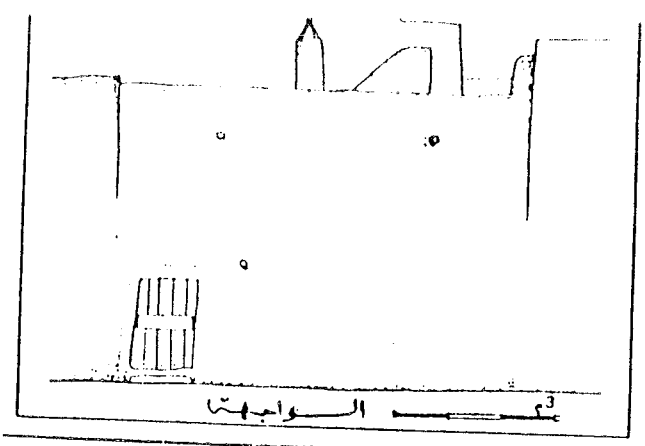
أما عن الحياة داخل المسكن وطريقة سيرورتها، فانها تعبّر عن لحمة العائلة الميزابية وتكتل أفرادها، وهذه العائلة التي تتكون من أسر عديدة، لا تنقسم الادوار فيها حسب هذه الاسر، بل حسب الجنس والعمر، بحيث أنه لا تظهر هذه الاسر الا في العلاقة الزوجية الخاصة بين كل رجل وزوجته، وذلك في اطار الغرفة الخاصة بهما، أما بقية الاطفال والصبيان، فانهم يقسمون حسب الجنس والعمر في الغرف المشتركة دون النظر الى أية أسرة يرجعون، وتخصص الغرف الارضية للجد والاب وأسر الحمل الاول بينما تخصص الغرف العلوية للاسر الحديثة.

ان العائلة الميزابية هي مثال مصغر للمجتمع بأكمله في تقسيم وظائف عناصره والعلاقات التي تربط بعضهم ببعض كما أن المسكن هو المثال المصغر للقصر كله بما فيه من مجال عام ومجال خاص ومجال رجالي وآخر نسائي وآخر للاطفال...فالغرف في المسكن كالمساكن في القصر، حيث تعتبر محالا خاصا لكل أسرة من الاسر المكونة للعائلة، ووسط الدار الذي يدخل في حريم المرأة هو المجال الذي يسمح فيه للاطفال باللعب دون ازعاج، أما غرفة الاستقبال المخصصة للرجال فهي من المسكن بمثابة السوق من القصر حيث أنها تحتل المكان الخارجي في المسكن والمتصل مباشرة بالشارع أو بالاحرى المجال العام وذلك عبر المدخل، كما تمثل المجال الوحيد المخصص للرجل والذي يتصرف فيه بحرية، فيستقبل فيه الضيوف ويجتمع بأمثاله للحوار والنقاش...الا أنه تجدر الاشارة الى أن احداث هذه الغرفة لا يعتبر قديما جدا، ذلك أنها لم تكن موجودة في الماضي البعيد، وما وجودها الا تعبير عن تحول في العمارة التي ذكرناها آنفا من حيث أنه لا وجود لمكان للرجل في المسكن، وفي ما يخص بقية المسكن فلا يمكن للرجل أن يتواجد فيه الا عند مروره لغرفة نومه فقط، وذلك حسب مسار واضح ومعلوم.

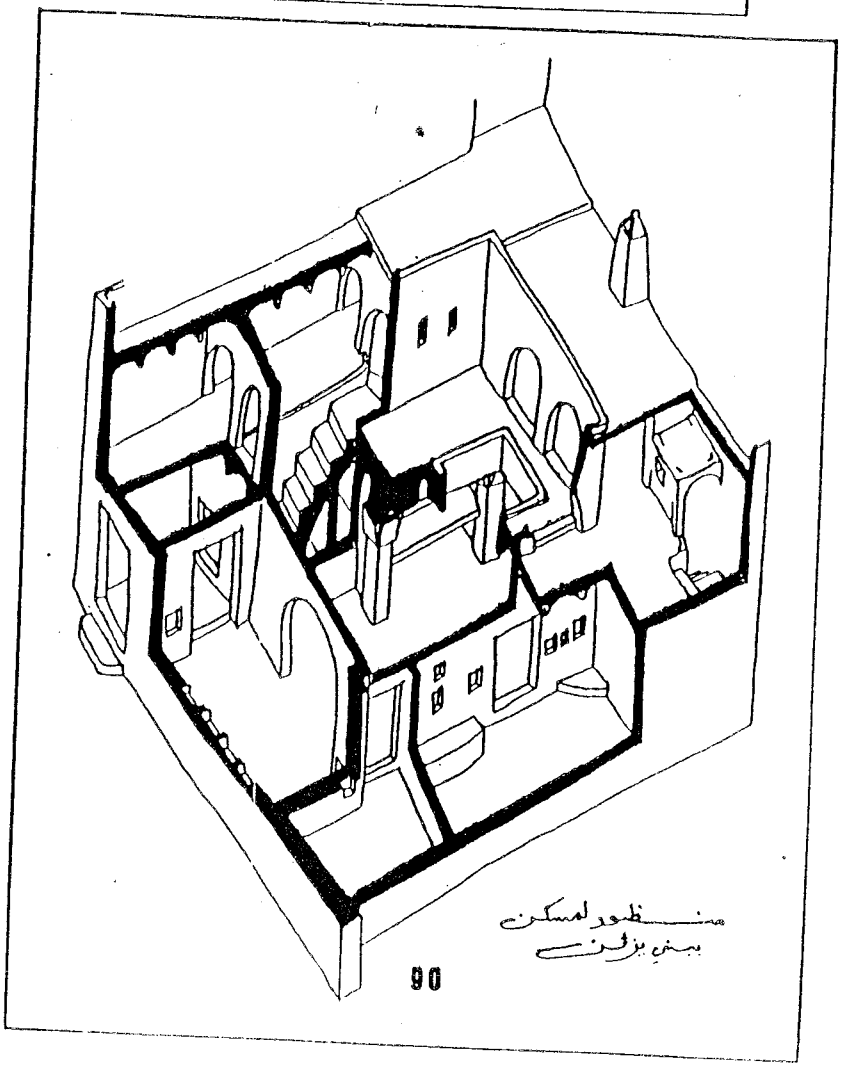
أما عن نشاط النساء في المسكن، فهو نشاط جماعي يقمن به عامة بالتداول بينهن، حيث أن تنظيف المسكن وطهي الطعام وغسل الاواني... اضافة الى النسج الذي يمثل الركن الاساسي في نشاط المرأة اليومي، هي نشاطات تهم كل النساء باعتبارها مشتركة ويتمتع بها كل أفراد العائلة وتكون الجدة أو الام هي المسيرة والساهرة على هذه النشاطات.

4) هيكلة المسكن ومكوناته:

رغم أن المسكن الميزابي يخضع في تخطيطه وهيكلته لأسس المسكن المنتشر في البحر الابيض المتوسط وفي شمال افريقيا بصفة خاصة، وذلك باعتماده على فراغ أو بالاحرى فضاء يتوسط المسكن وبهكل مختلف الفضاءات حوله، والذي من خلاله تنفذ الشمس الى المسكن ويتم تهوئة مختلف فضاءاته، الا أن له خصوصيات تميزه عن غيره وذلك ناتج عن تفاعله مع محيطه الطبيعي: الجغرافي والمناخي، اضافة الى أنه كان انعكاسا للفكر المجتمع ونمط حياته، فوجوده في الصحراء وفي مناخ شديد الحرارة جعله يتأقلم مع محيطه بحيث كانت المساكن كلها تعتمد (مهما كان حجمها) على طابقين عوض أن تكون ممتدة على الارض وذات طابق واحد، أحد هذين الطابقين أرضي لا يتصل بالفضاء الخارجي الا من



شكل 3 الواجهة



منظور لمسكن
بمنطقة بزلن

خلال فتحة (شباك) لا تتجاوز مساحتها 1،5 م^2 ، بحيث تكون الطوابق الارضية للمساكن كأنها مدفنة تحت الارض مما يوفر لها عزلا حراريا جيدا، أما الطابق العلوي، فلا تتجاوز المساحة المغطاة فيه نصف المساحة الارضية بحيث تكون السقية(أي السطح) فضاء أذا أهمية كبيرة في فصل الصيف وخاصة في الليل حيث ينزل الهواء البارد الذي يحد من حرارة الشمس خلال النهار.

وتشترك كل المساكن في ميزات مهما كان حجمها في عناصر أساسية تختلف في مقاييسها اختلافا طفيفا بين مسكن وآخر وتتوزع هذه العناصر بين الطابق الارضي (أَدْاَبَهْ) والطابق العلوي (أَيْتَنْ) . ويحتوي الطابق الارضي من الخارج الى الداخل على :

- العتبة (أَلْعَتْبِتْ).
- السقيفة (تَسْقِيفْتْ).
- وسط الدار (أَمْسْتَدَّارْ).
- غرفة استقبال للنساء (يِزِفْرِي).
- غرف النوم (تَزْكَمْ).
- الموقد (أَيْنِي).
- مطهرة (لَنْفَيْلْ).
- مرحاض (أَدْجْمِيرْ).
- مدرج (يِشُوتَانْ).

أما الطابق العلوي فيحتوي على :

- السطح (يِسْقَرْفَرْتْ) أو (أَتَّيْتَنْ).
- الرواق (إِيكُومَارْ).
- غرف النوم (تَزْكَمْ).
- مرحاض (أَدْجْمِيرْ)
- مطهرة (لَنْفَيْلْ).

أما اذا كان المسكن كبيرا ويملكه شخص مترفه نوعا ما، فانه يضاف اليه طابق سفلي (تَدْمُورْتْ) عادة ما يكون فضاء ملاة أو خزن، كما يضاف الى الطابق الارضي :

- مربط الدابة (تَزْوِيدْ).
- فضاء للعنز (أَيْشِينْ تَاتْزَاتْ).
- غرفة لخزين (حُجْرَةْ).
- غرفة أو جناح للضيوف.

أما الطابق العلوي فيضاف اليه :

- غرفة أو جناح للضيوف (لَعْلِيْ).
- مخزن للتمور (تَخْبِيتْ).

أما بقية الغوارق التي تكون بين المساكن فتتمثل في عدد الغرف دون أن تكون مقاييسها مختلفة بين التي للمساكن الصغيرة أو الكبيرة الحجم، ذلك أن الاصل في تحديد مقاييسها هو الحاجة اليها وطريقة استعمالها لا القدرة على البناء اذا توفر المال، باعتبار أن الاسراف و التبذير ممنوعين شرعا وعرفا.

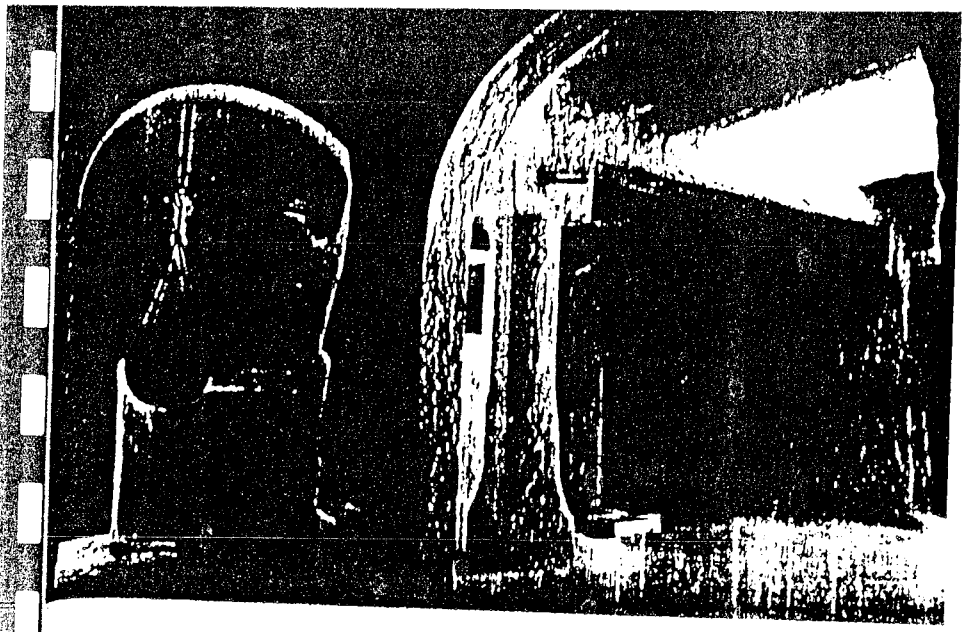
أما فيما يتعلق بخاصيات هذه العناصر و الفضاءات و الممارسات التي تتبعها، فسندرسها أولا بالطابق الارضي و(من الخارج إلى الداخل):

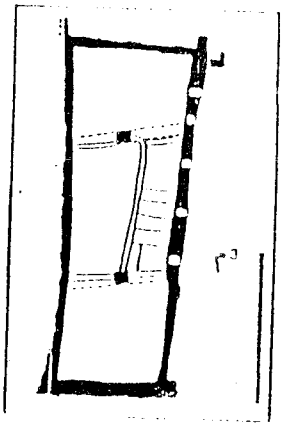
العتبـــــة :

ان مفهوم العتبة لا يقتصر على حجر صلب أو قطعة من اللوح تحت الباب كما يعرّفها المعجم الفرنسي بكلمة (seuil) بل تأخذ العديد من التعاريف اضافة الى أنها كانت مصدر الكثير من خيالات المجتمع التي تصل الى حد الخرافات وأقل ما يمكن أن نقوله على العتبة في ميزاب أنها تمثل "الحاجز و الخط الفاصل بين عالم الرجال وعالم النساء الخاص"(134). كما أن للعتبة التـــي ترتفع حوالي العشرين"سم" دورا آخر يتمثل في حماية المسكن من تسرب ماء المطر اليه أو الهواء البارد خلال الشتاء، كما أنها تمثل حاجزا مانعا من دخول الحظرات السامة و الزواحف الى المسكن .

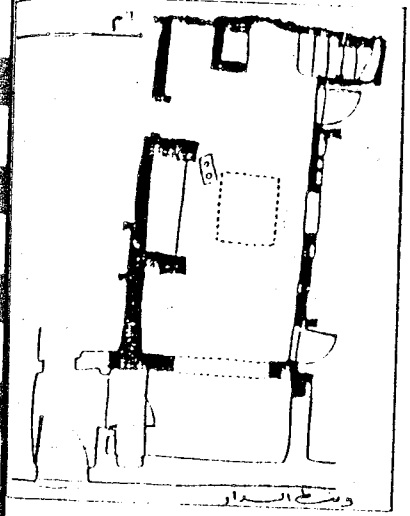
البـــــاب :

خلافا لبقية الابواب داخل المسكن فان الباب الخارجي له يكون عادة كبير الحجم ارتفاعا وعرضا وذلك نتيجة استعماله بصفة متكررة طوال النهار، اضافة الى أنه يمثل مدخل الدابة التي

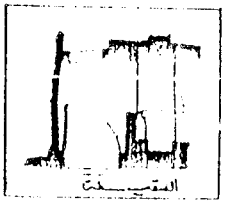




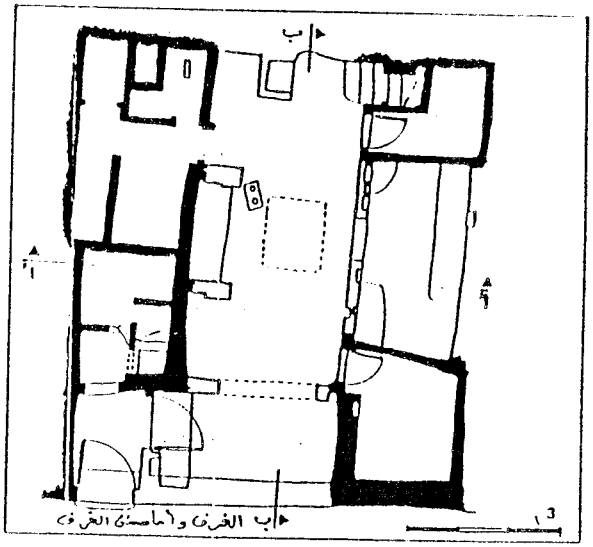
العلـــي



وسط الدار



السقيفة



أب الغرف وأماكن الغرف

تكون عادة محملة بالمحصول الفلاحي أو الحطب أو روايا الماء... مما يستوجب احداث فتحة كبيرة لتسهيل دخولها.

السقيفة :

تأخذ السقيفة في ميزاب موقعها في زاوية المسكن كما في المساكن الموجودة في شمال افريقيا وهي تعتبر فضاء فاصلا بين داخل المسكن وخارجه، فبينما تستحيل رؤية ما في داخل المسكن من الخارج، فان السقيفة تكون مراقبة من الداخل، وذلك من خلال فتحة تكون عادة بينها وبين الدرقوى أو وسط الدار، كما أن السقيفة تعتبر فضاء الانتظار لمن يطلب الاذن بالدخول، حيث أن الاسلام يحرم الدخول بغير اذن، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(135). بل يذهب الشيخ اطفيش الى القول بأنه من دخل بلا اذن ولو كان كافر فساق ويرى منه ووجب رده ان أطيق عليه...، ومن دخل بلا اذن حل ضربه وهدر دمه، لكن لا يعجل عليه حتى يعلم أنه لا يرجع بالكلام وحده وأنه غير ملتجئ أو سكران أو نحو ذلك"(136) ويرجع هذا الى حرص الميزابيين على حفظ العرض الذي يمثل كلية من كليات العقيدة، مع تشددهم في ذلك.

وأخيرا، فان لوجود السقيفة أهمية كبيرة في تهوئة المسكن، ذلك أنها بخاصياتها السابقة الذكر تعطي امكانية أن يبقى باب المسكن مفتوحا كامل النهار، فيحدث تيار هوائي بينه وبين شباك المسكن يساعد على توفير المناخ الملائم فيه خاصة في فصل الصيف الشديد الحرارة.

مربط الدابة أو فضاء العنز:

باعتبار أن وسيلة النقل الوحيدة في ميزاب في الماضي كانت الدابة التي تحمل على الناس السفر والتحول من القصر الى الواحة والتي تحمل أثقالهم لمسافات طويلة، اضافة الى حتمية استعمالها في الفلاحة كاستخراج الماء من الآبار التي يتجاوز عمقها في كثير من الاحيان الخمسين مترا، فان لها مكانة كبيرة في حياة السكان، لذلك خصص لها فضاء في المسكن يكون عادة بجانب السقيفة مباشرة إن لم تكن هناك امكانية لاحداث باب خاص له، ويرجع موقع هذا الفضاء الذي يكون قريبا من الباب الى العمل على تسهيل دخولها وخروجها، اضافة الى العمل على ابعاد هذا الفضاء عن وسط المسكن لعدم تجانسهما معا في ما يخص مميزات كل منهما (رائحة، نظافة، ضجيج...).

الى جانب مربط الدابة، يخصص فضاء للعنز التي لا يكاد يخلو منها مسكن في ميزاب ،فهي تأكل ما يتبقى من الطعام لستم بذلك حفظ نعم الله وعدم اتلافها عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكرموا الخبز فان الله تعالى أنزله من بركات السماء"(197) كما أنها تدر على العائلة بما تحتاجه من حليب.

غرفة الاستقبال للرجال.

سبق أن تحدثنا عن هذه الغرفة من حيث اتصالها المباشر بالسقيفة واختصار وظيفتها على الرجال دون النساء، ونضيف بأنها يمكن أن تكون في الطابق الارضي، أو في الطابق العلوي حيث تكون معزولة أكثر عن فضاء النشاط اليومي للنساء، كما يكون لها بفع فتحات على الطريق أو السطح، ويخصص لها مدرج يكون عادة في السقيفة أو بجانبها.

وسط الدار.

لوسط الدار في مساكن شمال افريقيا وفي المسكن الميزابي بصفة خاصة أهمية كبيرة، ذلك أنه يسمح باستعمالات أكثر نظرا لكونه شبه مغطى كلياً ولا يتصل بالفضاء الخارجي الا من خلال فتحة الشباك التي يمكن أن تغطى بكل بسر ضد عوارض الطقس المختلفة لستوا صل استعمالها بدون انزعاج؛ أما عن مختلف استعمالاته، فاضافة الى كونه يمثل مجال لعب الاطفال، وخاصة الصغار منهم، فانه يعتبر الفضاء الذي تحصل فيه كل النشاطات المنزلية تقريبا، ابتداء من الطبخ حيث يأخذ الموقد زاوية منه، فغسل الاواني والثياب... كما أن النسج الذي يعتبر من أهم نشاطات المرأة، فانه يحتل جانبا معينا ومخصوصا من وسط الدار.

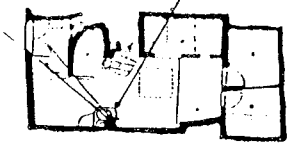
ويكون وسط الدار أيضا مكانا مرتفد فيه الاطفال لملا عندما يكون الطقس حارا، كما يستعمل في الاعياد الدينية وأفراح الزواج...

فوسط الدار هو الفضاء الرئيسي في المسكن، لا فقط من حيث توزيعه وهيكلته لمختلف الفضاءات فيه، ولكن من حيث أنه يمثل الفضاء الرئيسي الذي تدور فيه مختلف الانشطة.

وانعكست أهمية وسط الدار في شكله ومقاييسه، فكان أول عنصر يخطط ومن حوله مختلف الفضاءات مما جعل شكله متوازنا. وانعكاس لكثرة النشاطات التي تدور فيه فان مقاييسه تكون

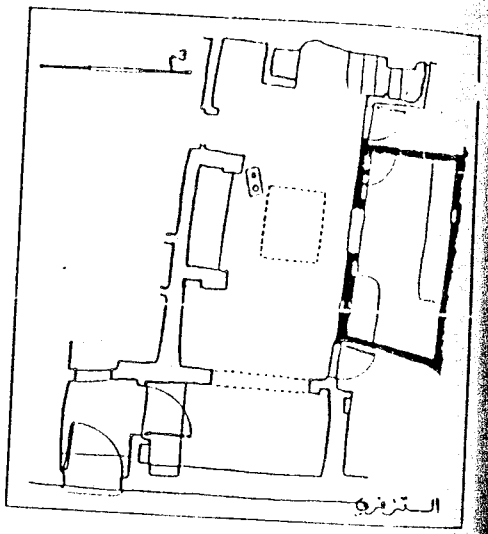


المسطح









مرتفعة نسبيا ويصبح بذلك أهم فضاء في المسكن.

المطـــــــبخ :

في الحقيقة لا وجود في المسكن الميزابي قديما للمطبخ كفضاء مستقل بالمفهوم المتداول حاليا، ذلك أن الاكل لا يعتبر في التراث الثقافي الاسلامي مهمة أصلية أو رئيسية، بل أنه لا يعدو أن يكون تلبية عابرة لحاجة فطرية، والحكم والامثال الشعبية التي تقول "نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل" و"للمؤمن بطن وللكافر اثنان" لم تكن منبثقة عن الفهم الاسلامي لهذه الوظيفة حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما ملأ ابن آدم وعاءا شرا من بطنه، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه فان غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس"(438). كما يقول أيضا: "ان أكثر الناس شبعا في الدنيا أطولهم جوعا في الآخرة"(439). من هنا نستطيع أن نفهم عدم اهتمام الميزابيين قديما بفضاء اعداد الاكل وآلاته، حيث اكتفوا بموقد في ركن من وسط الدار فوقه بعض الرفوف والاوتاد التي توضع عليها وتعلق الاواني القليلة التي تستعمل في الطبخ.

يقول الشماخ باشانو وطلاي أنه لم تكن للميزابيين قديما الا أكلة واحدة في اليوم وذلك قبل صلاة العصر، أي بعد رجوع الرجال من الواحة، فتكون هذه الاكلة بمثابة الغداء والعشاء في آن واحد، لينطلق الرجال اثرها الى المسجد لصلاة العصر، ثم السوق، فالمسجد مرة أخرى لصلاة المغرب ثم العشاء وأخيرا العودة للمسكن للنوم.

من هنا نستطيع ملامسة مدى تأثير العمارة الاجتماعية في ميزاب بالعقيدة الاسلامية ومدى تأثير هذه العمارة على صياغة الفضاء المعماري في المسكن.

أما عن موقع الموقد فحسب الامام أفلح عند سؤاله عن مكانه "وذكرت مسألة رجل أحدث مطبخا في داره وأسنده الى بيت جاره وقلت أنه أقر احداث مطبخ في داره إن كان يؤخذ بنزعه، فاعلم أن ما عندي اذا أدعى المدعي أنه أحدث مطبخا في داره وأسنده الى بيت الرجل وضر به نعم"(440). اذن فان الموقد في الاصل يمنع اسناده الى حائط الجار بدون رضاه أو باحداث الضرر له، كما أن موقعه يكون عادة في المكان الذي تقدر المرأة من خلاله مراقبة كل ما يحدث في المسكن والمدخل بصفة خاصة.

وأخيرا فانه تجدر الاشارة الى وجود موقد في الطابق العلوي فوق الموقد الارضي مباشرة لاستعماله في فصل الصيف لطهي الشاي خاصة، وذلك في أكثر المساكن.

التيزفري : (غرفة الاستقبال للنساء)

ان من أنشطة المرأة الرئيسة في ميزاب النسيج، الذي يوفر لوازم العائلة من اللباس والفطاء اضافة الى كونه يعتبر سندها الاقتصادي باعتبار ضعف مورد رزقها الوحيد المتمثل في الفلاحة التي كثيرا ما كانت تلاقي صعوبات جمة من حيث قلة المياه وصعوبة المناخ...

لذلك نجد المرأة تقضي كامل يومها تقريبا أمام المنسج الذي يتحول معها كامل السنة وحسب الفصول، من فضاء الى آخر ومن القصر الى الواحة ونجدها يتنقل في المسكن من التيزفري الى وسط الدار ومنه الى الرواق (الايكومار)... الا أن مكانه الرئيسي هو التيزفري أي غرفة الاستقبال للنساء. والنساء في ميزاب كثيرا ما يتنقلن من منزل الى آخر يتعاونّ في النسيج ويتسالفنّ الايام فيه (٩٩) فتكون لقاءاتهن الكثيرة والمتكررة مجالا للتحاور ودفع الوحدة والقلق من ناحية، وتبادل المعلومات والتجارب والمنفعة من ناحية أخرى حيث يتجسد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا".

ونظرا لما سبق، وباعتبار أن التيزفري هو الفضاء الذي تقضي فيه المرأة كامل يومها تقريبا و تستقبل ضيوفها، فقد كان موضعه أساسيا في المسكن، حيث يحتل أفضل مكان فيه من حيث الوجهة فيكون عادة موجها الى القبلة ليتمتع بأشعة الشمس في الشتاء، خلال النهار، وذلك عبر فتحة الشباك الافقية التي تكون قريبة منه، يتصل التيزفري بوسط الدار مباشرة عبر فتحة كبيرة بدون باب كما يكون بجانب السقيفة دون أن يفتح فيها، حيث تستطيع المرأة منه ومن خلال ثقب صغير مراقبة من يريد الدخول الى المسكن، أما مراقبة وسط الدار فهي تتم من خلال تلك الفتحة الكبيرة وبنطاق المدرج عادة من جانب التيزفري، ويتم بذلك مراقبته دون أن تتكلف المرأة عناء التنقل وبالتالي التوقف عن النسج، كما يحتوي التيزفري عادة على رحى بحيث يمكن لاحدى النساء رحي القمح دون الابتعاد عن رفيقاتها، كما توجد كذلك مصلة مبنية خصيصا للصلاة، ورغم أنه يمكن الصلاة في كل الأماكن الا أن المجتمع الميزابي الاباضي، كما بيناه من قبل، شديد الحرص في مسألة الطهارة للصلاة

سواء كان ذلك في اللباس أو المكان الذي تقام فيه ، ووجود هذه المسطبة في التيزفري راجع الى عدم احتياج الرجال لها لكونهم ملزمين بأداء الصلاة في المسجد.

ان للتيزفري مقاييس دنيا لا يمكن تجاهلها عند التصميم ، وهي راجعة أساسا لمقياس المنسج المستعمل في نسجه فلا يمكن بأي حال أن تكون مساحة التيزفري أقل من 6م^2 (2م × 3م) ، كما أنه لا يمكن تجاوز المقاييس التي تحددها مواد البناء.

الغـــــــرف :

تتوزع غرف المسكن بين الطابق الارضي و الطابق العلوي، وهي مخصصة لأسر العائلة ، حيث تكون التي في الطابق الارضي للاسر القاسمة ، بينما التي في الطابق العلوي للاسر الحديثة ، وذلك مراعاة للسن حيث أن الجد أو الاب لا يقدر عادة على الصعود الى الاعلى بسهولة ،وتوفير النوع من الاستقلالية و الراحة النفسية التي يتطلبها الزوجان الجديدان.

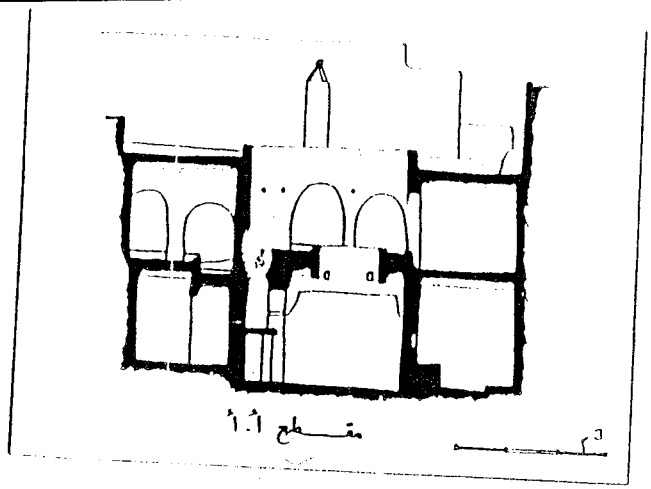
وتكون غرفة الأب عادة مقابلة لمدخل المسكن، وذلك لمراقبة الداخل و الخارج لملا.

ان هذه الغرف التي تكون صغيرة ، لا تحتوي على أي أثاث فالفراش عبارة عن دكانة أو مسطبة ، و الخزانة عبارة عن كوّات في الحائط حيث توضع الاديباش كما تثبت الاوتاد على الحائـــط لتستعمل عادة لتعليق الثياب أما عرض هذه الغرف فانها تمثل عادة عرض الفراش الذي يحتل داخلها ، وتفرش هذه الغرف في الشتاء بالزرابي، بل يعلق تحت السقف ذاته نوع من القماش المنسوج يحتوي على زخارف عديدة وجميلة وذات ألوان طبيعية وزاهية ، مما يوفر للنائم مساحة جميلة ينظر اليهـا ويمنع عنه تساقط حبات الرمل أو الحصر .

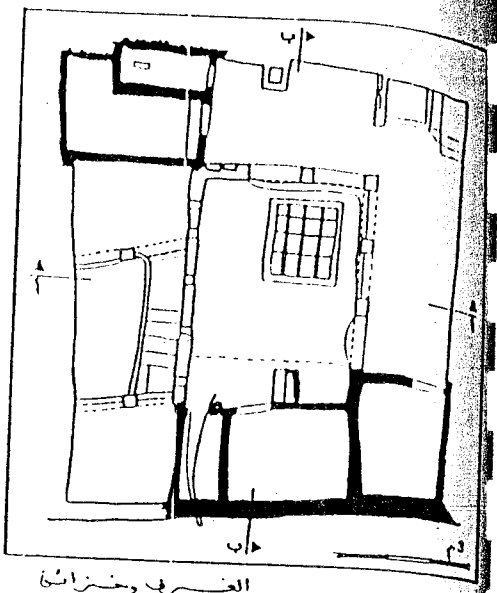
أما عن الفتحات في الغرفة فانها لا تجد عادة الا الباب الذي رغم قلة ارتفاع دفتـه ، حيث لا تتجاوز عادة 1،30م الا أن الدخول منه يكون عاديا وسهلا، وذلك بوجود العتبة التي ترتفـع حتى 40 سم لمنع تسرب الرياح و الهواء البارد في الشتاء ، و الحشرات السامة في فصل الصيف.

المـــــــــطح :

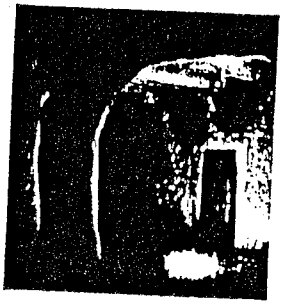
باعتبار أن وسط الدار في الطابق الارضي غير مفتوح بالكلية كبقية المساكن في شمـــال

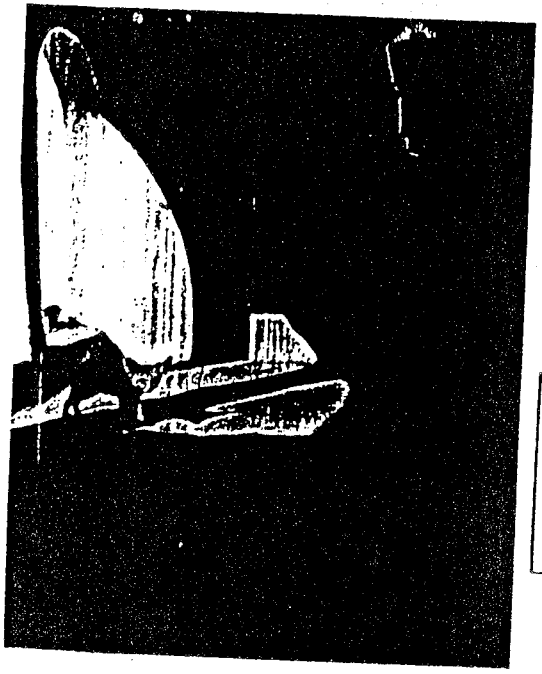


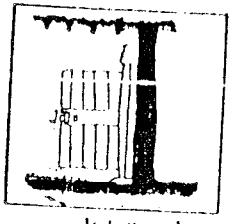
مقطع أ أ



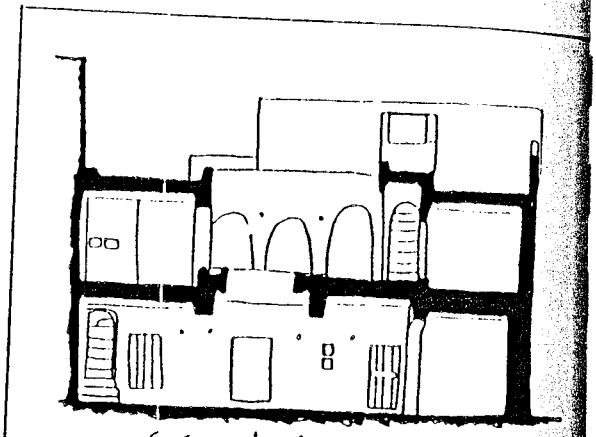
الغرف وخزانة الدور







الباب الداخلي



مقطع ب ب

الرسقية، حيث تقتصر فتحته على شباك أفقي لا تتجاوز مساحته 5,1م^2، وباعتبار قلة الغرف ومحدودية المساحة المغطاة في الطابق العلوي، فان ذلك يوفر مساحة كبيرة غير مغطاة تستعمل طيلة السنة، في الشتاء خلال النهار وفي الصيف خلال الليل.

فاضافة الى مختلف الاستعمالات اليومية فيها مثل نشر الثياب وتكسير الشمار (التمور...) فانها تستعمل في الصيف ليلا، حيث ينزل الهواء البارد بعد يوم شديد الحرارة، فتكون السهرة ممتعة يحلو فيها السمر والسهر مع الكواكب المنتشرة هنا وهناك في السماء الصافية يزيدها البهاء احساسا والهاما.

الايكـــومـــار:

يستعمل الايكومار في فصل الخريف والربيع خاصة، حيث يكون في الخريف فضاء للتجفيف التمور مع حفظها من عوارض الطقس كالامطار والرياح... كما يستعمل في فصل الربيع عند بداية اشتداد الحرارة، للنوم والنسيج... .

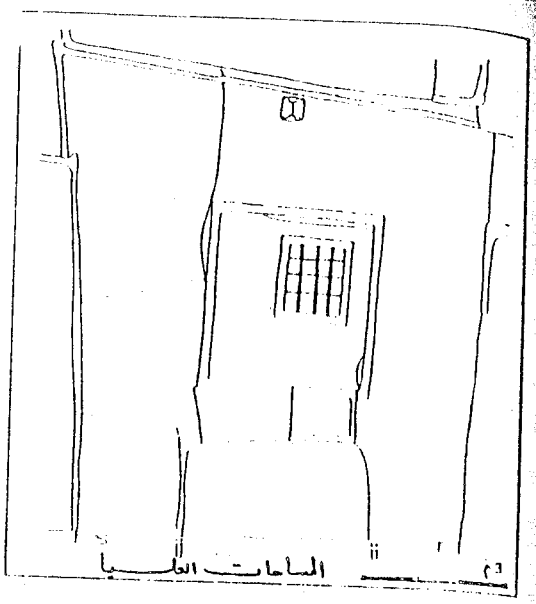
ان وجود ايكومار في كل مسكن هو تعبير عن أهميته، حيث أنه يمثل فضاء وسطا بين السطح الغير محمي تماما والمعرض للشمس والهواء الليل البارد صباحة، والغرف القليلة التهوئة والتي لا تكون فيها عادة الا فتحة الباب لقد لاحظنا من خلال بطاقة بريدية يرجع تاريخها الى آخر القـــرن التاسع عشر، أن أقواس الايكومار للمساكن القريبة من المسجد كانت في غرداية ذات شكل مربع الا أنها تأخذ شكلا نصف دائري في المساكن البعيدة عنه، والاغلب للظن أنه باعتبار تزايد بناء المساكـــن واعتماد النمط القديم من الاقواس على أخشاب النخيل مما يهدد هذا الاخير ويتعارض مع مبدأ عـــدم قطعه الا للضرورة، فانه تم تعويض هذه الاقواس بأخرى نصف دائرية تعتمد في بنائها على الجريـــد المتوفر بكثرة، مع الابقاء على الشكل المربع للقوس الاخير المتصل بحائط الجار، حتى يمنع انتقال الضغط من أقواس الرواق (الايكومار) اليه.

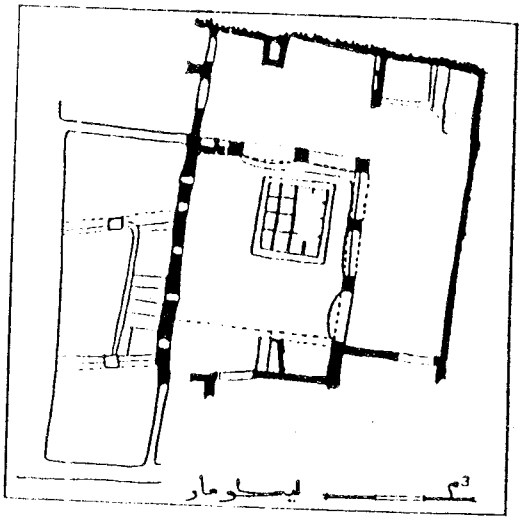
غرفـــة الخـــزين:

عادة ما يحتوي المسكن في ميزاب على غرفة أو أكثر للخزين، فاعتماد الميزابيين علـى الفلاحة التي منهم توفير فضاء لخزن منتوجها، كما أن قلة الموارد ومحدودية عطاء وانتاج الارض،



مدرج السطح





اضافة الى تعرض هذه المنطقة للازمات الغذائية المتتالية الناتجة عن الجفاف وقساوة الطبيعة، جعل المزابيين مقتصدون في معاشهم، اذ لا يمكن بأي حال الاسراف أو التبذير في استهلاك الغذاء، حتى أنه يحكى أن مفتاح غرفة الخزين كان بحوزة الأب الذي يحدد بنفسه كمية الغذاء التي يصرفها للعائلة كل يوم أو كل أسبوع. فلولا ذلك لما استطاع هذا المجتمع البقاء والصمود في هذه المنطقة الصحراوية الجافة طيلة هذه القرون العديدة.

أما عن موقع هذه الغرفة، فانها عادة ما تكون فوق السطح نظرا الى أن استعمالها يكون أقل من تلك التي في الطابق الارضي، كما يروى أن الغرفة التي استعملت في القرون الاخيرة كغرفة استقبال للرجال والتي تكون في الطابق الارضي، كانت قبل ذلك غرفة للخزين (الحجرة).

كما لاحظنا من خلال بعض أمثلة المساكن القديمة، ومن خلال مسكن قديم جدا قمنا بزيارته، وجود (تَغْمِيتْ) أي اناء كبير من الفخار في شكل نصف جرة مبني في زاوية من غرفة الوالدين قيل لنا أن التمر كان يخزن فيه بعد تنقيته وحذف نواته ورصه ليحفظ مدة تتجاوز السنتين في بعض الاحيان.

المطهرة والمرحاض :

نجدهما في الطابقين الارضي والعلوي وفي مستوى عمودي واحد، لتسهيل تصريف الفضلات والماء المستعمل، ووجودهما في الطابقين، راجع الى الاستعمال المتواتي لكليهما. ويمتاز هذان الفضاءان بمحدودية مساحتهما، كما أنهما يفتقران الى الابواب، ذلك أن استعمالهما يكون محدودا في الزمن، اضافة الى أن شكلهما المعماري مصاغ بطريقة تحجب الذي في الداخل عن الخارج. ان استعمال الماء فيهما قليل جدا حيث أن الطهارة أو الغسل يكون بابريق واحد ذي ثقب صغير جدا يعلّق في أعلى المطهرة ليستعمل كالمرش، كما لا يستعمل الماء في الاستنجاء في المرحاض عند المزابيين اذ يقول الشيخ اطفيش : "ونحن الاباضية نقول لا بد من تقديم الحجارة لانه صلى الله عليه وسلم يقدمها وكذا أهل قبا والصحابة..." (١٩٤).

ونظرا لما سبق، أي الاستعمال القليل جدا للماء والذي يقتصر على المطهرة، فان حالة الرطوبة في الحيطان تكاد تكون منعدمة تماما في المسكن المزابي عكس بقية المساكن الموجودة في مدن شمال افريقيا، ورغم ذلك فقد منع اسناد المرحاض والمطهرة الى حائط الجار.

كما يجب أن نذكر أن الاقتصاد الكبير في استعمال الماء في ميزاب راجع الى قلته، فرغم أنه أساس الحياة الا أنه لا يتوفر بالكمية الكافية حتى للشرب وسقي الاشجار، لذلك فاننا نجد جانبا كبيرا من الكتابات والقوانين الميزابية تعتني بالماء من حيث الاستعمال والتقسيم... بكل دقة.

5) النسب والمقاييس.

ان الحاجة هي أساس كل بناء في ميزاب فلا توضع مواد بناء اضافية لا تؤدي دورها، ولا توضع مقاييس تفوت الحاجة والاستعمال، وقد اجتهد الميزابيون في ذلك أيما اجتهاد. فكل الفضاءات في المسكن مستغلة ومستعملة بصفة دقيقة، فلا يكاد يخلو فضاء من الاستعمال، حتى أن الفضاء الذي تحت الدرج مثلا يستغل لاواء الخبز أو لحفظ أدوات الفلاحة أو لخزن الصوف إذا كان يفتح من جهة التيزفري.

وتحتوي الحيطان في طلها على كوات تستغل لحفظ الاصباغ والاواني وما الى ذلك. أما عن استغلال فضاءات المسكن فانها لا تخضع الى وظائف محددة بل انه لا يكاد يخلو فضاء من وظيفة في كل أوقات السنة، ليلا أو نهارا، فالغرفة مثلا يمكن أن تكون للخزن والجلوس والاكل والنوم الخ... خاصة أن هذه الفضاءات لا تحتوي على أي أثاث بحيث أنها لا تعدو أن تكون قراغات تملك القدرة على استيعاب الكثير من النشاطات والممارسات الفردية والجماعية في آن واحد.

وفيما يخص الارتفاع تحت السقف في المسكن الميزابي، فانه لا يتجاوز المترين وعشرين سم (2،20م) الا في القليل من الحالات بل ان هذا الارتفاع ينزل في كثير منها الى متر وثمانين سم (1،80م) خاصة في المساكن القديمة. وتجدر الاشارة هنا الى أن هذه المقاييس والنسب ليست مضبوطة بصفة كبيرة بمواد البناء وانما كانت تستند الى مبدأ عدم الاسراف والتبذير بالبناء فوق الحاجة، ذلك أنه كان بالامكان بناء فضاءات متسعة باستعمال نفس الطريقة التي تمت بها صياغة فضاءات المسجد المتسعة كبيت الصلاة بالاستعمال المتكرر للاعمدة والاقواس.

أما أبواب فضاءات المساكن، فلا يتجاوز ارتفاعها عادة المتر والسبعين سم (1،70م) يكون الجزء الاسفل منها والذي قدره 40 سم تقريبا مبنيا أما البقية أي الجزء الاعلى (1،30م) فيكون من خشب النخيل الذي يُجتهَدُ في التقليص من استعماله، باعتباره ثروة الميزابيين الفلاحية وأساس

معاشهم، اضافة الى كراهة قطع النخلة شرعا وعرفا، يقول الشيخ اطفيش : "وقيل في النخلة لا تقطع ولو كبرت وضعفت ما دامت حية" (١٤٣) لذلك تعدها محاطة بعناية فائقة حتى أنها اذا ضعفت أو انكسرت نتيجة رياح فانهم يقومون بتقوية عودها بألواح تحاط بالجزء المكسر أو الضعيف وتشد بالحبال .

أخيرا فاننا نلاحظ تجانسا كبيرا بين مقاييس الطول و العرض و الارتفاع ومقاييس الابـــواب و الفتحات في فضاءات المسكن الميزابي مما أضفى على هذا المسكن تجانسا و انسجاما كبيرين وتأقلما تاما مع الممارسات التي تحدث فيه .

6) <u>علاقة المسكن بمحيطه المعماري وما يتبع ذلك من قوانين.</u>

ان أول ما يمنع عند بناء المسكن أو حتى بعد بنائه هو تحويل وظيفته حيث يمنع الجيـران جارهم "ان أرادها فندقا أو حوانيتا أو بيت رحي أو حمام أو معصرة أو مجمع أو سوق أو أراد مجلسا قدام غيره أو مكانا يرقد فيه ولهم منعه من أن يهدم داره وان هدمها الا جدار السكة فله ذلـــك الا اذا كانت المغرة تصل الى السكة" (١٤٤). ذلك أن في هدم حائط السكة مع الدار احداث ساحة أو فراغ يمكن أن يكون مجمعا أو مجلسا... مما يمنع في الطرقات التي لا تتمثل وظيفتها الا في المرور و العبور فقط "وأما ان أراد أن يعمرها بالاشجار و الحرث وغير ذلك في كل ما تكون فيه المغرة... من تلك العمارة مثل ظل الاشجار وتداوة الحيطان أو ما أشبه ذلك فانهم يمنعونه" (١٤٥). "كما أن "من أراد أن يحدث ميزابا ليسته على الطريق، على بيت غيره... أو على ما يضر فيه غيره" (١٤٦) فانـــه يمنع من ذلك "وأما تطويل الحيطان لأهل السكك فلا يمنع بعضهم بعضا منها الا ان كان فيها ضيقا على جيرانه أو يتخوف وقوعه أو حمل عليهم الظل فانهم يمنعونه" (١٤٧) وأخيرا وفيما يخص أبواب المساكن فانها لا تحدث في الطريق الخاصة الا باذن أهلها واتفاق أصحابها كلهم وبدون استثناء وأما إذ كانت في الطريق العامة فيمكن احداثها ما لم تضر بالجيران أو قابلت باب أحدهم، يقول الشيخ اطفيش في ذلك : "من له دار في شارع العامة أو بيت فله أن يحدث لها أبوابا حيث شاء الا أنه لا يضر جاره ولا يقابل بابه باب غيره... وأما السكة النافذة للخاصة أو غير النافذة لهم فلا يحدث بعض من فيها بابا أو غيره الا باذن أهلها كلهم من في شطره ومن في الشطر الاخر، من في أعلاها أو أسفلها أو وسطها" (١٤٨).

في الحائط المشترك بين الدارين.

يقول الشيخ اطفيش : "اذا كان الحائط مشتركا بينهما فانه يمنع بعضهما من الزيادة فيه والنقصان منه ويمنع أيضا من يجعل فيه الاوتاد أو يجعل عليه الخشب أو يتخذ فيه مستراحا ولا يصيب أحدهما أن يستنفع به دون صاحبه الا ما ثبت له في الاستنفاع قبل ذلك، ويمنع من أراد من المشتركين في حائط أن يتخذ فيه الدرج الا ان لم يلتصق الدرج بالحائط وقد ترك بينهما مقدار ما تدخل فيه يد الماشي ويمنع أن يشرف عليه بالدرج وان لم يمنعه حتى ثبتت عليه أو كانت في ذلك الموضع قبل ذلك فلا يأخذه بنزعها ويمنع أن يزيد بيتا يمشي اليه من تلك الدرج التي ثبتت وتثبت قبل ثلاث سنين.. ومن له المنافع هكذا في حائط جاره فله كل ما لا مضرة فيه كبناء حائط اليه والوتد والخشبة، لا ما يضر كالتنور والمستراح والدرج التي يشرف بها عليه الا ان ثبتت" (149).

في السقف المشترك.

يقول الشيخ اطفيش : "من له بيت فوق بيت غيره فعليه طين السقف وعلى من تحته الخشب ويدرك كل منهما على الاخر أن يصلح ما خاف منه مضرة بالانهدام، وفي الاثر ان كان بيت لرجل عليه غرفة لرجل آخر فسقف البيت لمن بناه وان بناه جميعا فهو بينهما وان لم يعرف من بناه بينهما فللصاحب البيت ما كان داخلا في بيته من الخشب والجرائد وشبه ذلك ويكون لصاحب الغرفة ما فوق ذلك من الطين والجص وغير ذلك" (150).

وهذا فيما يخص حق الانتفاع ومسؤولية الاصلاح على السواء.

في الحائط الذي يكون من جانب الطريق.

يقول الشيخ اطفيش : "من أحدث تنورا بجنب الطريق وآذى الناس بدخانه أو لهبه وبان منه الضر أزاله ولو قديما" (151)

في ارتفاع المسكن.

يتحدد ارتفاع المسكن بعنصرين :

- الكشف : حيث يمنع الجار من كشف جاره.
- الظل : حيث أنه "يمنع الجار أن يجعل الظل على جاره الظل القبلي والظل الغربي الا اذا كانت

بينهما عمارة أو ترك ثلاثة أذرع والذي يُمْنَعُ من الظل في الاجنة والزروع والنبات هو ظل الحائط القبلي لا الغربي" (152) وذلك باعتبار أن السكن في الاجنة لا يكون الا في فصل الصيف حيث تكون الشمس الغربية غير مرغوب فيها .

كما يقول الامام أفلح : "وتدفع المضرة في المنازل في ما بين الدور اذا كان من أراد أن يبني ومنع الشمس والقمر وأما الريح فانه يرجع ذلك الى الاهناء" (153).

في الواجهـــات .

لقد اتسمت الحياة الاجتماعية في ميزاب بالابتعاد عن كل تظاهر أو تكبر أو استعلاء، حتى أننا لا نكاد أن نميز بين غني وفقير سواء في المعمارات أو المعمار ومنه واجهات المساكن التي تفتقر لابسط أشكال الزخرفة أو النقوش بل انها لا تعدو أن تكون حيطانا عادية مثقوبة بأبواب المساكن الخشبية وبعض الفتحات الصغيرة الموجودة في الطوابق العلوية .

7) خلاصة واستنتاج : أسس بناء المسكن في ميزاب :

يقول الشيخ اطفيش : "قال صلى الله عليه وسلم : "من بنى بيتا في غير ظلم ولا اعتداء أو غرس غرسا في غير ظلم ولا اعتداء كان أجره جاريا ما انتفع به أحد من خلق الرحمان" (154).

وباعتبار أن الظالم محرم قطعا، حيث يقول تعالى في الحديث القدسي : "يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا". اذن فان أول شرط يجب أن يقوم عليه بناء المسكن هو عدم الظلم، فلا ظلم في اقتناء الارض التي يُبنى عليها المسكن ولا ظلم في استعمال الطرق الموصلة له ولا ظلم عند بنائه بكشف الجار أو احداث الضرر له، ولو كان ذلك من بعيد أو من حيث لا يدري ، من هنا يتبين لنا أن الاساس الذي يتم عليه بناء المسكن في ميزاب هو أساس فكري عقائدي لا شكلي كمي، فالظلم والضرر لا يتوقفان عند شكل أو كم معينين، لذلك كان التوجه أساسا لمنع الظلم والضرر أصلا دون التوقف عند بعض صُوَرِه ، ذلك أنّ "العدل أساس العمران" (155) والظلم انهيار للامم وخراب للبلدان.

كما أن أول مرحلة من بناء المسكن تتم بعد تخطيطه الذي يجب أن تراعي فيه حقوق الجوار والاجوار، ذلك أن للجيرة والمجاورة في الاسلام أهمية كبيرة بحيث أنها تعتبر الركيزة

الاولى في علاقة الفرد و العائلة بالمجتمع، فهي ملاحها صلاح المجتمع ووحدته، وفي فسادها تفككه و انخرام النظام فيه. لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير الاصحاب عند الله خيركم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيركم لجاره"(156) ومن خلال هذه العلاقة التي حددها الاسلام وأكد عليها وألزم بها المؤمنين حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"(157)، نجد العرف و القوانين الضابطة للعمارة في ميزاب تراعي مسألة الجوار، آخذة بها في محاولة جلب المنافع للجيران و اشراكهم فيها بصفة عادلة، ودرء المفاسد التي يمكن أن تعكر صفو هذه العلاقة أو تتسبب في انهيار روابطها.

و اعتمادا كذلك على نوعية هذه العلاقة التي يجب أن تكون بين الاجوار و التي يكون أساسها جلب المنافع ودرء المفاسد، فان القوانين و الاعراف في ميزاب اعتنت حتى بالتخطيط الداخلي للمساكن بحيث أنها تتدخل في هذا التخطيط في كل ما من شأنه أن يتسبب في الضرر لمنعه فيصبح بذلك فضاء المسكن الداخلي وكأنه فضاء عام، اذ لا يتمتع فيه مالكه بالحرية المطلقة في التصرف فيه، نظرا الى أن الاسلام يعتبر المالك الحقيقي للكون كله هو الله وما الانسان الا مستخلف ومتصرف فيه، فمن أحسن أداء الامانة فهو جدير بها ومن أساء التصرف فيها يعتبر سفيها وقاصرا وللمجتمع حينها حق منعه منها باعطائها لمن يستحقها، سواء كان وليا لذلك الشخص أو حتى بانتزاعها منه تماما واسنادها لغيره اذ لا وجود للملكية في الاسلام بالمفهوم الغربي(Droit d'user et d'abuser) وانما هي استخلاف ومسؤولية.

اضافة الى الاسس المعتمدة في بناء المسكن في ميزاب والمذكورة آنفا من الامتناع عن الظلم ودرء المفاسد وجلب المنافع ومراعاة علاقات القرابة و الجيرة و الحرمة وستر الاعراض و الخ... فان المسكن في ميزاب يبنى عادة بالتعاون و التكافل بين أفراد المجتمع، حيث أن كل فرد يبني مسكنه بنفسه، مع الاستعانة بأفراد عائلته أو عشيرته، اذ يقول في ذلك الشيخان باباتو وطلاي أنه يكفي أن يصيح الرجل أمام بيته يطلب المعونة بقوله: "يا مجاهدين!" حتى يهرع اليه الكثير من الناس لاعانته، وهذا ليس غريبا في مجتمع اسلامي تحكمه قيم الاخوة و التكافل و التآزر اذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا و الاخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا و الاخرة و الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه" كما يقول

أيضا : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .»

كما أن المسكن في ميزاب يخضع لأسس أخرى وهي عدم الاسراف والتبذير والابتعاد عن كل كبر أو تظاهر أو استعلاء، فالناس «سواسية كأسنان المشط» والله يقول في كتابه العزيز ان أكرمكم عند الله أتقاكم ولم يقل أغناكم، بل ان الثراء في الاسلام غير محمد حتى أن الصحابة كانوا يخافونه أشد الخوف ذلك أن في كثرة المال مخامة المسؤولية وعسر الحساب وشدته حيث يسأل المرء يوم القيامة عن مصدره وفي ما أنفقه، أي ان كان أدى الرسالة وحفظ الامانة أم لا، يقول الله تعالى: «وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا» . ويقول في هذا الشأن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه :

« أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها »

لذلك نجد الكتابات التي تناولت البناء في ميزاب تشدد على عدم الاسراف والتبذير فيه والاكتفاء بما يحتاجه الانسان، دون تظاهر أو تكثر حتى أننا نجد الشيخ اطفيش يخصص فصلا كاملا في كتابه مختصر العمارات لا يورد فيه الا الاحاديث النبوية التي تناولت هذا الموضوع والتي تعبر بكل صفاء وجلاء عن وجوب التوافق في البناء والاكتفاء بالحاجة، وقد اخترنا منها هذين الحديثين حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن المؤمن يؤجر في نفقته كلها الا شيئا يجعله في التراب» يعني يبني فوق ما يكفيه أو فخرا. ويقول كذلك : «من بنى فوق عشرة أذرع ناداه منادي من السماء يا عدو الله أين تريد» أي ان كان فوق ما يكفيه أو فخرا»(198)

فعلى هذا الاساس وعلى هذا الاساس فقط نستطيع تفسير عدم وجود القصور(199) في ميزاب فرغم القرون العديدة التي واكبت بناء هذه المدن الا أننا نلاحظ تجانسا كبيرا في شكل ومقاييس المساكن القديمة والمتأخرة، كما أنه على هذا الاساس فقط نستطيع تفسير وجود مساكن لا تتجاوز مساحتها الارضية العشرين مترا مربعا في القصر حيث أن طول أحدها ستة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار رغم أنه لم ينتج عن تجزئة أو تقسيم ورثه بل اننا وجدنا مسكنا في الواحة ذا شكل مربع طول ضلعه خمسة أمتار ويحتوي على كل مكونات المسكن الميزابي اذن فرغم وجود المساحة الارضية الكافية للتوسع

في البناء، الا أن صاحبه أبى الا الخضوع للحديث الشريف السابق ذكره من بنى فوق عشرة أذرع...
أما وجود بعض المساكن المتسعة نسبيا والتي تصل المساحة الارضية فيها الى 120م^2 مائة وعشرون م^2 فيرجع ذلك الى حجم العائلة التي كثيرا ما يصل عدد أفرادها العشرين شخصا وربما يتجاوزه.

فالقاعدة الاساسية التي اتبعها الميزابيون في صياغة وبناء عمارتهم اذن، هي قاعدة عدم التبذير أو البناء فوق الحاجة.

٢- استنتاجات (استخراج الاسس والقواعد التي صاغت العمار الباطني لميزاب):

بعد تعرضنا الى تحليل المعمار التاريخي بميزاب وعلاقته بالعمارة الاجتماعية، نقف فيما يلي على بعض الاستنتاجات التي تعكس منهجية انتاج هذا المعمار وطبيعته.

١ - علاقة الانتاج المعماري التاريخي بنظرة المجتمع للكون:

لقد تأثرت العمارة الاجتماعية في المجتمعات الاسلامية، ومن خلالها المجتمع العباسي، في الماضي، بالشريعة الاسلامية، التي تعتبر أن العمارة الصحيحة، العمارة الواجبة، هي التي تخضع للشريعة الاسلامية وللاحكام الاسلامية، حيث أن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع[١٦٥]. كما أن الهدف من هذه العمارة (حسب المنهج الاسلامي للحياة) هو طاعة الله، بل أن الهدف من وجود الانسان ذاته هو عبادة الله الذي يقول: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»[١٦٦]. لذلك فان كل علم يجب أن يخضع لشريعة الله، وكل ارادة يجب أن يكون هدفها هو الله، وكل عمارة يجب أن تكون عبادة لله.

ولكن ما هي القواعد التي يجب أن يرتكز عليها هذا العلم[١٦٧]، وفي أي اطار يمكن أن تكون العمارة بل أى عمارة تعتبر بحق عبادة لله، بها يكون الانسان قد حفظ الامانة وأدى الرسالة؟ يقول تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»[١٦٨]، ويقول أيضا: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»[١٦٩]. وفي هذا الاطار جاءت مختلف الشرائع السماوية لتحدد مجالات استخلاف الانسان وطبيعة ممارساته فيها، واتفقت كلها على خمس كليات وجب الحفاظ عليها، باتباع منهج الشريعة السماوية فيها. وباعتبار أن كل الممارسات الاجتماعية تدخل في اطار هذه الكليات وكذلك باعتبار أن

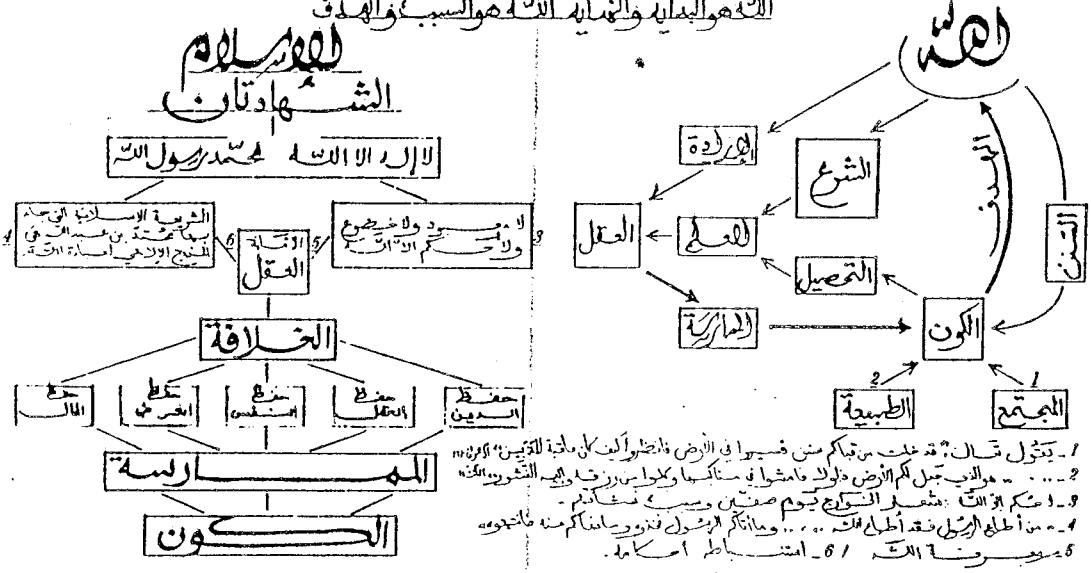
عبادة الله في الأرض

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون

التوحيد

والإلهكم إله واحد

الله هو البداية والنهاية الله هو السبب والهدف



1 - يتوكل قال: "قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين" الآية
2 - ... هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور" الآية
3 - إنكم إن الله يشعر السموات يوم صفين وسبب نشأتهم
4 - من أطاع الرسول فقد أطاع الله ... وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا
5 - معرفة الله 6 - استنباط أحكامه

المعمار جانب من فعل الانسان وممارسته، فان صياغته ستتأثر بفلسفة الحفاظ على هذه الكليات وذلك حسب منهج التشريع الالاهي الذي جاءت به الرسالات السماوية (٨٤٥).

وفي هذا الاطار، نجد المعمار التاريخي لوادي ميزاب يعكس هذه النظرة لدور الانسان في الكون ولطبيعة ممارساته فيه.

وتتمثل هذه الكليات بالترتيب التفاضلي في :

- حفظ الدين ، حفظ العقل ، حفظ النفس ، حفظ العرض وحفظ المال .

2- تأثر الانتاج المعماري التاريخي بكليات العقيدة.

أ) حفظ الدين :

عمل الميزابيون على حفظ دينهم عبر:

- اختيارهم لموقع تمركزهم وبناء قصورهم.
- تقسيم الاراضي في القصر الذي روعيت فيه خصوصية التركيبة الاجتماعية نحو توحيد المجتمع على أساس وحدة الدين و العقيدة.
- الهيكلة العمرانية للقصر، من خلال موقع المسجد الذي يحتل وسطه و المكان المرتفع فيه و المحدد لتخطيط طرقه ومسالكه، كانعكاس لمكانة الدين ودوره في حياة المجتمع.
- نمو القصر، بالحفاظ على وحدة المسجد ومكانته الاولى، وما يمثل ذلك من وحدة للكلمة و التسيير و المراقبة.
- المساكن و المنافع التي صيغت بطريقة روعيت فيها القيم و المبادىء الاسلامية، على مستوى البناء و الوظيفة و النسب و المقاييس و السلوك الاجتماعي الذي يتبعها.

وكان الوازع في هذا كله الحفاظ على الدين وتطبيق مبادئه، حيث منع الضرر و الضرار و التطاول في البنيان و التبذير و الاستعلاء...

ب) حفظ العقل :

وذلك عبر :

- تركيز المدارس و المحاضر لتعليم النشأ وتنمية ملكات العقل، باعتبار أن في العلم "حياة القلوب

ومصابيح الابصار وقوة الابدان". (166)

- عدم احداث أماكن للهو أو لما من شأنه أن يشغل الانسان عن طلب العلم (167).

ج) حفظ النفس :

وذلك عبر:

- اختيار موقع بناء القصر الذي يكون على قمم الهضاب للابتعاد عن خطر مياه الوديان، والاحتكام مراقبة الأعداء عند التعرض للهجوم.
- الهيكلة العمرانية للقصر، من خلال طبيعة تخطيط الطرق والمسالك فيه، وموقع المسجد الذي يمثل مخزن الاسلحة والمؤونة وحصن المدينة الاخير.
- نمو القصر الذي روعيت فيه المسألة الصحية، حيث كان امتداده من ناحية القبلة (جنوبي - شرقي) التي تتوفر فيها الشمس والهواء النقي، وما يمثل ذلك من حفظ للابدان والانفس من الامراض والعلل كما روعيت في النمو الشوارع الطبيعية بما لا يهدد الانفس بالهلاك، كالابتعاد عن مجاري الاودية...
- الاماكن التي روعيت في صياغة فضاءاتها وهيكلتها ومواد بنائها، المسألة الصحية والمناخية، حيث كانت متأقلمة ومتلائمة مع محيطها الطبيعي والمناخي بشكل يدفع عوارض الطقس المختلفة من مكانها (حرارة شديدة في الصيف وبرودة شديدة في الشتاء الخ...).

كما خصصت فضاءات لتخزن المؤونة، كانت في كثير من الاحيان، وخاصة زمن الشدة والقحط سند العائلة المعاشي وملجأها.

- المنافع التي تتمثل وظيفة الكثير منها في الدور الدفاعي بما يحفظ المجتمع من الاعداء، وذلك كالابراج والاسوار والابواب.. مع أن الدور الدفاعي لا يقتصر على هذه المنافع، بل يتعداها الى كل العناصر التي سبق شرحها آنفا، كاختيار موقع بناء القصر والهيكلة العمرانية للقصر...

د) حفظ العرض :

ان مسألة حفظ العرض هي مسألة هامة في المجتمع الاسلامي، اذ هي كلية من كليات الدين ومجال من مجالات استخلاف الانسان في هذا الكون، لذلك كان الاختلاط بالمحارم أمرا مرفوضا في المجتمع الميزابي الذي حرص وتشدد في الحفاظ على الاعراض والذي انعكس على العمارة في :

- اختيار موقع بناء القصر الذي أخذ فيه بعين الاعتبار العامل الدفاعي من أجل حماية الانفس والاعراض

- الهيكلة العمرانية للقصر ونموه، فمن حيث الهيكلة، فقد قسم القصر الى مجالين، (مجال نسائي ومجال رجالي) تتبع كل منهما ممارسات خاصة محددة ومقننة. أما عن حيث النمو، فقد وقع الاحتفاظ بالهيكلة الاصلية للقصر على أساس هذا التقسيم، مع ما يتبع ذلك من التغييرات اللازمة في مواضع بعض المنافع.

- الطرق والمسالك، التي وقع تقسيمها حسب المنافع بحيث تكون الطرق الرئيسية والتي تؤدي الى السوق مثلا، قليلة الاستعمال من طرف النساء، حتى لا يقابلن فيها الرجال، كما جعلت مسالك خاصة بالنساء تسهل عليهن عبور المدينة بدون المرور عبر السوق.

- المنافع التي خصص حلها للرجال دون النساء، بينما صبغ ما كان منها مشتركا بشكل يفصل المجال النسائي عن المجال الرجالي فصلا تاما.

- المساكن التي تمثل مجال المرأة الخاص والتي روعيت في هيكلتها وصياغة فضاءاتها مسألة حرمة العائلة، والفصل بين المجال النسائي والمجال الرجالي.

هـ) **حفظ المال :**

يعتبر حفظ المال من المبادىء الاسلامية الاساسية. يقول تعالى: « وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » (168). فعدم التبذير اذن يظهر جليا في معمار الميزابيين عبر:

- عدم التطاول في البنيان.
- الاقتصار على مواد البناء اللازمة والضرورية.
- الاقتصار على الفضاءات الضرورية مع توظيفها بأشكال متعددة وفي أوقات مختلفة.
- استعمال مقاييس ونسب بحسب الحاجة والضرورة.

ملاحظة :

تجدر الاشارة الى وجود تداخل وترابط وثيق بين هذه الكليات الخمس ومسألة الاستخلاف فيها بحيث لا يمكن القيام باحداها بدون القيام بالبقية. وما فصلنا اياها وتناولنا لها واحدة بعد أخرى الا لغاية دراسية تحليلية، حتى يسهل علينا فهم مدى انعكاسها على المعمار بوضوح أكثر.

3- لجـــوء المجتمع في انتاجه المعماري الى هياكل تفريغ وتسيير.

يمثل المجتمع مجموعة أفراد يعيشون في اطار مجموعة من الاحتياجات وتحت ظل سلسلـــة من الافكار و المعتقدات و الاهداف (169).

وباعتبار ان الاسلام أراد من المجتمع أن يكون كتلة واحدة ، متجانسة ، منسجمة في الفكر و الشعور و الارادة و الاهداف و التطلعات ليصبح كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى، فقد سعى الى توحيد المشاعر ورسم الاهداف و الطموحات و التطلعات الموحـــدة ، فكان من الضروري رسم مناهج الحياة وطبيعة العلاقات و الممارسات الفردية و الجماعية في المجتمع وبالتالي تقنينها على كافة مستوياتها وفي أدق حالاتها حتى لا تختلط الامور لدى الافراد. وفـــي هذا الاطار كانت مجالس العزابة في ميزابه كأطر "تشريع" تفع القوانين المستنبطة من الشريعـــة الاسلامية حسب المذهب الاباضي، وتسهر على مراقبة تطبيقها في جميع المجالات الحياتية ، وفي أدق العلاقات و الممارسات فنجدها تحدد وتوجد حتى قيمة المهر و أبسط الهدايا في الزواج كما وكيفا. وفيما يخص المعمار فقد عينت له مجموعة من الاضناء تقوم بتنفيذ ما يتعلق به من قوانين وفـــض الخلافات أو النزاعات المتعلقة به و التي يمكن أن تحدث بين المتساكنين.

4- الانتـــاج المعماري التاريخي مهمة جماعيـــة.

ان القوانين و التشريعات التي تخص المعمار و التي أبى المجتمع الميزابي الا الاتفاق عليها وتحديدها رغم تعلقها بالافراد ، يقع تنفيذها بكل جدية وصرامة و العقاب على تجاوزهـــا وذلك خوفا من أن يقع هذا التجاوز فتحاسب كل الامـــة على أعمال أفرادها حيث أن الاسلام يعتبرها مسؤولة عن هذه الافعال ومشاركة فيها بمجرد السكوت عنها. وفي هذا الاطار يأتي الامر بالمعرف و النهي عن المنكر كفريضة عين وجب على المجتمـــع بكل أفراده القيام بها.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتأمرن بالمعرف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يعمكم بعقاب".

ولضمان تطبيق هذه القوانين جاءت مسألة الولاية و البراءة في المجتمع الميزابي،بحيث

يخرج كل عام ، كل متردد عن القوانين و التشريعات التي تحكم هذا المجتمع، عن دائرة الفعـــل و العلاقات فيه حتى يعلن توبته وندمه لينصهر من جديد في هذه الامة . يقول تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ" (170)

فبهذه الطريقة تحققت وحدة الامة في الاسلام وبهذه الطريقة تحققت وحدة المجتمع في ميزاب .

لكن الحياة الفردية و الفطرة الفردية و المكتسبات الفردية من الطبيعة لا تذوب بأجمعها في الحياة الاجتماعية و ان كان الافراد بموجب هذه النظرية (أصالة المجتمع) (180) يفقدون هويتهم الفردية المستقلة في الاطار الاجتماعي ولو بشكل نسبي (181)، و انعكاس ذلك على العمارة يظهر في أن معمار وادي ميزاب ورغم أنه يمثل وحدة وكتلة متجانسة العناصر و المكونات بحيث تـــرى تكافؤا وتشابها بين كل المساكن بل بين مختلف المنشآت و المرافق، من المسكن الى المسجـــد، تعبير يصدق عن وحدة الهدف، ووحدة المجتمع، الا أن في هذه الوحدة ثراء كبيرا في تعدد الاشكـال و المناظر بحيث أن كل مسكن، كل بناء بل كل مجال وكل فضاء يمثل وحدة متماسكة ومنسجمة لا تتكرر في بناء أو مكان آخر باعتبار أنها لم تكن خاضعة لقوالب جامدة في النمط أو الشكل بل انهـــا كانت استجابة واعية للحاجيات و الضرورات التي أملتها و انعكاسا فطريا لفكر من صاغها و انسجاما مع محيطها الجغرافي و المناخي، يقول رافرو (A Ravereau)

" La communauté a défini un même abrit pour tous ; ni palais, ni gourbi : c'était la dignité pour chacun ; celle du sage et celle du simple . Cette simplicité n'est pas pénurie " (182)

من هنا يتضح لنا أن المعمار التاريخي في وادي ميزاب كان ثمرة المجتمع بمختلـف عناصره، من هياكل تشريع وتنفيذ، وبنائين ومستهلكين في تكامل و انسجام .

استجابة المعمار التاريخي لحاجيات السكان ببساطة، دون تعقيد أو اخلال بالضرورات .

لقد كان المعمار التاريخي في ميزاب استجابة حقيقية لحاجيات المجتمع الفطريـــة و انعكاسا مباشرا لنمط حياته وطبيعة نشاطاته وبالتالي ممارساته عموما، ذلك أنه كان يحدد في صياغته بالحاجة، و الحاجة فقط دون أن يخل بها أو يكون مقصرا في الاستجابة لها، وذلك ضمـــن منظومة المجتمع الفكرية و اطاره الطبيعي .

لذلك فاننا لا نكاد نجد جزئية في هذا المعمار لا تؤدي وظيفة معينة أو ترمز الى هدف مـــا .

3- عوامل التحول في ميزان مؤشراته

١- مدخل نظري

٢- مرحلة ما قبل الاستعمار

٣- مرحلة الاستعمار

٤- مرحلة ما بعد الاستقلال

3- عوامل التحول في ميزان القرآن

1- مدخل نظري:

ان سمة التحرك وعدم السكون هي طبيعة كل المخلوقات وهي سنة من سنن الله في الكون[183] فكل مخلوق جمادا كان أو نباتا أو كائنا حيا يخضع لهذه السنة وهو في تحرك دائم وتطور لا يتوقف سواء كان ذلك بالجبر كالجماد[184] والنبات والحيوان[185] أو بالاختيار كالانسان الذي يتحرك ضمن هذه المنظومة لكن بارادته وقدرته التي تمثل أمانة الله عنده. يقول تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»[186] وهو بارادته وقدرته هذه يساهم لا فقط في تحريك ما حوله وتوظيفه، خاصة وأن الله تعالى قد جعل كل المخلوقات مسخرة لهذا العقل، لهذا الانسان[187]، بل وكذلك في تحريك وتطوير نفسه وذاته[188] باعتباره عنصرا من هذه العناصر المكونة لخلق الله والخاضعة لسنة التحرك[189]. اذن فطبيعة التحرك والتطور[190] في الانسان صفة لم يصنعها لذاته بل اكسبه اياها ربه وهو غير قادر على تعطيلها ولكنه هو الذي يختار طبيعة التحرك ومساره وهدفه فيصنع ويصيغ نمط سلوكه ومنهاج حياته، ومن خلال هذا الاختيار سيلقى نجاحا أو فشلا في الدنيا وسيجازى في الآخرة.

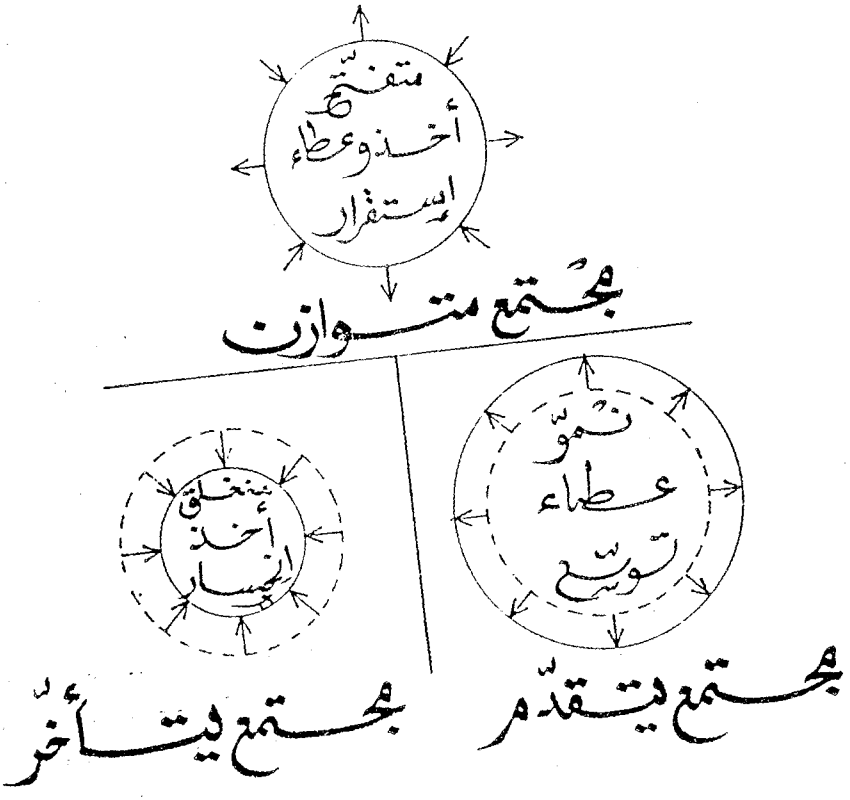
يقول تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ»[191].

اذن فلا يمكن للانسان أن يحاول التوقف عند حالة معينة أو وضع ما لأن صفتي التحرك والسكون مستحيلتين والحقيقة أن محاولة توقفه هذه لا تعني الا التأخر والتقهقر مع أن التقدم والسمو هما واجبا الانسان. يقول تعالى: «يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والارض فانفذوا، لا تنفذون الا بسلطان».[192]

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو تعلقت همة المرء بما وراء العرش لناله». لكن «الناس عادة لا يقبلون التغيير وترك القديم الا اذا ظهرت لهم منافع ومحاسن الجديد وامتيازه على القديم وهذا يبدو بوضوح في العناصر المادية في الثقافة أكثر بكثير منه في العناصر المعنوية[193] لان العناصر المادية محسوسة وملموسة. فليس من الصعب مثلا أن يدرك الناس أن السيف أشد فتكا من العصا،... وأن قطع المسافة بالسيارة اسرع وأكثر توفيرا للراحة من قطعها على

ظهور الحمير أو الجمال مثلا وان استعمال البوتاغاز في الطهو أنظف وأسرع وأسهل من استعمال موقد الكيروسين... الخ... أما بالنسبة للعناصر المعنوية وتغيّرها فالامر عكس ذلك اذ أن الملاحظ والثابت أنهم (أي الناس) يقاومون هذا التغيير ويعارضونه معارضة شديدة. والدليل على هذا الصعوبات التي اعترضت الانبياء عندما جاؤوا بأديان أسمى من الاديان التي وجدت قبل نزول الرسالة عليهم" (194) لكن ما يغيب على هؤلاء الناس أو هذه المجتمعات هو أن هذه العناصر المادية هي عناصر ثقافية وليست عناصر مستقلة عن الذوق والفكر... بل هي انعكاس لها وتبني هذه العناصر دون تنقيتها ثم تكييفها يعني ابتلاع غذاء ثقافي جديد وخارجي سيعمل أولا على فصل الذات المادية للمجتمع عن ذاته المعنوية لينشأ الخلل ثم القطيعة فالصراع أو الصدام حيث النتيجة التي تكون عادة لصالح ثقافة العناصر المادية الدخيلة التي أصبحت عناصر حياتية للمجتمع يخيل اليه أنه لا يستطيع الاستغناء عنها وانها اصبحت من الحاجيات والضرورات الحياتية له فيتم بذلك انهيار هذا المجتمع في قيمه وثقافته وبالتالي حضارته لينصهر في الثقافة الغازية، الثقافة التي زودته بهذه العناصر المادية. يقول مالك بن نبي "يفقد مجتمع ما شخصيته ويمحى من التاريخ... فيصبح أفراده مجرد انقاض لمجتمع يأشده انقاض مهيأة أن تدخل في بناء جسد اجتماعي جديد" (195).

والنتاج المعماري الذي يمثل مجال حياة الانسان وفضاء ممارسته، والذي تمثل كذلك انعكاسا لعقيدته وفكره وحاجته، كان في المجتمعات الاسلامية وفي ميزاب كمجتمع صغير ضمن هذه المجتمعات أستجابة لحاجياته الفطرية ومجالا نلمس فيه روح هذا المجتمع ومنهاج عبادته لله فكل الفضاءات كل الاجسام، كل الفراغات أو جلها داخلية كانت أم خارجية، جسما أم شكلا أم مظهرا أم لونا تعبر بصدق عن المنهج العبادي لهذا المجتمع وذلك قبل أن يصاب بالتوقف عن البحث والعطاء والابداع مكتفيا بتكرار ذلك النمط والرصيد من النتاج المعماري والتعميري خاصة وأن حاجياته لم تشهد تطورا كبيرا على مدى قرون عديدة وباعتبار كذلك تناسبه للبعد الزمني الذي لا يتوقف والذي يحمل في طياته عطاء انسانيا جديدا وضخما، وذلك نتيجة عزلته الذاتية وعدم احتكاكه بصفة مباشرة (196) بمن حوله من المجتمعات والحضارات فنا منه أنه بذلك يحافظ على قيمه الفكرية والعقائدية وعلى أصالة ثقافته فقرط بذلك في الكثير من المكاسب والخبرات الانسانية التي كان يمكنه اخضاعها للفكره وحاجياته، حتى وجد نفسه أمام تحد الثقافة المادية العالمية التي غزته وواجهته على كثير من المستويات (197) وفي وقت لم يستطع فيه أن يميز بين ما هو صالح له وما لا يصلح له مما أدخل عليه


متفتح
أخذ وعطاء
استقرار
مجتمع متوازن
نمو
عطاء
توسع
مجتمع يتقدم
منغلق
أخذ
انحسار
مجتمع يتأخر

تحولات عديدة في بنيته المادية و الفكرية وبالتالي في ممارسته الاجتماعية الشيء الذي انعكس على انتاجه المعماري الحديث .

٢. مرحلة ما قبل الاستعمار :

١) مرحلة العزلة : من القرن العاشر الى القرن الرابع عشر

كما سبق و أشرنا اليه في سبب اختيار الاباضية منطقة و ادي ميزاب للاستقرار، فان الهدف الاول من ذلك كان الحفاظ على مذهبهم وعقيدتهم التي خافوا عليها من الضياع و الذوبان، اذ وجدوا في هذه المنطقة النائية و البعيدة عن طريق القوافل ومواطن العمران، بل التي لم تتوفر فيها حتى مرافق الحياة العادية التي يمكن أن تجلب اليها الانظار، خير مكان للاحتماء به حيث يمكن لهم تطبيق مبادئهم وتنظيم حياتهم الاجتماعية دون أي تدخل أو تهديد خارجي من أي سلطة مركزية أو اقليمية .

اذن فتميز الفترة الاولى من حياة الميزابيين، و التي امتدت قرونا عديدة بالعزلة شبه التامة عن الخارج وفر لهم استقلالا سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا تاما بحيث تمكنوا من التطبيق الجدي و الصارم للمبادئ الاباضية بفضل تنظيمهم السياسي و الاجتماعي المحكم، وروح التنافس والانضباط الجماعية التي مكنتهم لا فقط من الحفاظ على هذه المبادئ و القيم ولكن وكذلك من الوقوف أمام العوامل الطبيعية القاسية من أجل البقاء بايجاد مساحات فلاحية استطاعت أن توفر لهم حاجتهم المعاشية الضرورية والاكيدة طيلة هذه القرون الطويلة .

الا أن هذا المجتمع تعرض لازمات اقتصادية أو بالاحرى معاشية حياتية متتالية حيث أن الواحة التي تنحصر في بعض مساحات قليلة بين الهضاب و التي يتم العمل فيها بوسائل جد بدائية و التي تمثل أيضا موزد الرزق الوحيد للسكان، كانت كثيرا ما تتعرض لحالات من الجفاف و الكوارث الطبيعية الاخرى التي تذهب بالمحصول وحتى بالاشجار و الاراضي ذاتها (عندما يكون الوادي عنيفا وتكون الرياح الرملية قوية). ونظرا الى طموح الانسان الفطري في الامان و الاستقرار فقد اصبح الميزابيون يبحثون عن موزد رزق آخر خارج هذه الواحة بل حتى خارج المنطقة أصلا

2) مرحلة الانفتاح : من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر

يقول الدكتور ابراهيم بن يوسف أنه " بعد أن حدد المنزابيون وسائل مقاومتهم ودفاعهم[198] قرروا الانفتاح على الخارج و تنمية اقتصادهم حيث بدأت موجة الهجرة الى التل[199] في نفس الوقت الذي تنمو فيه المبادلات التجارية ، وحسب بعض المؤرخين فانه ترجع بداية تواجد الميزابيين في الجزائر (العاصمة) الى بداية القرن الرابع عشر للميلاد حتى أنهم أصبحوا يمثلون قطبا تجاريا وقوة اقتصادية في كل مدن افريقيا الشمالية في العهد التركي "[200].

لكن التجارة لا تعدو أن تكون وسيلة للعيش اضطر إليها الميزابيون للاسباب التي سبق شرحها ولأجل الحفاظ على أنفسهم وبالتالي عقيدتهم ومذهبهم يقول الشاعر الاباضي أحمد بن النصر العماني :

" ما في التجارة لي هم ولا أرب اذ ليس يزكوا بها دين ولا حسب "[201]

اذن فرغم أن الميزابيين مارسوا التجارة منذ القرن الرابع عشر،ورغم أنهم لاقوا نجاحا كبيرا في السيطرة على التجارة في مختلف مدن شمال افريقيا مما وفر لهم أموالا كثيرة ، الا أن هذه الاموال لم تكن لتصرف في التبذير أو الرفاهة بل انها لم تكن تصرف خارج ميزاب الا بما يحتاجه العاملون خلال مدة اقامتهم ، ذلك أن الميزابيين ممنوعين عقائديا و اجتماعيا من الاستقرار خارج ميزاب[202] لذلك كانت هذه الاموال توظف في تنمية المدن، و الواحات بتهيئتها وحفر آبار جديدة فيها و اقامة وتجديد سدود الاودية و احياء أراض جديدة ... مما دفع بالفلاحة أشواطا كبيرة الى الامام حتى أن المهندس الفرنسي فيلن Felen يقول في كتابه الذي أصدره سنة 1908: "أن عدد الابار التي يتراوح عمقها بين 25 و 60 مترا يتجاوز الاربعة آلاف ومائة ، أما اشجار النخيل فكانت نحو 170 ألفا "[203].

اذن فقد كان لاهتمام الميزابيين بأرضهم وحرصهم على تنمية فلاحتهم الناتج عن غيرتهم على عقيدتهم وبالتالي وطنهم ميزاب أهمية كبيرة في حفظ هذه الواحات لمدة قرون عديدة رغم

صعوبة المناخ الذى اقتضى منهم توزيعا دقيقا لمياه الاودية وبحثا لا يتوقف عن المياه الجوفية. حتى أن التجارة في الشمال كانت تقوم بالتداول بين أفراد العائلة حيث يذهب البعض الى الشمال لمدة تحدد عادة بستة أشهر في حين يبقى البعض الاخر للعمل في أراضي العائلة وفلاحتها.

"وشيئا فشيئا أصبحت غرداية و القرى المجاورة لها مراكز عمرانية هامة حيث وجد فيها نوع من التركيز الاقتصادى المتمثل في الزراعة و التجارة وبعض الحرف"(204) بل ان غرداية التي تمثل بوابة الوادى، أصبحت محطة تجارية هامة في الصحراء تقصدها القوافل النازلة من الشمال أو الصاعدة من الجنوب مما أغرى القبائل المجاورة للمنطقة، من الرحل، أو المستقرة في بعض المواقع المشتتة في الصحراء للالتفاف بهذه المدن و التجمع حولها خاصة عند سعي بعض العشائر الميزابية الى تقوية نفسها بالتحالف مع هذه القبائل مثل المذابيح و الشعانبة...

وقد ذهب انفتاح المجتمع الميزابي الاباضي الذى كان منطويا على نفسه مدة قرون عديدة الى أبعد من استقطاب و استمالة القبائل و العروش المالكية السابقة الذكر وذلك بقبول جالية من اليهود جاءت من جربة في القرن الرابع عشر لتستقر في المنطقة الجنوبية الشرقية من غرداية متخذة من الجانب الخارجي للقصر و الملتصق بالسور مجالها الخاص الذى اختلطت فيه الوظائف السكنية و الحرفية و التجارية.

ان انفتاح المجتمع الميزابي على الخارج تواصل بعد ذلك بأشكال عديدة على المستوى الاجتماعي و الاقتصادى الا أنه كان انفتاحا مدروسا ومراقبا باعتباره ذاتي ونابع من أرادة المجتمع نفسه وباعتباره كذلك دافع لادات السلطة السياسية المحلية التي لم تكن تسمح البتة باحداث تحولات أو حتى تغيير هام في تركيبة المجتمع أو نمط حياته وسلوكه مما جعل درجة التحول بسيطة جدا حتى انها لا تكاد تذكر.

يقول الدكتور ابراهيم بوسف:

" Après l'isolement et le repli ; c'est l'ouverture mais une ouverture qui préserve fortement l'originalité". (205)

واضافة الى المراقبة الصارمة والحازمة لممارسة المجتمع ولمدى تطبيقه للقوانين و الاتفاقات

المختلفة و المنظمة لمختلف مجالات حياته في ميزاب[20]، فان لهذه الهياكل السياسية الاجتماعية امتدادا لسلطتها خارج ميزاب حيث أوجدت مؤسسات اجتماعية ودينية في الهجرة وفي كل مكان يمكن أن يتواجد فيه الميزابيون بعدد يتجاوز العشرة أفراد فأوجدت الدور الخاصة التي تستقبلهم و المساجد الخاصة وحتى بعض المقابر الخاصة (مع انه من المحبذ أن يدفن الميزابي في ميزاب)،بل ان المؤسسة الاقتصادية الميزابية هي ذاتها مؤسسة اجتماعية باعتبارها وحدة اقتصادية عائلية حيث أن الفرد فيها سواء كان أبا أو ابنا أو أخا يجد نفسه مراقَبًا بنفس القدر الذي يجد فيه التكافل و التآزر مما يجعله مقيدا وحصينا في آن واحد .

اذن لقد تميزت المرحلة الاولى بتناسق كبير بين ممارسات المجتمع وفكره ونتاجه المادي مكونة بذلك اطارا مغلقا متكاملا ومنفصلا عن أية تأثيرات خارجية يمكن أن تتسبب له في خلل في هيكلته أو تحويرا في العلاقة بين مختلف عناصره، ودرجة تأثير كل منها على الاخر. لذلك كان الانسجام بين هذه العناصر طبيعيا ودون عناء. كما تميزت هذه المرحلة بتكافؤ وتجانس بين مختلف عناصر المجتمع بامتلاك أفراده وجماعاته لنفس المستوى المعرفي و التجريبي، وخضوعهم لنفس السلطات المعنوية والاجتماعية، و امتلاكهم لنفس الامكانيات المادية و المعاشية وممارستهم لنفس النشاطات الاقتصادية و الحياتية، لذلك فقد تميزت ممارسات المجتمع في هذه المرحلة بكونها:

- فطرية اعتمدت على الحاجة الحياتية المباشرة .
- مصبوغة بمنهج المجتمع الفكري و العقائدي.
- واحدة، موحدة ومتماثلة بين مختلف افراد المجتمع وجماعاته مما انعكس على معمارهم الذي كان يمتاز بكونه :
- بسيطا وغير معقد (دون أن يكون مبتذلا) يستجيب للحاجيات الحياتية المباشرة .
- متأثرا بمنهج المجتمع الفكري و العقائدي.
- متناسقا، متكاملا ومتشابها.

أما المرحلة الثانية، فقد شهدت دخول عناصر عدّة على النسق الحياتي و النمط المعاشي للمجتمع الذي وجد نفسه في علاقة مفتوحة موسعة ومباشرة مع مجتمعات أخرى حاملة أفكار وأنماط حياة مغايرة، ومتميزة بممارسات وسلوكيات متنوعة ومختلفة، كما أصبح الكثير من أفراد المجتمع

الميزابي وجماعاته يمارسون نمطا اقتصاديا حديثا ومختلفا عما كان عليه في السابق مما أدخل تغييرا في وسائل الانتاج وطبيعته، وأخيرا فان هذه المرحلة شهدت بروز تنوع وتفاوت بين فئات المجتمع، بين من أمكن لهم العمل بالتجارة ومن لم يمكن لهم ذلك وقد تجلى هذا التنوع والتفاوت في القدرات المادية والامكانيات المعرفية والتجريبية ...كما أن النمط الاقتصادي الحديث وما صحبه من قدرات مادية، مكنا المجتمع من وسائل تقنية حديثة (آلات للاحة ...) وأدخل صنائع وحرف تتناسب مع هذا النمط وتساعد على تنميته.

اذن فالاحتكاك بالغير لا يمكن أن يمر دون تأثير وتأثر، وادخال نمط اقتصادي حديث وامكانيات مادية مغايرة لا يمكن الا أن يعمل على تغيير نمط الحياة وطبيعة العلاقات والممارسات ونوعية الحاجيات بل ومنهج التفكير ذاته وأخيرا فان ادخال آلات وتقنيات ووسائل انتاج حديثة لا يمكن الا أن ينتج نوعية أخرى من المجتمع [٤٥].

الا أن هذه المرحلة الثانية، وكما سبق وقدمناه في البداية لم تشهد تحولا أو تطورا هاما في نمط حياة المجتمع وطبيعة ممارساته ذلك أن الهياكل والمؤسسات الاجتماعية المتمتعة بسلطة ونفوذ قوبين تمكنت من الوقوف ضد أي تغيير يمكن أن يحدث في المجتمع ويؤثر في بنيته الفكرية أو المادية، حيث كانت القوانين وأساليب المراقبة دقيقة وفعالة بحيث جمدت نمط حياة المجتمع وطبيعة ممارساته مدة قرون عديدة، الا أن المجتمع اصبح يحمل في رحمه مؤشرات التحول، بل ان جنين هذا التحول أخذ في النمو بشكل يسمح له بالولادة بمجرد انتفاء أسباب الاعاقة والمنع المتمثلة في هذه الهياكل أو حتى تقليص سلطتها ونفوذها وبالتالي دورها وفاعليتها، وهذا ما وقع بالفعل بمجرد دخول المستعمر.

خلاصة :

يمكن أن نجزأ مرحلة ما قبل الاستعمار الى جزئين .

1) – ما قبل القرن الرابع عشر

2) – ما بعد القرن الرابع عشر.

ففي حين تميزت المرحلة الاولى بـ :

- انطواء على الذات وعزلة شبه كلية بغياب العلاقات الخارجية .
- اعتماد المجتمع على الفكر الاباضي المستنبط من الشريعة الاسلامية وذلك في كل مجالات حياته المادية و المعنوية وبصفة فطرية وتلقائية .
- ارتكاز الاقتصاد في هذا المجتمع على الفلاحة البدائية التي لا تكاد تتجاوز في كثير من الاحيان الحاجة الضرورية و الحياتية .
- تجانس وتكافؤ بين مختلف عناصر المجتمع، افراده وجماعاته .

فقد تميزت المرحلة الثانية بـ :

- انفتاح المجتمع الميزابي على الخارج و احتكاكه بمجتمعات ومجموعات مختلفة وصغيرة فكرا وممارسة وسلوكا .
- تواصل اعتماد المجتمع الميزابي على الفكر الاباضي في صياغة مناهج حياته وطبيعة ممارساته بفضل المراقبة الدقيقة و التوجيه الصارم الذي قامت به المؤسسات و الهياكل الاجتماعية .
- تطور النمط الاقتصادي ووسائل الانتاج كما وكيفا .
- تنوع وتفاوت بين مختلف عناصر المجتمع أفراده وجماعاته وذلك على المستوى المادي و المعنوي .

٢. مرحلة الاستعمار :

ان المرحلة السابقة التي دامت بضعة قرون لم تكن لتتواصل كثيرا بعد دخول المستعمر الفرنسي الجزائر، وخاصة بعد أن تمكن من السيطرة على الجبال و الصحراء باخماد كل الثورات و القضاء عليها، فأمكن له حينها نقض المعاهدات و الاتفاقيات التي أبرمها مع بعض الجهات أو القبائل و العروش الكبيرة ليلحقها هي الاخرى بمجال سيطرته ونفوذه، وذلك بعد نجاح خطته الاستعمارية في تجميد هذه القوى لمدة كافية أمكنه فيها التفرغ لبقية المناطق التي شهدت اضطرابات كبيرة، فتم في هذا الاطار نقض الاتفاقية التي أبرمها الجنرال الكونت دي راندون مع الميزابيين سنة 1852 (208) في الاغواط بعد احتلاله و التي يقول فيها :

" Il ne saurait être question d'un traité de commerce entre nous et vous, mais bien nettement de votre soumission à la France. En dehors de cette pensée, il ne peut y

avoir aucun arrangement . Vos ressources de toutes espèces vous étant connues, chaque Ville ne paiera son tribu que suivant ses moyens ... Nous ne nous occuperons de vos actes que lorsqu'ils intéresseront la tranquilité générale et les droits de nos nationaux, ainsi que celui des tribus soumises ... "(209)

"وذلك سنة 1882 حيث تم اخضاع ميزاب بصفة رسمية يوم 17 - 11 - 1882 بأمر من الحاكم العام الفرنسي تيرمان (210) بتعلة الاضطرابات العديدة و المراعات المتتالية التي حدثت في ميزاب بين الشق المساند للاتفاقية و الشق المعارض لها.

لقد انقسم الرأي العام الميزابي سنة 1852 حول طريقة التعامل مع المستعمر الفرنسي، خاصة بعد أن تم احتلال ولاية الاغواط التي لا تبعد كثيرا عن ميزاب. ففي حين رأى شقّ من الميزابيين أنهم في حالة دفاع وجب فيها اعلان الجهاد المقدس ضد المستعمر مهما كانت موازين القوى، معيدين بذلك تاريخهم المليء بالجهاد و الثورة ضد الظلم و الطغيان حيث أن أبا بلال الخارجي لم يكن ليتأخر عن جهاد معسكر اللفي جندي وهو في أربعين من أصحابه ليغلبهم بإذن الله الذي وعد عباده المؤمنين المخلصين بالنصر، معتمدين حسب معتقدهم على قوله تعالى: "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ" (211)، وقوله أيضا: "إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (212)، رأى الشق الاخر أنهم في حالة كتمان وجب فيها الابتعاد عن أية مواجهة مع قوة الغازي التي يعتبرونها قوة الظلم التي لا يمكن الوقوف أمامها بأي حال من الاحوال، باعتبار الاختلاف الكبير بين موازين القوى و اعتمادا على قوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ (213) وفي ذلك حفظ للدين و النفس و الاعراض و الاموال، ورأى أنه وجب في هذه الحالة ، ومع الابتعاد عن مساعدة الظالمين، ضمان استقلالهم الداخلي في تطبيق مبادئ عقيدتهم و أحكامها لانه بدون ذلك لا يعتبر المجتمع مؤمنا و موحدا .

ومثال هذا الموقف نجده في الرسالة الشافية منسوبا للشيخ اطفيش حيث "طلب منهم الرفق بأهل التوحيد بأن يسقط خراجهم أو ينقص منه وأن يلزموهم الحكم بالعدل ويهددوهم على الجور وأن لا يفسدوا أنكحتهم وأن يخلوا بينهم وبين من أرادوا ضربه على الخمر و الفسق ،وأن

لا يعطلوهم عن الحج وان لم يسمحوا بذلك لأهل التوحيد كلهم فليفعلوه للميزابيين..." (214).

اذن فقد تعرض المجتمع الميزابي منذ سنة 1882 لا فقط الى انفتاح قسري لم تراعي فيه خصوصياته الثقافية، بل عمد المستعمر الفرنسي الى اخضاعه لسلطته السياسية ونمطه الاقتصادي ومنهجه الفكري بالعمل على تدمير كل ما من شأنه أن يضمن له استقلاليته، خاصة بتقليص دور الهياكل السياسية الاجتماعية المحلية، التي تمثل العمود الفقري في هذا المجتمع وعزلها عن أي فعل أو تأثير هام فاصبحت "تتميز بأن سلطتها تشريعية أكثر مما هي تنفيذية وخاصة ابتداء من 1882 وذلك عندما انتزع منها الاستعمار السلطة القضائية وقام بتحديد صلاحيتها." (215). مما أدخل عليه تحولات عميقة على كافة المستوياته يذكرها جورج مرساى في كتابة الذى صدر سنة 1937 بقوله :

" Les transformations matérielles frappent le voyageur le moin averti ; par suite du contraste que présentent les régions où s'éxerce pleinement l'activité européenne et celle qui lui échappe encore. Bien que moins apparentes les modifications religieuses, intellectuelles, sociales, n'en sont pas moins importantes." (216)

اذن فقد فرض المستعمر وكما أسلفنا سلطته السياسية ونمطه الثقافي على ميزاب لتصبح فيما بعد أسس عوامل التحول في هذا المجتمع.

عوامل سياسية

ان للعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية علاقات متشابكة وتداخلا في تأثير بعضها على البعض وأي تحويل في احداها يؤثر مباشرة على البقية، ذلك أنه في تحويل النمط السياسي، تحويل للنمط الاجتماعي والثقافي عموما. وفي تحويل النمط الاقتصادي والحياتي للمجتمع تحويل لسلوكياته وعلاقاته وتفكيره، وينسحب هذا الامر على أى عامل، أى عنصر من هذه العناصر، فهي متكاملة البنية، متداخلة العناصر بحيث أنها تمثل كتلة متكاملة لا تتجزأ.

سعى المستعمر في خطته للسيطرة على المجتمع الميزابي الى تقليص دور مجالس العزابة باحداث هياكل ادارية وعسكرية بديلة، حيث أحدث مكتبا عسكريا بغرداية مكونا من ضباط الشؤون الصحراوية مكتفين بإقامة الامن وجمع الضرائب كما أحدث بلدية محلية بغرداية سنة 1919 تديرها

لجنة تنفيذية مكونة من موظف للخدمات المدنية - رئيس - وموظف مدني ملحق لضابط للشؤون الصحراوية وآخر للشؤون العسكرية، الى جانب لجنة بلدية خاضعة لها ومكونة الى جانب الموظفين السابقين من سبعة قادة ايباضيين وثلاثة مالكيين وممثل عن الجالية اليهودية الذين كانوا يعيّنون مباشرة من قبل الحاكم العسكري بالاغواط .

وقد كانت اللجنة التنفيذية مكلفة بمهام عديدة وهامة، اضافة للمهام الادارية العامة، وكانت تقوم بولاية ذات أحكام وملاحيات زجرية . أما موظف الشؤون المدنية - الرئيس - فقد كان اضافة الى ترأسه اللجنة التنفيذية - يعتبر رئيس البلدية الذي له صلوحية التصرف في أموالها و اصدار الاوامر و القرارات عنها و التي تهم المسائل الادارية و القانونية و المالية وكل ما يتصل بالمجال البلدي. بل لن اتفاقات مجالس العزابة لا يمكن أن تدخل حيز التطبيق الا بعد موافقة البلدية التي لا تصح بمخالفة القوانين أو اتخاذ قرارات منافقة للسياسة الرسمية . (٢١٤)

ولكن ورغم ما تقدم، فقد بقي لمجالس العزابة ولمجالس العزابات دور فعال في تحديد سلوكيات المجتمع وفي الوقوف ضد الكثير من مشاريع المستعمر الرامية الى احتواء المجتمع الميزابي أو الى ادخال كل ما من شأنه أن يحدث فيه تغيرا جذريا في نمط حياته وسلوكه وذلك من خلال سلطتها الدينية و الاجتماعية و المعنوية، وبقيت مسألة الولاية و البراءة مسألة حيوية وفعالة تؤدي دورها الصارم و الزاجر ضد كل من يحاول خرق القوانين التقليدية و الاعراف المحلية . كما أن للعزابة طريقة فعالة في الضغط على المستعمر وردع الجماعات التي تتمرد على قراراتها، وذلك بإعلان "العصيان المدني" أو "الاضراب" كما يقول الشيخ طلاي "حيث يعلقون علمهم المسجد وذلك بالامتناع عن القيام بمهامهم و الاعتصام عن المسجد مما يعمل على تأليب الرأي العام ضد المستعمر أو الجماعة الخارجة" (٢١٥).

كما أن لدور بعض العلماء روجال الاصلاح الايباضيين وعلى رأسهم الشيخ بيوض أهمية كبيرة في منع فرقعة المجتمع الميزابي و التقليص من التأثيرات السلبية و الثقافية الخارجية عليه، بحيث عملوا على تطوير المجتمع في كثير من المجالات موازاتا لطروحات المستعمر وكبديل عنها .

عوامل الحرب

ان الوسائل التي اتبعها المستعمرون في اخضاع الشعوب عديدة جدا، وذلك ابتداء من الوسيلة العسكرية الى الوسيلة الاقتصادية، مرورا بالادارية، لكن أخطر هذه الوسائل هي الوسيلة الفكرية. ذلك أن في تحويل فكر المجتمع وصياغته بما يتأقلم مع ثقافة المستعمر ويتناسب مع مخططاته الاحتوائية ضمان لاستمرارية خضوع هذا المجتمع بأيسر الطرق، بل ضمان لانصهاره وذوبانه في المستعمر وفي ثقافته.

يقول جورج مارسای عندما تحدث عن التحولات التي حدثت في ميزاب :

"L'enseignement est l'instrument indispensable de la culture Française". (219)

لذلك عمل المستعمر الفرنسي على اجبار الميزابيين على تعليم أبنائهم في المدارس الفرنسية بدعوى تمكينهم من ايجابيات التعليم الاوروبي. الا أن تفطن الميزابيين للمخطط الفرنسي وغيرتهم على ثقافتهم وعقيدتهم جعلهم يمتنعون على ارسال أطفالهم الى هذه المدارس لمدة طويلة، حتى وجدوا أنفسهم مجبرين قسرا على التراجع نسبيا عن قرارهم بارسال أبنائهم الى هذه المدارس لقضاء فترة من التعليم الابتدائي حسب ما أعلمنا به المؤرخ الشيخ سليمان بن يوسف

يقول جورج مارسای :

"A l'exception des Juifs, qui reconnaissant les avantages pratique de l'instruction européenne, l'acceptent volentiers, pour leurs enfants, les indigènes y ont longtemps échappée." (223)

وموازنا لتنازلهم لفائدة هذا المشروع التعليمي الدخيل، ادخلوا حركية على نمط تعليمهم التقليدي، بتركيز مؤسسات تعليمية حديثة، حيث يقول الشيخ ابراهيم طلاي : "أن الجمعيات الخيرية و الاصلاحية التي كونها المواطنون كرد فعل للغزو الفكري، ومدارس الفرنسيين، قد ساهمت في تطوير هذه المحاضر[228] واحداث تعليم عصري يقابل التعليم الفرنسي الاجباري، فأنشئت مدارس حرة، تابعة للمساجد أومستقلة عنها، يصرف عليها، ويمون مناديقها أفراد الشعب" (229). وهذه المدارس التي كانت ثمرة الحركة الاصلاحية التي قادها الشيخ بيوض والتي كانت أولها مدرسة "الحياة" بالقرارة، حيث تم انشاءها سنة 1926 لتليها مدرستا الاصلاح بغرداية و النهضة بالعطف لم تكن لتنال استحسان المستعمر، بل ان الشيخ سليمان بن يوسف أحد المؤرخين وزعماء هذه الحركة الاصلاحية يروى لنا [232] كيف أنه

تعرض مع الشيخ بيوض و الشيخ صالح بابكر الى مضايقات السلط الفرنسية وقمعها، وذلك من أجل إحداث هذه المدارس.

وتجدر الاشارة الى أن هذه المدارس التي كانت تؤكد على التعليم الديني و التي تحرص على تعليم اللغة العربية، كانت تربي في الاطفال و الشباب الميزابي روح التشبث بالمذهب و العقيدة الاباضية و الوطن الميزابي، كما كانت تعمل على اعدادهم لمواصلة الدراسة في الجامعات الاسلامية خارج الجزائر وخاصة منها جامع الزيتونة بتونس وذلك في اطار اعداد الحصانة الثقافية للمجتمع ضد كل عوامل الذوبان و الانحلال. كما تجدر الاشارة أيضا الى أن هذه المدارس لم تكن مقصورة على الفتيان، ذلك أن الحركة الاصلاحية عملت على تعليم الفتاة وتثقيفها في دينها وعقيدتها وفي كل ما من شأنه أن يساعدها في حياتها الزوجية (الطبخ، النسيج،...) وقد تولت مجالس العزابات هذا الامر بكل جدية، الشيء الذي لم يكن موجود في ميزاب قبل ذلك الوقت حيث كان التعليم مقصورا على الفتيان.

اذن لقد شهدت ميزاب بروز عوامل تحولات فكرية في العهد الاستعماري وذلك سواء قبل بالمدارس الفرنسية رغم قصر مدة الدراسة الا أنها كانت في مرحلة حساسة من حياة الطفل الميزابي، أو بتطوير المدارس القرآنية بما يزاحم المحتوى الدراسي للمدارس الفرنسية أو كذلك بادماج و اقحام العنصر النسائي في النهضة التعليمية من خلال الحركة الاصلاحية.

عوامل الفشل

لقد تسبب دخول المستعمر الصحراء في قلب نظام الاقتصاد التقليدي كما يقول الدكتور ابراهيم بن يوسف.. حيث عمل في البداية على تحطيم أسس الاقتصاد الصحراوي بالسيطرة على التجارة الصحراوية التي كانت تمثل مورد الرزق الاساسي للقبائل الرحل، و التي كانت غرداية، بموقعها، محطة لها، مما أجبر هذه القبائل على الاستقرار ببعض المدن وخاصة منها مدن ميزاب التي مثلت منذ بداية تفتحها على الخارج قطبا تجاريا هاما في الصحراء.

فنشأت بذلك الاحياء التي جاءت لتلتصق بالقصور وخاصة منها غرداية لتمثل نواة الاحياء الشعبية بميزاب حيث أن هذه القبائل التي لم تتعود المدينة وطرق العيش فيها ونمط الحياة

المستقرة ، الى جانب افتقارها للخبرات التجارية و الحرفية أو حتى الفلاحية ، جعلها تمثل عنصر ترويد لليد العاملة الغير مختمة و الهامشية بحيث مثل هؤلاء السكان منذ بداية القرن العشرين وخاصة عند منع وجود العبيد، الركيزة الاساسية في الاشغال الفلاحية العادية وأشغال البناء.

أما الميزابيون الذين يملكون خبرة تجارية وحرفية لا يمكن منافستها؛ الى جانب قدراتهم المادية الضخمة ، فقد ازداد اهتمامهم أكثر بالتجارة و الحرف في ميزاب وخارجه ، بل انهم أصبحوا يميلون تحت دافع سياسي أو شخصي - الى احتلال مناصب ادارية في الوظيفة العمومية ، حيث أن الكثير من الاطارات العاملة في المؤسسات الادارية و الخدمات العامة هم من الميزابيين، أما الفلاحة التي لم تعد تمثل مورد الرزق الوحيد بل حتى الاساسي للعائلة ، اضافة الى الصعوبات المناخية و الطبيعية الكثيرة التي تتعرض لها، لم تعد تلاقي نفس الاهتمام الذي كان يوجه اليها قديما، بل لقد وجد الميزابيون في اليد العاملة الزهيدة التي كانت تقدمها لهم القبائل المستقرة خير بديل عنهم ، رغم عدم امتلاكها للخبرة الكافية في المجال الفلاحي، فلم يعد الميزابي يباشر الفلاحة بنفسه ، بل أصبح يعتمد شبه كلية على هذه اليد العاملة .

وفي مرحلة ثانية ، وفيما بعد، فان اكتشاف النفط، و التصنيع و اكتشاف الآبار الارتوازية فتحوا آفاق ميزاب ليتنبهوا اذن في بداية التحول "Mutation"(224) الحقيقية .

اذن لقد كان لعملية التصنيع و اكتشاف آبار النفط التي بدأت منذ سنة 1956 أثر اكبر ا على الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في ميزابه حيث كانت أول آثاره سيئة على الفلاحة ، وذلك باحتواء كل اليد العاملة الفلاحية تقريبا لتجد الواحات نفسها ولاول مرة ضمن آخر المجالات التي تلقي الاعتناء و الاهتمام ، بل ان هذه الواحات أصبحت منذ ذلك الوقت مهددة بالزحف العمراني الناتج عن تواصل استقرار المزيد من القبائل و اليد العاملة النازحة من الجهات القريبة من ميزاب وحتى البعيدة عنها، وذلك من أجل العمل في هذه الحقول النفطية وهذه الصناعات ، اضافة للتزايد الديمغرافي الحقيقي لسكان ميزاب .

عوامل اجتماعية

ان تقليص دور العزابة في المجتمع الميزابي لتحل محلها هياكل سياسية و ادارية خارجية

تتمتع بالتسيير العملي و القانوني للمجتمع، اضافة للتزايد السكاني الكبير الذي كان نتيجة النزوح الى ميزاب و الذي أتى بمجموعات تختلف اختلافا كبيرا عن المجتمع الميزابي الاباضي، سواء على المستوى الفكري أو على مستوى درجة التحضر أو حتى على مستوى الامكانيات المادية و الاقتصادية، تسبب في :

- فقدان العزابة و الهياكل الاجتماعية الاخرى دورها في قيادة المجتمع[225] و اقتصار توجيه ما تبقى من سلطتها المعنوية للمجموعة الاباضية نظرا لفقدانها هذه السلطة على بقية السكان الذين أصبحوا يمثلون نسبة هامة متن المجتمع قرابة 40 % [226]
- تأثر المجتمع الميزابي الاباضي بطبيعة الممارسات و العلاقات الجديدة التي جاء بها النازحون و التي تتناقض الكثير منها مع ممارساته القديمة.
- وجود فروقات هامة وكثيرة على المستوى الفكري و المادي و الاجتماعي بين مختلف المجموعات في المجتمع.

كما أن انفتاح المجتمع على المناهج التعليمية الحديثة، سواء التي جاء بها المستعمر أو التي أتت بها حركة الاصلاح، جعلت أفراده يشعرون بوجوب تطوير مناهج حياتهم ونمط ممارساتهم وطرق معيشتهم، حيث أن رفض الوسائل التقنية المختلفة التي جاء بها المستعمر كتعبير عن رفض المستعمر ذاته (ومثال ذلك رفض النور الكهربائي الذي تزعمته مجالس العزابات في وقت ما) أصبح بعد من الطرق المتخلفة التي يجب تجاوزها خاصة عندما ظهرت لهم منافع هذه الوسائل ومحاسنها[227] كما أن بعض المثقفين في المجتمع و الذين يمثلون ثمرة النهضة الثقافية الاصلاحية، أصبحوا ينادون بتطوير الهياكل الدينية وبعض التقاليد و العادات و الممارسات المجتمعية بما يناسب الواقع الحياتي و الاقتصادي المستحدث فيه، ومثال ذلك موقف الشيخ ابراهيم الطلاي من "التنوبة" وذلك بعد بضع سنوات من رجوعه من تونس حيث كان يدرس بجامع الزيتونة فهو يقول : "وقبل أن ننتقي حديثنا عن هذا العمل الخيري، لا يفوتنا أن نبدي رغبتنا في ادخال بعض التحسينات على هذه الاوقاف، فيما يخص توزيعها، واستبدالها بنوع آخر وتتجرأ على العزابة و الفقهاء في هذه الرغبة، فنظامها رغم أصالته وتُهقه، نظام قديم، وضع لعصور سبقتنا، وقد تغيرت الاوضاع كثيرا عما سبق، وتبدلت حياة الناس فأصبح لا يؤدي المهمة التي وضع لأجلها كاملة..." [228]

وأخيرا فان انعكاسات العامل الاقتصادي على العامل الاجتماعي كثيرة وعديدة جدا يتمثل بعضها في :

- تنوع المؤسسات الاقتصادية وانفصالها عن المؤسسة العائلية مما ساهم في تشتيت أفراد العائلة بين هذه المؤسسات وذلك حسب اختصاصاتهم وامكانياتهم .
- صياغة المؤسسة الاقتصادية الحديثة لنمط حياة العاملين فيها ومن خلالهم المجتمع ، وذلك بتجديد أسلوب العمل ومواقيته وطبيعة العلاقات التي تربط الاجراء فيما بينهم والتي تربطهم بمؤجريهم ... اضافة الى صياغة نمط استهلاكي جديد في المجتمع عبر ايجاد مواد حديثة : آلات فلاحية ومنزلية ، أثاث ...
- ايجاد أساليب التنقل الجديدة ووسائله الحديثة التي تستجيب للنمط الاقتصادي المستحدث بحيث تستطيع حمل العديد من العمال أو الموظفين في آن واحد وفي وقت قصير الى أماكن العمل التي أصبحت بعيدة باعتبار عدم وجود علاقة مباشرة بينها وبين القصر أو الواحة ، وما ينتج عن ذلك من احداث المسالك والطرقات الخاصة بها والصناعات والمرافق التي تلزمها ...

عوامل معمارية

اضافة الى التي سبق ذكرها والتي كانت أسس التحول في المعمارة الاجتماعية في ميزاب والتي تهمنا في أطروحتنا من حيث انعكاسها على العمارة التي تخلصت من كثير من القوانين والقيود المحلية التي تتحكم فيها بحكم ضرب مؤسسات السلطة والتسيير المحلية ، وتحول هذه السلطة بيد الادارات التي أحدثها المستعمر ، اضافة الى تغير حاجيات وأفكار وممارسات أصحابها ، فان للنمط المعماري الاوروبي الذي جاء به المستعمر الى ميزابه حيث قام المستعمر ببناء حي سكني اداري في الطريق بين بني يزقن وغرداية وبجانب هذه الاخيرة ذي طابع أوروبي واضح بحيث لا يرتبط بالعمارة المحلية لا من قريب ولا من بعيد ، سواء كان ذلك في الشكل أو المضمون ، في المقاييس أو الكتل أو مواد البناء ، في وظائف الفضاءات الداخلية أو الخارجية ، بل في كل شيء مما جعل جورج مارساي يعبر عن الفرق بين العمارة المحلية وهذه العمارة بالتناقض الذي لا يخفى حتى على المسافر القليل الانتباه [(3)2.9] .

خلاصة .

لقد تميزت مرحلة الاستعمار بـ :

1 ـ تعرض المجتمع الميزابي الى انفتاح قسري لم تراعى فيه خصوصياته التاريخية و الثقافية

2 ـ ضرب وتقليص دور الهياكل الدينية الاجتماعية وتعويضها بهياكل ادارية خارجية تتمتع بالسلطة القانونية و التنفيذية و القضائية .

3 ـ خضوع المجتمع لبرامج المستعمر الاقتصادية و الثقافية الغربية عنه مما أدخل تغييرا عميقا في نمط حياته وطبيعة علاقاته وممارساته بما يتناقض مع الطبيعة الاقتصادية و الاجتماعية التقليدية .

4 ـ ظهور تناقضات اجتماعية وفكرية عديدة بين مختلف عناصر المجتمع أفراده وجماعاته .

*

2.مرحلة مابعد الاستقلال

ان للعامل السياسي أهمية رئيسية في صياغة التحولات التي شهدتها ميزاب سواء في العهد الاستعماري أو حتى بعد الاستقلال حيث تواصل خضوع المجتمع الميزابي للسلطة "الخارجية" التي أدمجته في اختياراتها السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية الوطنية الموحدة دون مراعاة لخصوصاته الثقافية و التاريخية .

ـ عوامل ادارية وسياسية

لقد تواصل انحسار سلطة مجالس العزابة بعد الاستقلال وذلك بتدعيم سلطة البلديات التي أصبحت أساس النظام السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي في البلاد، و التي تمثل انعكاسا للسياسة الاشتراكية المتبعة للسلطة المركزية، حيث يتم انتخاب أعضاء البلدية حسب شروط عديدة، من أهمها :

* تمثيلية المواطنين و الجهات و المجموعات الموجودة في الاطار البلدي.
* انخراط هؤلاء الاعضاء في الثورة الاشتراكية
* تزكية جبهة التحرير الجزائرية لهم (230)

ان لوجود البلدية في غرداية كاطار وجهاز وطني أريد له الخدمة الحقيقية لمصالح السكان (حسب مشروع السلطة المركزية طبعا وطبقا لاختياراتها)، اضافة للتمثيلية الفعلية و العملية

لاعضاءه ، لم تعد تبرّر (وطنيا) وجود جهاز سياسي محلي في الجهة ، بل ان ذلك أصبح يمثل خرقا للوحدة الوطنية وضربا لأهداف الثورة الاشتراكية .

لذلك أتجه المجتمع الميزابي الاباضي نحو التشرب الى هذا الاطار بصفة شرعية للتأثير من خلاله على الاختيارات المركزية للسلطة ، في شتى مجالاتها السياسية و الاقتصادية و الثقافية و الاجتماعية ، ومحاولة تكييفها بما يتناسب مع المجتمع ، وذلك دون الوقوف ضد هذا الاطار أو حتى موازاته أو مزاحمته بمجالس العزابة التي عملت بصفة خفية على التأثير في تركيبة أعضاء البلدية بتقديم قائمة موحدة للانتخابات (231).

كما عملت بصفة خفية أيضا على اصدار بعض الاوامر و القرارات التي تحد من تأثير تدخل السلطة بما لا يتناسب مع ثقافة المجتمع وتاريخه (232)، مستعملة في ذلك ما تبقى من سلطتها المعنوية على السكان .

كما كشف المجتمع الميزابي من تواجده في مختلف المؤسسات الادارية ، وقطاع الخدمات باطاراته المتعلمة التي أظهرت تفوقا عدديا ونوعيا على بقية المجموعات التي تسكن الجهة .

لقد زاد في تدعيم تمثيلية السلطة المركزية بغرداية النمو المطرد و السريع لهذه الجهة الذى جاء نتيجة اختيارات لا مركزية التنمية حيث أصبحت ميزاب قطبا حضريا ومركز استقطاب ونقطة مبادلات و اشعاع جهوى، مما جعلها تتسلق سلم التقسيم الادارى للبلاد الى درجة ولاية ، فتم بذلك مزيد ربط هذه الجهة بالسلطة المركزية وباختياراتها السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية مما زاد في تقزيم دور مجالس العزابة و الهياكل الاجتماعية الاخرى الى أن فقدت الكثير حتى من سلطتها المعنوية على السكان، اضافة الى احداث تحولات عميقة في بنية المجتمع الثقافية و الاجتماعية و الاقتصادية .

عوامل فكرية

لقد تواصل تأثير البعد السياسي الخارجي في ميزاب على الثقافة المحلية ، فكان للاختيارات الثقافية و الفكرية المركزية للسلطة تحت دافع الوحدة الوطنية ـ الاثر العميق في تقليص التميز

الثقافي للمجتمع الميزابي الاباضي ليجد نفسه منخرطا في الثقافة الوطنية الرسمية المتأثرة بالثقافة المادية العالمية.

وفي هذا الاطار، وجد التعليم الرسمي دعما قويا من السلطة التي اختارت بأن يكون اجباريا وذلك بهدف محو الامية وتمكين كل أبناء الوطن الجزائري من التعليم المجاني ومن امكانية الارتقاء في طلب العلم بمختلف اختصاصاته العلمية والادبية للنهوض بالبلاد من مستوى التخلف الحضاري الذي عاشته مدة قرون عديدة والذي زاد في تعميقه المستعمر الفرنسي.

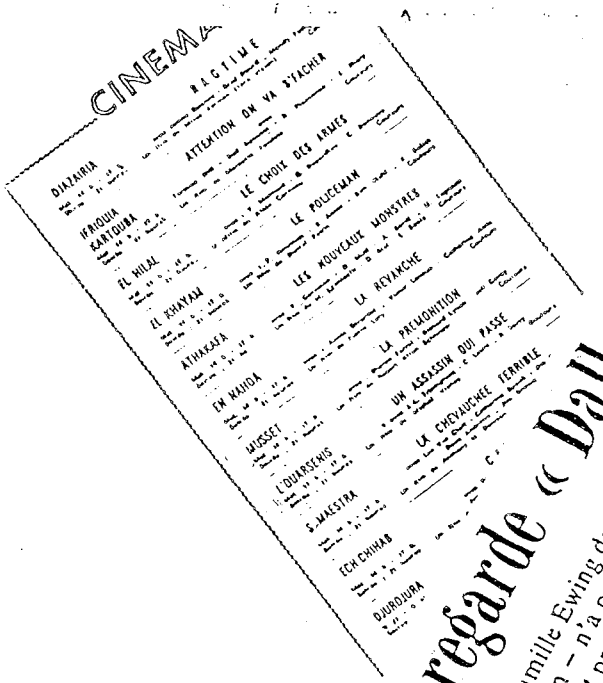
فجاءت المدارس الرسمية العديدة والمعاهد الثانوية التي ما فتئت تتطور يوما بعد يوم، سواء من حيث عددها أو طاقة استيعابها، ورغم دعم المجتمع الميزابي الاباضي للمدارس الخاصة التي هي امتداد لمدارس الاصلاح والتي تحتضن الاطفال خلال المدة الاولى من التعليم موازاتا مع المدرسة الرسمية، الا أن اجبارية التعليم الرسمي وتطور أساليبه ومناهجه، اضافة الى امتداد سنواته الدراسية الى مراحل عديدة وصولا الى الجامعة الموجودة خارج ميزاب جعلت تأثير هذه المدارس يتقلص شيئا فشيئا مقابل تعمق وتجذر تأثير المدارس الرسمية في فكر وثقافة أبناء ميزاب وبناته اللاتي أصبحن يترددن هذه المدارس أكثر فأكثر بعد مقاطعة دامت سنوات طويلة تسببت في بعض المشاكل الاجتماعية والتي من بينها ارتفاع نسبة الطلاق (233) الناتجة أساسا عن تباعد المستوى الثقافي والتعليمي بين الشاب والفتاة.

كما تسبب هذا النمط التعليمي وخاصة في مستوى الجامعة المتطرقة والموجودة خارج ميزابه اضافة الى توظيف المتعلمين في مناطق خارجة عن ميزاب، في فصل الشباب الميزابي عن مجتمعه ومحيطه العائلي وبالتالي عن كل مؤسسات التسيير والعراقية الاجتماعية التي تشكو هي نفسها من تقلص وانحسار دورها حتى في ميزاب ذاته، مما ساهم في التطور والتحول في فكر وممارسة هؤلاء الشباب الذين أصبحوا يمثلون عناصر نقل واستيراد للافكار والممارسات الخارجية الى المجتمع الميزابي.

كما أن لوسائل الاعلام المتطورة والمتعددة، والتي أصبحت في متناول الجميع، تأثير كبير في التحول الحاصل في فكر وممارسة المجتمع الميزابي، فاضافة الى الصحف والمجلات الكثيرة

EL MOUDJAHID

LA REVOLUTION PAR LE PEUPLE ET POUR LE PEUPLE



L'Algérie regarde « Dallas »

L'irruption de la célèbre famille Ewing dans l'Algérie socialiste et musulmane – et passionnée de télévision – n'a pas manqué de provoquer des remous. Fascination au départ et rejet progressif.

TV

JEUDI

— 11 h 50 : CORAN.
— 12 h 00 : CONCERT DE MUSIQUE UNIVERSELLE (Coul.)
— 12 h 55 : MA SORCIERE BIEN AIMEE (Couleurs).
— 13 h 00 : DESSINS ANIMES.
— 13 h 15 : FOLLOW ME.
— 13 h 30 : E'RADJOUL EL HADIDI (18ème partie, Couleurs).
— 14 h 00 : 4 FIANCEES POUR UN MARI (Couleurs).
Avec Sandra Dee, George Hamilton, Céleste Holm, Bill Bixby, Dick Kallman, Mort Sahl.
— 15 h 30 : AKAOERA (Couleurs)
— 16 h 00 : SUPER JAIMIE (Coul.)
— 16 h 50 : L'ILE AUX ENFANTS (Couleurs).
— 17 h 20 : L'HOMME DE FER. (C).
— 18 h 10 : SPORTS (Couleurs).
— 19 h 05 : MADJALES EL ADAB (Couleurs).
— 20 h 25 : LA TELEVISION EN UNE SEMAINE (Couleurs).
— 21 h 00 : TRAPEZE (Couleurs).
Un film réalisé par Carol Reed.
Avec Burt Lancaster, Gina Lollobrigida, Tony Curtis, Katy Jurado, Thomas Gomez, Johnny Puleo, Gérard Landry, Jean-Pierre Kerien, Sidney James.
— 23 h 00 : VARIETES (Couleurs).
Avec YVES MONTAND à l'OLYMPIA.

VENDREDI

— 10 h 00 : CORAN
— 10 h 15 : IFTEH YA SIMSIM
— 10 h 40 : E'RADJOUL EL HADIDI
— 11 h 10 : ON WK GO
— 11 h 25 : LE MAGAZINE DE LA FEMME (couleurs)
— 12 h 00 : DESSINS ANIMES
— 12 h 25 : PRIERE DU VENDREDI
— 14 h 00 : CONFERENCE (couleurs)
— 14 h 30 : QUINCY (couleurs)
— 15 h 30 : L'HOMME QUI N'A PAS D'ETOILES (couleurs)
Un film western
avec Kirk Douglas, Jeanne Crain, Claire Trevor, Richard Boone.
— 17 h 00 : MUPPET SHOW (coul.)
— 17 h 30 : SEMAINE SPORTIVE (couleurs)
— 18 h 30 : CAUSERIE RELIGIEUSE
— 20 h 30 : VINGT ANNEES DE REALISATIONS (couleurs)
— 21 h 00 : SI FLENE (couleurs)
Une dramatique.
— 22 h 00 : BAKET WARD (coul.)
Une émission de variétés.

و المتعددة التي في متناول الجميع، فان المساكن الميزابية لا تكاد تخلو من أجهزة الراديو و التلفزة التي تبث طيلة اليوم البرامج الاعلامية و الثقافية و التربوية الموجهة من قبل السلطة السياسية المركزية، مما يساهم في صنع ذوق وفكر جديدين في المجتمع. وصياغة ممارسات اجتماعية حديثة وبالتالي نحت مجتمع بديل عن المجتمع الاصلي.

فـــواصل التصـــاديـــة

لقد رسمت الدولة الجزائرية بعد الاستقلال سياسة تهدف الى اعادة التوازن بين شمال البلاد وجنوبها وذلك بتركيز الصناعات في مختلف المناطق وخاصة منها المناطق الداخلية و التي توجد خاصة بقرب الموارد الطبيعية للبلاد كالنفط و الغاز... كما ربطت هذه المناطق بشبكة طرقات متطورة، فساهمت بذلك في تطوير وتنمية المدن الداخلية الصغيرة منها و المتوسطة مما جعل هذه المدن تستقطب سكان الجهات الريفية المحيطة بها وتحد بقدر ما من ظاهرة النزوح نحو الشمال. ومن هذه المدن، مدن وادي ميزاب التي عمل سكانها على مزيد الدمك باقتصاد الجهة وذلك بتوظيف رؤوس أموالهم التي عادوا بها من الشمال، في التجارة و الصناعة خاصة، رغم العراقيل الكثيرة التي لاقتهم لتناقض هذا العمل مع الخيار الاشتراكي للسلطة المركزية.

ولكن بالرغم من نجاح سياسة لامركزية التنمية في تطوير المدن الداخلية الصغرى، بما فيها مدن وادي ميزاب الا أنه لم يقع التنبؤ بطبيعة هذا التطور الذي كان نتيجة نموذج اقتصادي حديث وغريب عن هذه الجهة، حيث لم تراعى فيه طبيعة النمط الاقتصادي المعاشي الاصيل لهذه المنطقة، مما أدخل تغييرا في فكر وسلوك ونمط حياة المجتمع، فتأثرت بذلك هذه المدن في نشأتها المعماري و التعميري الذي شهد تحولات كثيرة ومختلفة المستويات.

يقول الدكتور ابراهيم بن يوسف :

" C'est la phase de l'industrialisation, de l'introduction d'un nouveau mode de production qui doit certainement avoir d'importantes conséquences sur tous les plans. L'industrialisation est en effet l'un des facteurs essentiels des transformations socio-économiques qui marquent cette ère nouvelle.
L'apparition d'un nouveau modèle de rapports de production, sera suivi par

l'introduction de nouvelles normes et valeures sociales qui ne tarderont pas à effacer les valeurs traditionnelles qui fonctionnaient jusque là." (234)

وأمام التنامي الكبير الذي شهدته الصناعة في ميزاب، فان الاهتمام بالفلاحة تقلص الى درجة اللامبالاة حيث أصبحت الواحات لا تمثل أكثر من مكان للراحة في فصل الصيف وفضاء للنزهة خاصة عندما انتزعت الدولة الاراضي من أصحابها وأخضعتها للنمط الاشتراكي في الملكية و الانتاج، فانعدمت بذلك العناية بهذه الاراضي وبطرق وأساليب احيائها التي كانت ثمرة مجهودات أجيال عديدة لمدة قرون طويلة ، فانهدمت سواقي المياه، وتغطت مجاريها بالتراب وتكسرت الحواجز و السدود وأهملت الابار وتم اقتلاع عشرات الالاف من النخيل ليتم استغلال مكانها في بناء عديد المساكن الفردية أو الاحياء التي اضطرت الدولة لبنائها نظرا للتزايد السكاني السريع الناتج عن النمو الديمغرافي وظاهرة الاستقرار العكسية للميزابيين الذين كانوا في الشمال، ونظرا كذلك لتنامي ظاهرة النزوح، اضافة الى ترتيب ميزاب منذ سنوات عديدة ضمن المناطق و المعالم التاريخية التي وجب الحفاظ على مظهرها بمنع البناء فوق الهضاب..

ان للسلطة المركزية أو الدولة ، المسؤولية الاولى و الرئيسية في صياغة النمط الاقتصادي الحديث الذي تعيشه ميزاب حيث أنها اختارت في مخططاتها التنموية التركيز على الصناعة دون الفلاحة ، ومن ذلك تخصيص 3 % فقط من الاجمالي القومي لليد العاملة (235) الفلاحية الى حدود سنة 2000 بينما كان يمثل سنة 1979 6% ليشهد بذلك انخفاظا مقابل اهتمام أكثر بالصناعة .

الا أن ذلك لا يعني أنه ليست للميزابيين أنفسهم أية مسؤولية في مزيد تكريس هذا النمط الاقتصادي و الا فكيف نستطيع تفسير نسبة النمو الصناعي الذي شهدته ميزاب من سنة 1968 الى سنة 1972 والذي بلغ 1،290 % (236) بينما يساوي معدل النمو الصناعي للجزائر عامة 58 % فقط ؟ لكن ورغم ذلك، فان الدولة هي التي كانت وراء اهتمام الميزابيين بالصناعة دون غيرها ولو بصفة غير مباشرة ، وذلك بتوفير كل الضرورات و الظروف لانجاحها، بإحداث مناطق خاصة بها (قارة الطعام مثلا) (237) وشبكة طرقات هامة ووسائل نقل متعددة ومتطورة وسهلة المنال، كل ذلك لا يمكن الا أن يغير

الميزانيين لتوظيف أموالهم في الصناعة دون غيرها، خاصة وأن البلاد في حاجة كبيرة الى المواد الصناعية الحديثة والمتعددة، نتيجة بروز نمط استهلاكي حديث ومتطور.

كما تجدر الاشارة الى أن نمو القطاع الاداري، سواء منه المتعلق بالصناعة أو الخدمات العامة، كالمدارس والمستشفيات والادارات العمومية والخاصة، أوجد نمطاً جديداً من الانشطة والوظائف وبالتالي فئة اجتماعية مغايرة لتلك التي تعمل في الصناعة أو الفلاحة أو التجارة.

من هنا، فاننا نلاحظ أن العلاقات والممارسات الاجتماعية الحديثة لا تختلف فقط مع ما كانت عليه في الماضي، بل ان الاختلاف في الوظائف والنشاطات الاقتصادية لمختلف فئات المجتمع الحالي يجعل العلاقات والممارسات الاجتماعية تختلف من فئة الى أخرى مما يجعلها تنعكس على العمارة لتجعل منها خليطاً غير متجانس ولا متكافئ، عكس ما كانت عليه في الماضي حيث كانت كل عناصر المجتمع تمثل كتلة ووحدة متجانسة في الوظائف والمستوى المعيشي والممارسات والافكار والطموحات الشيء الذي انعكس في معمارهم جملة وتفصيلا.

عوامل اجتماعية

ان نفس التحليل الذي ورد في العامل الاجتماعي لمرحلة ما قبل الاستقلال يمكن أن ينسحب على هذه المرحلة، الا أن الملاحظ أن الظواهر الاجتماعية للتحول تزداد عمقا ورسوخا يوما بعد يوم، مع مزيد خضوع المجتمع الميزابي للسياسة الرسمية "الخارجية" المتأثرة هي نفسها بنمط الثقافة العالمية بمختلف أبعادها المادية والمعنوية. وفي هذا الاطار فاننا سنكتفي باضافة بعض الملاحظات:

1 - مزيد تهميش مجالس العزابة والمجالس العائلية، حتى أنها أصبحت مهددة بأن تكون مجرد هياكل تراثية صورية مفرغة من أي قيمة أو نفوذ.

2 - بداية تفكك الروابط العائلية والاجتماعية.

3 - تعمق القطيعة والتناقض بين مختلف فئات المجتمع وجماعاته مع ظهور طبقات وفئات متناقضة الامكانيات والمصالح والاهداف.(20)

عوامل معمارية

ان من جملة عوامل التحول في العمارة الاجتماعية والمعمار في ميزاب المعمار ذاته،

ذلك أنه اضافة الى ظاهرة نقل الانماط المعمارية الخارجية الى ميزاب و الذى يتم عبر الشباب المتعلم أو التجار العائدين من الشمال بغية الاستقرار في ميزابه فان للسلطة التأثير الكبير في هذا المجال، فبالاضافة الى مجموعة القوانين و الاسس الضابطة للتنظيم المعمارى و العمراني في ميزاب و التي وضعتها السلطة طبقا لتصوراتها التي لا تخضع بالاساس الى التقاليد المعمارية و التعميرية التي صاغت مدن و ادى ميزابه فان هذه السلطة ما فتئت توجد المخططات التعميرية لهذه المنطقة، وتبني أحياء سكنية ذات أنماط موحدة لنفس الصنف الاجتماعي أو الوظيفي للمتساكنين وذلك في كل التراب الجزائري وكلما وجد هذا الصنف الاجتماعي دون مراعاة لطبيعة المعمار المحلي أو نمطه أو حتى طبيعة المناخ وخصوصيات المجتمع .

خلاصة :

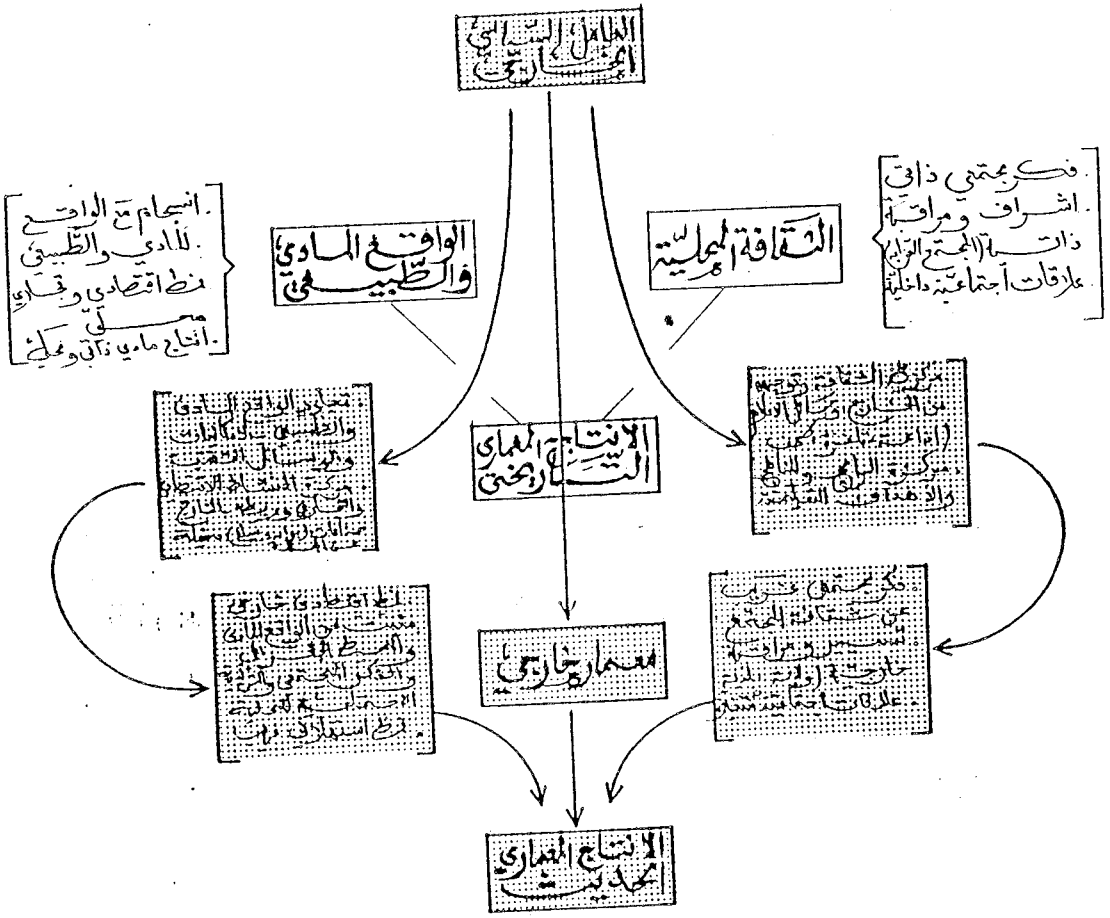
لقد تميزت مرحلة ما بعد الاستقلال بـ:

1 ـ تواصل الانفتاح بطريقة غير مدروسة وغير منهجية، وذلك على حساب الطبيعة الثقافية و التاريخية المتميزة للمجتمع، مع دخول عنصر رغبة السكان في ذلك بعد زوال الاستعمار الذى مثل عدائه عائقا دون هذه الرغبة في الماضي .

2 ـ اقصاء الهياكل الدينية الاجتماعية عن أية سلطة تشريعية أو تنفيذية أو قضائية، و اقتصار مهمتها على بعض المهام الخيرية و التربوية، اضافة الى السهر على تنفيذ بعض العادات و التقاليد التي لا تتناقض مع أهداف السلطة ومشاريعها.

3 ـ تواصل تأثير السلطة المركزية على ميزاب باخضاعه لمخططاتها السياسية و الاقتصادية و الثقافية بما لا ينسجم مع خصوصياته التاريخية و الثقافية .

4 ـ تنامي و احتداد الفوارق و التناقضات بين مختلف فئات المجتمع وجماعاته، وذلك على مستويات عدة، مادية وفكرية و اجتماعية حتى وصل الامر الى صراعات حادة ودموية بلغت ذروتها سنة 1985 بين الميزابيين الاصليين ومجموعة من النازحين(المذابح) .


العامل البيئي
الاعتبارات التاريخية
الواقع المادي والطبيعي
الثقافة المحلية
الانتاج المعماري التاريخي
معمار خارجي
الانتاج المعماري الحديث

٤- المعمار والممارسة الاجتماعية في سوريا

١- الممارسة الاجتماعية الحديثة في ميزان التحوّل

٢- انعكاس الممارسة الاجتماعية الحديثة على العمارة

- الانتاج المعماري الذاتي

أ- المعمار التلقائي

ب- المشاريع الخاصة المصمّمة من قبل مهندسين معماريين

٣- السلطة واستراتيجية التعمير

- المخططات التعميرية

أ- مخطط رافرو (A. RAVERAH)

ب- = سبير (A. SPERT)

ج- = سيرو (S.E.R.A.U)

- البرامج المعمارية والمعمار المخطط

أ- السكن

ب- المنشآت العامة

٤- استنتاجات

4- الدور والممارسة الاجتماعية في ميزاب الجزائري

1- الممارسة الاجتماعية الحديثة في ميزاب التحول

انطلاقا مما قدمناه في الجزء الخاص بعوامل التحول في ميزاب ومؤشراته، فاننا نستطيع أن نضع الممارسة الاجتماعية الحديثة في ميزاب في اطار تحول تظهر مختلف جوانبه على مستويات عديدة: اجتماعية، اقتصادية وفكرية تنعكس على ممارسة الفرد وسلوكه داخل المجتمع، وعلى شبكة ونظام العلاقات المجتمعية بين الافراد والجماعات.

وهذا التحول نلمسه في العائلة أولا، باعتبارها الخلية التي يتركب من مجموعها المجتمع وباعتبارها النواة الاولى في الحياة الاجتماعية، بما طرأ عليها من تغير في بنيتها ووظيفتها، كما نلمس في تغير وتقلص فاعلية الهياكل والمؤسسات المسيرة للمجتمع (عزابة، مجالس عائلية الخ..) ونلمس هذا التحول كذلك في النظام الاجتماعي والنمط الحياتي المتسم حديثا بالاستهلاكية والتطلع للاستقلال والتفرد والتحرر من القيود الاجتماعية الموروثة لدى الافراد والجماعات في المجتمع الميزابي.

فالتغيير الاجتماعي اذن هو الذي سيحدد لنا ولو شيء من التحفظ والاحتراز طبيعة الممارسة الاجتماعية الحديثة، والتغيير الاجتماعي كما يعرفه بعض الاجتماعيين "هو كل تحول يقع في التنظيم الاجتماعي، سواء في بنائه أو في وظائفه خلال فترة معينة من الناحية الزمنية وهو على هذا النحو ينصب على كل تغيير يقع في التركيب السكاني للمجتمع أو في بنائه الطبقي أو نظمه الاجتماعية أو في أنماط العلاقات الاجتماعية أو في القيم والمعايير". (239).

أما عن التغيرات التي حصلت على مستوى العائلة الميزابية فيقول في ذلك الاستاذ هبة الحاج رمضان أن "العائلة من حيث كونها بناء ووظيفة في آن واحد تتأثر بالتغيرات المختلفة وفي نفس الوقت تساهم فيها بما تحدثه من أثر خاصة في وقتنا الحالي حيث أصبحت تتسم بدرجة أكبر من الحرية بعدما كانت حياتها فيما مضى تسير وفقا لما يسطره المجتمع ويحدده لها". (240) ويضيف بأن "الاسرة في القديم لم تكن مجرد بنية من الملات والعلاقات بين عدد من الافراد فحسب، وانما كانت عبارة عن نظام اجتماعي قائم بذاته تقوم بكفاية نفسها من حيث الانتاج والاستهلاك وكانت

بذلك عبارة عن وحدة اقتصادية ...، وبالنسبة للنمط المعيشي فالعائلة في هذا الاطار تبدو عبارة عن مؤسسة اجتماعية و اقتصادية تنقسم المعيشة فيها بين الفلاحة و التجارة وهي ملكية عائلية دائما وتنظيمها يخضع لسلطة الجد أو الاب أو الاخ الاكبر،... الا أنه يجب التسليم مبدئيا بأن العائلة الميزابية قد شهدت تحولات عديدة تظهر في جوانب عدة :

- تحول الافراد من الفلاحة و التجارة - أي من الارض العائلية و التجارة العائلية - للاشتغال بأعمال أخرى كالصناعة، الادارة و الخدمات بصفة عامة مستقلين عن العائلة، بمعنى أنه حدث تغير جذري فيما يخص علاقتهم الاقتصادية بالعائلة.

- تقلص حجم العائلة نتيجة لاستقلال الافراد وخاصة الذكور بعد فترة معينة من زواجهم، الشيء الذي أدى الى ظهور ممارسات وتصورات جديدة فيما يخص تربية الاولاد، العلاقات داخل العائلة بين الآباء و الابناء، بين الذكور و الاناث، النظرة الى التعليم بصفة عامة وتعليم الفتاة بصفة خاصة، توسع العلاقات القرابية و اتجاه الزواج المحدود في اطار العائلة الى التناقص (941) وهذا أدى الى تقلص في العلاقات العائلية مما سيؤدي حتما الى ظهور نمط الحياة الاسرية الضيقة وتبني هذه الاسر لأنماط حياتية جديدة على حساب الانماط التقليدية، ولكن الملاحظ في هذا الاطار أن هناك رغبة كبيرة في المحافظة على الروابط العائلية بحيث يجد الفرد نفسه مشدودا الى العائلة ويصعب عليه الابتعاد عنها حتى أن بعض الشباب يقول : "أنا لا أتصور نفسي في يوم من الايام أسكن منزلا بعيدا عن العائلة وعن الاقرباء".

وأما عن تغير وتقلص فاعلية الهياكل و المؤسسات المسيرة للمجتمع فقد كان هذا نتيجة لعوامل عدة تاريخية وسياسية، فكرية و اجتماعية سبق شرحها في عوامل التحول في ميزاب ومؤشراته، ونشير هنا الى الاثر العميق الذي تركه هذا التغير على المجتمع وما نتج عنه من تحول في ممارسة الافراد و الجماعات وسلوكهم، حيث أن هذه الهياكل و المؤسسات فقدت فاعليتها السياسية و التشريعية و التنفيذية فتقلصت بذلك المراقبة الاجتماعية بشتى أشكالها، فبعد أن كانت هذه الهياكل تسيّر وتؤطر المجتمع وفق أسس وأحكام دينية، لم تبق لها الا بعض الصلاحيات الضيقة و المحدودة كالتوجيه التربوي و العقائدي فقط. وتدعيما لذلك يقول الشيخ ابراهيم محمد الطلاي بأنه "قد ضعف شأن هذه المجالس العائلية، وخف نفوذها في هذه السنين الاخيرة، نتيجة لتغير

المفاهيم، وعزوف الناس عما يفيد من حرياتهم - ولو لصالحهم - ثم سوء التصرف الذي يحدث من بعض المسؤولين أحيانا. وبزوالها يزول خير كثير، وتخسر ميزاب تضامنا اجتماعيا، فريدا من نوعه، ومراقبة عائلية، يشهد لها التاريخ بالفضل العميم." (242)

كما أن من ظواهر التغير الاجتماعي في ميزاب تعليم الفتاة الذي تطور في هذه السنين الاخيرة، وفي هذا الاطار نشير الى أنه لم يكن مرخص للفتاة الميزابية التعلم في المدارس الحكومية (الرسمية) لأنه لم يكن بامكانها الجلوس الى جانب الشاب باعتبار أن الاختلاط أمر مرفوض رفضا قطعيا عند الميزابيين كما أنه دلالة على الانحلال الاجتماعي. الا أنه في السنوات الاخيرة نلاحظ وجود بعض الفتيات الميزابيات يتعلمن في المدارس الحكومية، وهذا يفسر التغير الاجتماعي الكبير الذي يشهده ميزاب خاصة وأن عدد هذه الفتيات في ارتفاع متواصل وهذا مؤشر من مؤشرات التحول في المعمارة الاجتماعية بصفة عامة في ميزاب (243). كما أن هناك ظاهرة أخرى أملت معمارة حديثة في المجتمع الميزابي ألا وهي ظاهرة الهجرة المؤقتة أو التنقل خارج ميزاب لفترات متفاوتة، ذلك أن تطور التعليم في الجزائر وارتفاع عدد المتعلمين سمح بظهور نسبة كبيرة من المثقفين الميزابيين والذين يضطرون الى العمل في المدن الكبرى، بعد تحصلهم على الشهادة أو الديبلوم، فالمدن الكبرى تجذبهم لما توفره لهم من مواطن شغل تتناسب مع درجة تكوينهم، فيستقر بذلك كثير من الميزابيين خارج ميزاب لفترات طويلة ولا يعودون الى ميزاب الا في المناسبات والاعياد، والى جانب هؤلاء هناك التجار كذلك الذين يعملون خارج ميزاب وخاصة في شمال الجزائر وحتى خارج الجزائر ذاتها وتبعا لذلك كله ظهر جيل جديد من الاطفال المولودين خارج ميزاب(244) والذين يبدون ميلا أكثر للاماكن التي ولدوا بها وترعرعوا فيها على حساب موطنهم الاصلي ميزاب الذي أصبح بالنسبة اليهم وكما يقول في هؤلاء الدكتور ابراهيم بن يوسف: "مجرد متحف يجب النظر اليه والحفاظ عليه دون الحياة فيه ودون أن تجلبهم العادات ونمط العيش فيه". (245) وهذا ما يجعلهم يجدون صعوبة في التأقلم والانصهار في الحياة الاجتماعية عند عودتهم الى ميزاب بل هذا الجيل أصبح عامل نقل للافكار والممارسات الخارجية والغريبة الى ميزاب والى أبناء المقيمين به..

كما أن التطور الاقتصادي الذي تشهده ميزاب كان له الاثر الكبير في التحول الذي يشهده النظام الاجتماعي والنمط الحياتي للميزابيين معلنا بذلك دخول ميزاب عصر الآلة والتصنيع،

عصر الحداثة "Modernisme" وبالتالي عصر الاستهلاك.

فالحداثة كما يقول الدكتور ابراهيم بن يوسف "هي من العوامل الاساسية في ارتفاع مستوى الاستهلاك، فنلاحظ في ذلك تكثيف ادخال كل أنواع الالات الكهربائية في المسكن، وأمّت بذلك كل العوامل اليدوية، فالمطابخ جهزت بشتى أنواع الالات المنزلية - الكهربائية وأصبحت غرف الجلوس مكدسة كهربائيا، وأصبحت السيارة ومأربها من الاشياء الضرورية في المسكن الميزابي" (246) ويضيف "بأن وسائل الاعلام قد أثرت الى حد ما في سلوك الفرد بحيث شهد المجتمع، وتحت تأثير الاذاعة والتلفزيون، سلوكا وقيما جديدة ولم يعد ضروري السفر لمشاهدة ما هو في الخارج، فالبنات أصبحن يقلدن "الموضى" في لباسهن عبر ما يشاهدنه في التلفزيون من أفلام ومسلسلات..

وتأثرت التهيئة الداخلية للمساكن بما يرى في القصور الغربية.. (247) أما عن النمط الحياتي للميزابي فقد شهد هو الآخر تحولا عميقا على مستوى هيكلة الحياة اليومية، ففي هذه الهيكلة يتدخل عاملان اجتماعيان هما عامل الزمن وعامل المكان تتمحور حولهما حياة الميزابي اليومية ففي القديم وكما ذكرنا من قبل، كانت الحياة اليومية للميزابي تتمحور حول المسجد وعبر أوقات الصلوات الخمس من صلاة الصبح حيث يبدأ نشاطه الى صلاة العشاء أين ينتهي هذا النشاط، وكان بذلك المسجد أي الدين هو الذي يؤطر ويسير حياة المجتمع، حتى أن فلسفة المكان عند الميزابي كانت ذات أبعاد روحية تذوب أمامها الابعاد المادية الشيء الذي انعكس على القيمة العقارية التي نجدها ترتفع كلما صعدنا من أسفل المدينة (حيث السوق) الى أعلاها (حيث المسجد)، أما الحياة اليومية الآن عند الميزابي يحكمها نظام توقيتي حديث هو نظام اليوم المتواصل أي العمل من الصباح الى المساء بحسب التوقيت التجاري أو التوقيت الاداري والذي بموجبه يصبح الميزابي غير قادر على الذهاب خمس مرات في اليوم الى المسجد، وقليل التواجد في السوق حيث الالتقاء بالاصحاب والتحاور والتشاور معهم، وساعد على ذلك شكل السكن الجديد الذي تبع النمط الحياتي الحديث للميزابي والذي أصبح الوصول اليه باستعمال السيارة لا يجبر السوق والمشي مترجلا داخل القصر وذلك باعتبار وجود هذا المسكن خارجه، ويقول في هذا الدكتور ابراهيم بن يوسف "أن الميزابي بعد تعب يوم من العمل، يرجع في المساء مباشرة الى مسكنه للراحة والترفيه عن النفس عبر مشاهدة التلفزيون" (248) وذلك ليستجمع قواه لليوم الموالي. وهذا بطبيعة الحال أدى الى ظهور معايير

جديدة في فلسفة المكان عند الميزابي اليوم فلسفة ذات أبعاد مادية بخلاف ما كانت عليه في القديم، وانعكس هذا على القيمة العقارية الجديدة التي نجدها تنخفض كلما صعدنا من أسفل المدينة وخارجها الى أعلاها (حيث المسجد)، اذ أن هذه القيمة العقارية لم تعد تحكمها رموز روحية بل أصبح المعيار الوحيد في ذلك هو سهولة الوصول الى المسكن ووجوده في أرض منبسطة الى غير ذلك من أسباب الراحة والرفاهة.

من كل ما سبق اذن نستخلص البعض من أهم سمات العمارة الاجتماعية الحديثة في ميزاب وهي كالآتي :

- ظهور نمط استهلاكي جديد في حياة الميزابيين، أملته التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية العامة التي حدثت في المجتمع، يتصف بالتبني لأنماط حياتية حديثة وأحيانا غريبة عن المجتمع والتوق الى الرفاهة والحداثة.

- بُعد الافراد والجماعات شيئا فشيئا عن دائرة المراقبة الاجتماعية والدينية الناتج عن : ضعف العلاقة التي كانت تربط بين العمارة الاجتماعية اليومية والمبادئ والقيم الفكرية والعقائدية للمجتمع، وتقلص الفاعلية للهياكل المسيرة في المجتمع (العزابة، المجالس العائلية وغيرها...).

- تقلص الروابط العائلية، وتطلع الافراد الى الاستقلالية وعزوفهم عما يقيد حرياتهم.

وما من شك في أن هذه السمات أو بالاحرى هذه العمارة الاجتماعية الحديثة ستنعكس على المعمار في شتى مظاهرة شكلا ومضمونا وسنتولى فيما يلي شرح وتبيان هذه الانعكاسات وتمظهراتها على العمارة في ميزاب.

٢.انعكاس الممارسة الاجتماعية الحديثة على العمارة
- الانتاج المعماري الذاتي

ينقسم هذا الانتاج الى جزئين يمثلان الى حدّ كبير رغبة و طموح اصحابه و المنتفعين به كما يعتبر تلبية لحاجيات ساكنيه حيث أنه كان مصاغا حسب ارادتهم و تحت مراقبتهم . و هذان الجزءان يتمثلان في المعمار التلقائي من جهة و المشاريع الخاصة المصممة من قبل مهندسين معماريين من جهة أخرى .

و سنمرّ فيما يلي الى دراسة انعكاس الممارسة الاجتماعية ، أو بالأحرى سمات الممارسة الاجتماعية الحديثة في ميزاب ، على هذا الانتاج المعماري بجزئية ، و سنبدأ بالجزء الأول و هو المعمار التلقائي .

أ/المعمار التلقائي :

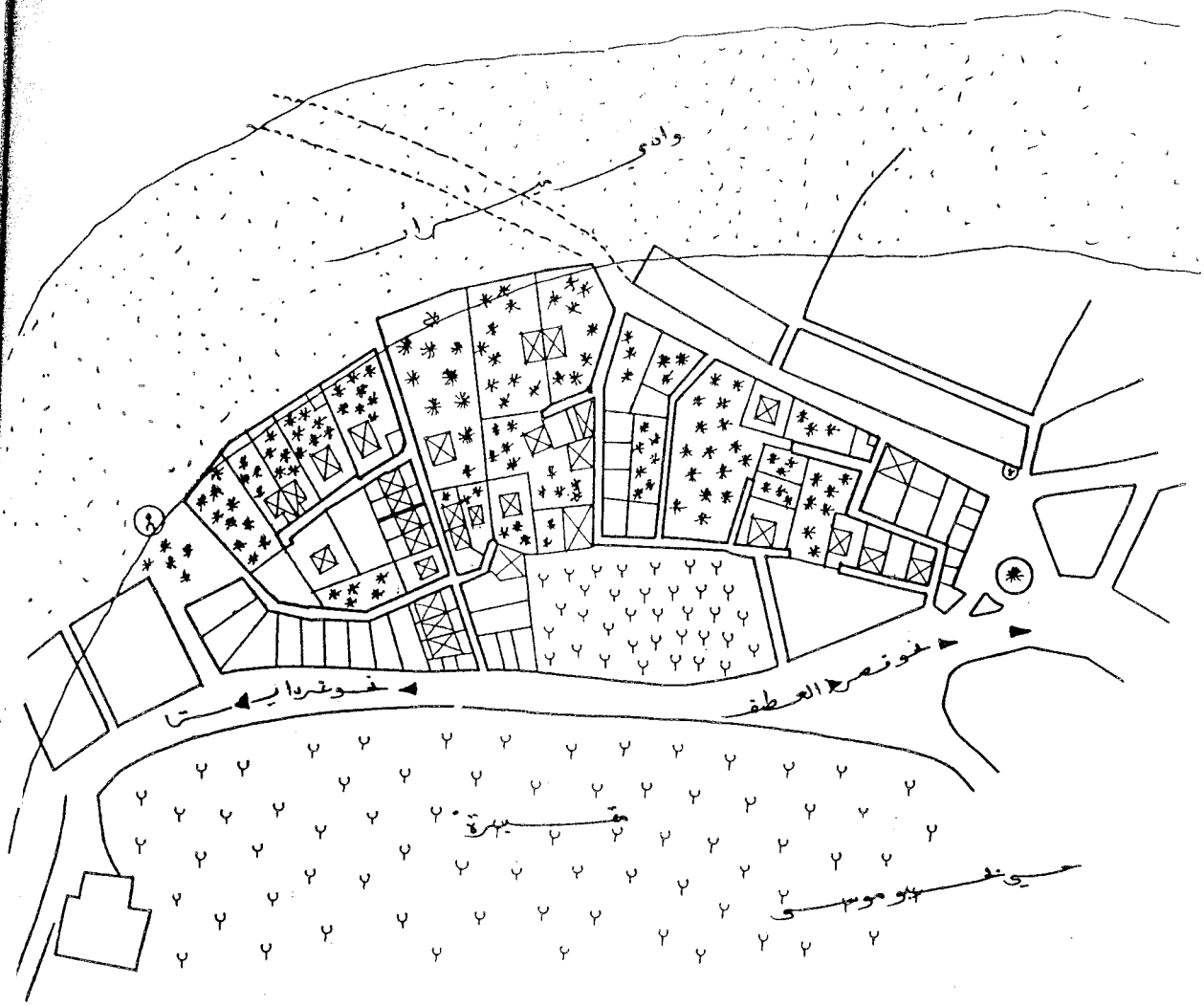
لئن كان المعمار الذاتي بصفة عامة يعبّر ، كما قلنا ، عن رغبة و طموح المجتمع الذي صاغه ، إلا أن الجزء التلقائي منه هو الأكثر إبرازا لهذه الفكرة ، باعتبار أنه كان صياغة مباشرة من المجتمع ، بدون أن يتدخل في هذه الصياغة أي طرف آخر ، كالسلطة مثلا أو مهندسين معماريين ، أو خبراء تعميريين ، فان بذلك تلقائيا ، لا يخضع لأي ارادة سوى ارادة من صاغه ، و بالتالي فهو المرآة التي تعكس الى حدّ بعيد نمط عيشه و منهاج ممارسته المتسمة بتحول عميق على مستويات عدّة .

و لذلك تحتّم علينا اختيار نموذج من هذا الانتاج المعماري التلقائي من ضمن الأحياء الجديدة التي تمثل امتدادات القصور الميزابية ، فتمّ اختيارنا على حيّ "بحيّو موسى" الذي يوجد في مدخل مدينة العطف (أول مدينة ميزابية من حيث النشأة) و الذي يتسم بتجانس وحدة ساكنيه على مستوى التركيبة الاجتماعية لهؤلاء ، اذ يمثلون جزءا من سكان العطف الأصليين (ميزابيين إباضيين) .

و قد بدأ تعمير هذا الحي في السبعينات و يحتوي الآن على أكثر من أربعين مسكنا (40) موزعين على مساحة كبيرة نسبيا باعتبار وجود جلّ هذه المساكن في قطع أرض لا تتجاوز الواحدة منها (500 م^2) ، كما تعرّض حي "بحيو موسى" الى دراسات و بحوث من طرف أخصائيين اجتماعيين و تعميريين ، و وجدنا في النتائج التي توصلوا اليها في بحوثهم سندا لدراستنا .

و في هذا الاطار سنقوم :

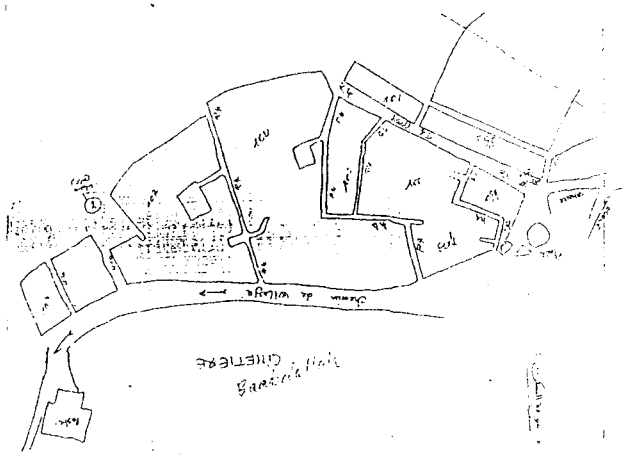
أولا : بقراءة للحي على مستوى تركيبته و تنسيمه ثم على مستوى نسيجه العمراني ، عبر طرقه و مسالكه ، وعبر الكتل التي تكونه و عبر مختلف واجهات مساكنه .


وادي
خوتردايست
خوتصر العطف
مقبرة
حي غوموسي

ثانيا : بقراءة لتركيبة المسكن في هذا الحي و كيفية صياغة فضاءاته ، من حيث الوظيفة و النسب و المقاييس ، لنرى في ذلك كله مدى انعكاس ما توصلنا اليه من سمات الممارسة الاجتماعية الحديثة على هذا النتاج المعماري .

1) فعلى مستوى تركيبة الحي و تقسيم أراضيه ، فهو يتركب أساسا من مساكن تتناحيازة الاراضي التي بنيت فيها عن طريق الشراء أو الارث أو الهبة . و في هذا الاطار نشير الى أن الاراضي في هذا الحي كانت قبل تعميره على ملك خمس عائلات تقريبا تمّ فيما بعد تقسيمها و تعميرها على أساس أن تكون العائلات المتجاورة متقاربة (إما من نفس العشيرة أو من عشائر متقاربة) ، و على هذا الاساس نلاحظ أن مبدأ تقسيم الاراضي حسب العشائر الذي كان في القديم ، لم يعد ثابتا ، باعتبار أن هناك عائلات متجاورة لا تنتمي لنفس العشيرة و تمّت حيازة قطع الارض لمساكنها عن طريق الشراء من طرف عائلات أخرى ، و لكن تبدو أن هناك رغبة من طرف هذه العائلات في تحقيق فكرة الوحدة و الانسجام التي تعتبر تقليداً راسخا في الممارسة الاجتماعية قديما ، و من هذا المنطلق كذلك نجد أن الاقرباء و خاصّة من هم من عائلة واحدة يعمدون الى تحقيق هذه الوحدة من خلال تقارب مساكنهم و تلاصقها ، محاولين بذلك — كما قلنا — استرجاع القاعدة التي بموجبها تختار كل عشيرة أو عائلة منطقة سكنها . وفي هذا الاطار كذلك نجد الاخوة من عائلة واحدة قد قاموا ببناء منازل متجاورة ، متلاصقة ، و في كثير من الاحيان لا توجد فروق بينها مع استقلالية الواحدة منها عن الاخرى الّا أنه توجد بينها أبواب اتصال تربطها ببعضها و تكون هذه الابواب في الحائط الذي يفصل بين الحديقة و الاخرى (انظر الشكل) ، كما أن لحيازة الارض عن طريق الهبة من طرف الاب (لا عن طريق الارث) دلالة أيضا على وجود رغبة من طرف الاب في تحقيق فكرة الوحدة في اطار العائلة و التي تعتبر قاعدة معبّرة و ذات دلالة كبيرة .

و نتيجة لمسح أوّلي للحالات التي تبرز هذه القاعدة ، وجدنا عشرين منزلا (20) من بين أربعين (40) بين ما قد تمّ بناؤه و ما هو في طريق البناء (انظر الشكل) يتوفّر فيها هذا الشرط ، كما أننا لا نجد فروقا بينها على مستوى الشكل الخارجي الا في اللون المستعمل في الواجهة و الذي يختلف من مسكن الى آخر ، و الذي هو تدعيم لمسألة الاستقلالية و الرغبة في التميز التي بيناها في سمات الممارسة الاجتماعية الحديثة و التي ذكرنا فيها أن من السمات التي تبرز التحول في الممارسة الاجتماعية تقلّص الروابط العائلية ، و تطلع الافراد الى الاستقلالية و عزوفهم عمّا يقيّد حرياتهم ، فوجود هذه الرغبة اذن في الاستقلالية ، اضافة الى ظهور نمط استهلاكي جديد في حياة المزابيين ، جعل الافراد في العائلة الواحدة يعمدون الى هذه الطريقة في بناء مساكنهم و لا يبنون مسكنا واحدا كما كان في القديم .



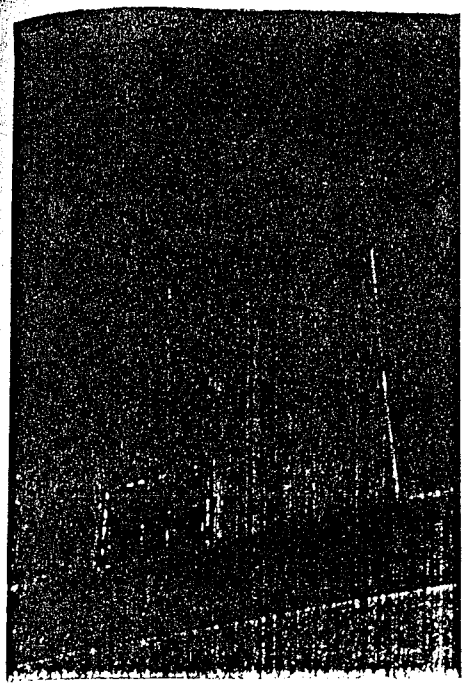
مشروع استمارة بحث "بتيوموكين"
لم يمكن تطبيقه.

ومن تأثيرات النمط الاستهلاكي الجديد للمجتمع، هذا النمط الذي أملى جملة من "الضرورات" كالسيارة مثلا ، الشيء الذي أخذه السكان بعين الاعتبار في تخطيط طرق و مسالك الحي ، و ذلك باحداث طرق تستطيع من خلالها السيارة العبور و الدخول حتى في المساكن ، الا أنها لم تكن مدروسة الدراسة الكافية ، باعتبار أن هذه المسالك التي أحدثوها لا تستوعب أكثر من اتجاه واحد للسيارات و لا يتجاوز عرضها في أغلب الاحيان الاربعة أمتار ، مما يتسبب في اضطراب في طريقة استعمال هذه الطرق و المسالك ، و في هذا الاطار أيضا نجد أغلب المساكن تحتوي على مأرب للسيارة ، و خاصة منها ما هي موجودة على جانب الطريق الرئيسية و التي ربما فيما بعد توظف لغايات اقتصادية . كما أن هذه الطرق و المسالك عادة ما تكون غير نافذة و تفتح فيها جل المساكن بما في ذلك التي تملك واجهة على الطريق الرئيسية ، مما يعكس حرص السكان على الحفاظ على حرمة مساكنهم اضافة الى تدعيم ذلك ببناء الجدران المحيطة بها التي ترفع الى حدود الاربعة أمتار و التي تفتقر الى فتحات ، عدى فتحتي المأرب و المدخل الذي يتميز عادة بانحناءات (CHICANES) تكون نتيجة بناء حائط خلف الباب مشكلا حاجزا بين الداخل و الخارج .

و بقراءة لواجهات مساكن الحي نلاحظ ظهور أنماط و اشكال جديدة لا تمت بأي صلة الى نمط تلك التي في المساكن الميزابية القديمة و التي كانت تفتقر الى أبسط الفتحات أو الزخارف حيث نجد في هذه المساكن الحديثة فتحات كبيرة الحجم و شرفات محمية إما بجدار أو "بمشربية " ، كما تبرز في هذه الواجهات الفتحات الخارجية المحيطة بالمساكن المستقلة و المحاطة بحديقة في أغلب الأحيان .

و يدل ما سبق على تبني السكان لأنماط جديدة في البناء تخضع لقيم أخرى و مقاييس هندسية حديثة خارجية لا تتلائم مع الظروف المختلفة للمنطقة و خاصة منها الطبيعية ، فالفتحات الكبيرة الحجم لا تتلائم و الواقع المناخي للمنطقة كما أنها لا تتلائم مع فكرة الحفاظ على الحرمة (حرمة المسكن) باعتبار مساعدتها على الكشف . لذلك يعمل السكان على اغلاقها كامل الوقت أو احداث حواجز لها من الحديد أو البلاستيك ليقتصر دورها حينئذ على التهوئة ، و لكن اذا أخذنا بعين الاعتبار النمط الاستهلاكي الحديث للميزابيين و الذي يتسم بالطموح الى الحداثة و الرفاهة نجد أن هذه الفتحات لا تؤدي دورا هاما الى جانب المكيفات الهوائية الكهربائية ، مما يمثل انعكاسا لأزمة علاقة الممارسة الاجتماعية الحديثة بالمعمار .

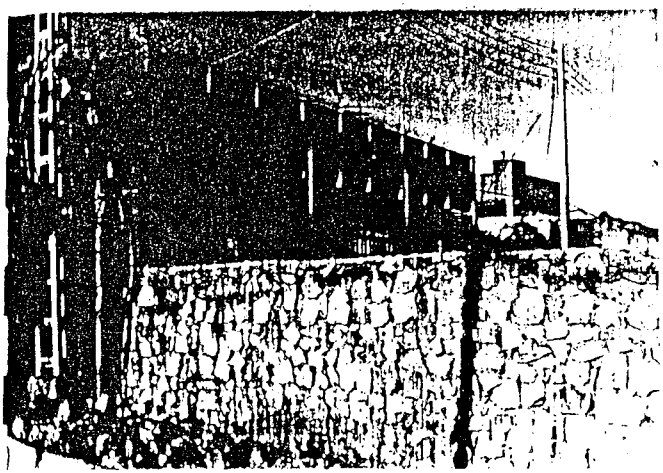
و في هذا الاطار يذكر لنا السكان المستجوبون في هذا الحي أن المسكن الذي يقابل مسكنه يحتوي على شرفات محمية في جزء منها بـ "مشربية" ، و في هذه الشرفات تفتح غرفة الغسيل (BUANDERIE) ، التي غالبا ما تكون مغلقة و لا يتم استعمالها الا في الليل و بطريقة متقطعة ، اذ يقول : "عندما تكون مضاءة في الليل ، و يلمح





بعض المناظر
في
حي "تيومويس"





أهلها شخصا ما من الخارج يسرعون باطفاء النور ، وكذلك يفعلون ، حين يلحظون اشعال النور في حديقة مسكني أو بمجرّد خروجي الى الحديقة ، وهكذا لم تعد غرفة الغسيل هذه ، تقوم بوظيفتها كما ينبغي ، وبالتالي أصبح هناك خلل في المسكن من حيث وظيفته ، كما أن هذه الشرفات تقلقني أنا شخصيا وتقلق عائلتي اضافة الى ما تسبّبه من حرج لأصحابها " . (249)

وأما على مستوى تركيبة المسكن في حيّ "بحيو موسى" وكيفية صياغة فضاءاته ، فنجده يعكس عقلية جديدة ونمط عيش حديث لدى الميزابيين ، حيث لم يعد المسكن الميزابي يلبّي حاجة ساكنيه بشكل مباشر وطبيعي ، كأن تتميّز فضاءاته بامكانية تحدّد النشاطات والوظائف فيها ، أو كأن تكون النسب والمقاييس تتوافق مع ما يحتاجه الانسان من حيز فضائي ، بل نجد في المسكن الميزابي اليوم ومن خلال مساكن "بحيو موسى" فضاءات ذات وظائف محدّدة وأحجام متفاوتة من حيث النسب والمقاييس ، فأصبحت هناك عدّة غرف مغلقة تماما ولا تؤدي أي دور في المسكن ، في كثير من فترات السنة حيث اقتصر احداثها على تلبية رغبة السكان في التوسع ، استجابة للنمط الاستهلاكي الحديث الذي يتجاوز بكثير الحاجيات الحقيقية والمباشرة ، في حين أن حجم العائلة في تقلّص مستمرّ نحو اقتصاره على أفراد الاسرة النوويّة . فمعدل المساحة المغطاة للمسكن يقارب المائتي وخمسين مترا مربعا ($250\ م^2$) باعتبار احتواء المسكن على ثلاث طوابق (طابق سفلي ، طابق أرضي وطابق علوي) مع مساحة أرضية بمائة متر مربّع ($100\ م^2$) .

كما أصبح هناك اعتناء "بالكماليات" في المسكن كالتأثيث المفرط لمختلف الغرف وظهور بعض الزخارف والنقوش وتزيين الحيطان بالصور وغيرها من الزرابي والأنسجة المختلفة ، وتوفير شتّى أنواع الآلات الكهربائية التي تعكس تطلع المجتمع وتوقه الى الرفاهة والحداثة ، ومن ذلك "التلفزيون" والمكيّف الكهربائي الخ ... كما أصبحت الفضاءات ، التي لم يكن لها وزن يذكر في المسكن الميزابي قديما ، باعتبار محدودية النشاط فيها والحاجة الى وظيفتها ، كزاوية المطبخ أو فضاء الاستحمام ، تتمتع حاليا كل منها بحيز فضائي هام ، حيث اصبح المطبخ من الفضاءات التي تتميز باستقلالية تامة عن وسط الدار ، له باب خاص ، ومجهز بكل آلات الطبخ الحديثة وغيرها من التجهيزات الأخرى . كما أصبح فضاء الاستحمام متّسعا ومجهّزا تجهيزا تامّا وحيطانه مغلفة بالخزف (FAIENCES) ممّا يعكس تطوّرا في ممارسة نشاط الاكل نحو مزيد الاستهلاك بتجاوز الحاجة الى المتعة ، ونشاط الاستحمام بتجاوز الحاجة الى الطهارة نحو مزيد الاهتمام بمظهر الفرد وبدنه .

الا أنّنا نلاحظ في تركيبة فضاء المسكن أنه تمّ الحفاظ ، الى حدّ كبير على مبدإ الفصل بين المجال الخاص بالرجال ، والمجال الخاص بالنساء ، وذلك في مستوى التقسيم والهيكلة الداخلية ، وحتى في مستوى الدخول اليه حيث نجد مدخلا للنساء وآخر للرجال .

هذه ملامح سمات الممارسة الاجتماعية الحديثة و انعكاسها على المعمار الذاتي في جزئه التلقائي و فيما يلي سنرى هذه الانعكاسات في المشاريع الخاصة و المصممة من قبل مهندسين معماريين

ب/ المشاريع الخاصة المصممة من قبل مهندسين معماريين :

تعتبر المشاريع الخاصّة و لا سيما منها ما يتعلق بالسكن و المصممة من قبل مهندسين معماريين ، جزءا من الانتاج المعماري الذاتي الذي يعكس كما ذكرنا الى حدّ ما رغبة و طموح أصحابه و المنتفعين به ، فكان بذلك مصاغا حسب إرادتهم و تلبية لحاجياتهم ، و سنأخذ هنا بعض الامثلة لهذه المشاريع ، سواء منها الذي أحدث في الاحياء التي شكلت امتدادات للمدينة أو التي احدثت مكان مساكن قديمة أي بعملية اعادة بناء في الغشاء القديم ، و سنرى مدى انعكاس سمات الممارسة الاجتماعية الحديثة في هذه المشاريع.

و في ما يلي نقدم خمسة مساكن خاصة للدّرس ، كانت من تصميم مهندسين معماريين جزائريين ، أو غربيين عملوا في ميزاب.

1 ـ المسكن الاول :

مسكن خاص بحي أولاد إدّر ببني يزقن من تصميم المهندس المعماري محمد خيرون صاحب مكتب الدراسات العمرانية و التعمير ببني يزقن.

2 ـ المسكن الثاني :

مسكن خاص بحي أولاد إدّر لنفس المهندس المعماري.

3 ـ المسكن الثالث :

مسكن خاص في بني يزقن (حي أولاد ادّر) من تصميم المهندس المعماري ميشال ميرت (MICHEL MEERT).

4 ـ المسكن الرابع :

مسكن خاص في بني يزقن من تصميم المهندسين المعماريين (ا. كنستان و أ. ك. مسون)
(Y. CONSTANT , A.C MASSON)

5 ـ المسكن الخامس :

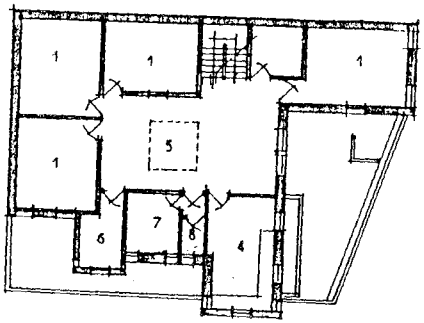
مسكن خاص أعيد بناؤه في الغشاء القديم في بني يزقن.

المسكن الاول (1)

مسكن خاص بحي أولاد إدّر ببني يزقن من تصميم المهندس المعماري محمد خيرون. بني هذا المسكن في

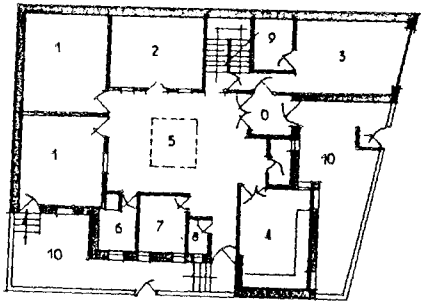
المعاد الـــذاتي .

المنازل القائمة المستقلة من قبل
المهندس سيمون معماريان

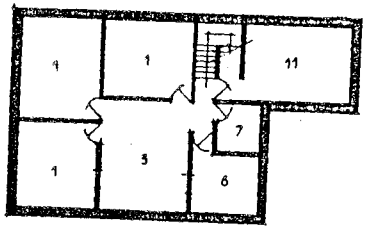


الطابق العـــلوي

المســـقط 1



الطابق الأرضي



الطابق الســـفلي

أرض تبلغ مساحتها (180 م^2) أما المساحة المبنية على الارض فهي تقدر ب : (140 م^2) ، و تبلغ المساحة الجملية المغطاة في هذا المسكن (390 م^2) . يحتوى المسكن على ثلاثة طوابق (طابق سفلي ، طابق أرضي و طابق علوى) تتوزع فراغات المسكن على هذه الطوابق طبقا لبرنامج يحتوى عموما على :

- وسط دار
- وسطية (HALL)
- تزفرى (غرفة جلوس للنساء)
- غرفة جلوس (رجال)
- * 9 غرف نوم
- * 2 مطبخين
- * 3 غرف صلاة
- * 3 بيوت استحمام
- 3 مراحيض
- مخـــزن
- مـــأرب
- اكوســـار (رواق)
- غرفة تسخين (CHAUFFERIE)

يحتوى المسكن على واجهتين تطلان على طريقين متقاطعين ، أما الجانبين الأخريين للمسكن فهما متلاصقان مع المساكن المجاورة الاخرى (MITOYENS) . عندما نلقي نظرة خاطفة على برنامج هذا المسكن و من خلال عدد الغرف وعدد بيوت الاستحمام و عدد المطابخ ، يتبين لنا النمط الاستهلاكي للفضاء الذى أصبح يميّز الميزابيين (المقدرين طبعا) ، و الذى أصبحت تحكمه عقلية الطموح الى الرفاهة و الترف و الحداثة ، بالرغم من حفاظ هذا النمط للمسكن في هيكلته عموما ، على مبدا الهيكلة في المسكن القديم (تمحور مختلف الغرف و الفضاءات للمسكن حول وسط الدار و فصل المجال النسائي على المجال الرجالي) .

الا أنه دخلت عليه نسب جديدة و مقاييس تختلف تماما على ماكان عليه المسكن في القديم (مساحات تفوت بكثير المساحات القديمة) ، مما يعكس طموح الافراد في الاسرة الواحدة الى التفرّد و الاستقلالية»

بحيث أصبح لكل فرد في الاسرة غرفته الخاصة به ، و هذا ابراز كذلك لعملية تبني للنمط الغربي للمسكن من طرف الميزابيين ، بوعي أو بغير وعي . من هذا كله يبقى هذا المسكن بحجمه ، و بالمقارنة من مساكن أخرى ، متوسطا ، باعتبار وجود مساكن تفوق الـ : 600 م^2 في مساحتها الجملية المغطاة . من انحسار حجم العائلة الذى أصبح يقتصر عامة على الاسرة النووية . يحتوى المسكن كذلك على مأرب للسيارة ، و هذا شيء طبيعي باعتبار أن السيارة أصبحت شيئا ضروريا و حاجة تلازم نمط العيش الحديث للميزابيين .

في هذا المسكن كذلك تظهر جليا مسألة الفصل بين المجال الرجالي و المجال النسائي و ذلك عبر :

1 ـ وجود مدخلين للمسكن ، مدخل خاص بالنساء و الآخر خاص بالرجال .

2 ـ تقسيم المسكن الى مجالين واضحين من حيث التوزيع الفضائي الافقي و العمودي (انظر الرسوم ...) أحدهما مخصص للرجال و الآخر للنساء .

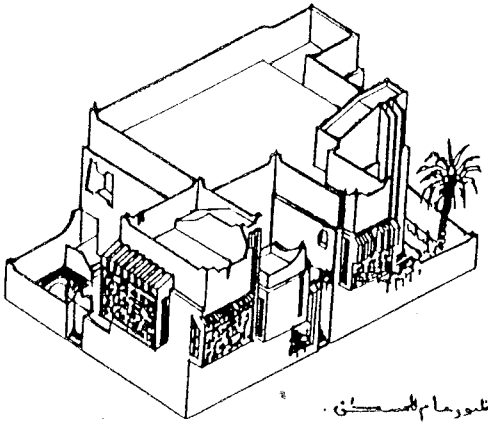
أما مسألة حرمة المسكن فتبرز المحافظة عليها عبر الحواجز الموجودة في مختلف المداخل للمسكن و ذلك بانحناء (CHICANE) أو بحاجز متمثل في حائط يحجب الرؤية عن الداخل أو يفصل بين الداخل و الخارج في شكل (SAS) .

و بالنظر الى واجهات هذا المسكن من حيث الشكل و المضمون نجد أن هناك رغبة كبيرة في الظهور و البروز من خلال الأشكال الهندسية المختلفة للواجهة و النوافذ الكثيرة المختلفة و الكبيرة الحجم التي صيغت في جملتها بطريقة و بشكل يجلب الانتباه ، و يعكس هذا النمط سمة من سمات التحول في الممارسة الاجتماعية الحديثة في ميزاب التي تبرز لنا بعد الافراد و الجماعات شيئا فشيئا عن دائرة المراقبة الاجتماعية و الدّينية ، حيث أصبحت فكرة عدم البروز و التظاهر في مستوى واجهات المساكن فكرة منسية و متخافل عنها و حلّ محلها حب البروز و اظهار التفوّق المادي و المكانة الاجتماعية ، و تدعيما لذلك تستعمل شتى أنواع مواد البناء في الواجهات من خزف و حديد و أخشاب و أحجار و غيرها ، اضافة الى الالوان المختلفة و بعض الزخارف .

المسكن الثاني (2)

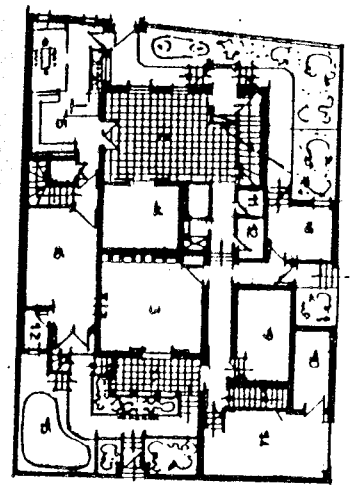
مسكن خاص بحي "أولاد ادّر" لنفس المهندس المعماري . بني هذا المسكن في قطعة أرض تبلغ مساحتها (300 م^2) ، أما المساحة المبنية على الأرض فهي تقدّر بـ : (250 م^2) و تبلغ المساحة الجملية المغطّاة في هذا المسكن (620 م^2) . يحتوى المسكن على ثلاثة طوابق (طابق سفلي ، طابق أرضي و طابق علوي) تتوزّع فراغات المسكن على هذه الطوابق الثلاثة طبقا لبرنامج يحتوى عموما على :

ـ وسط دار

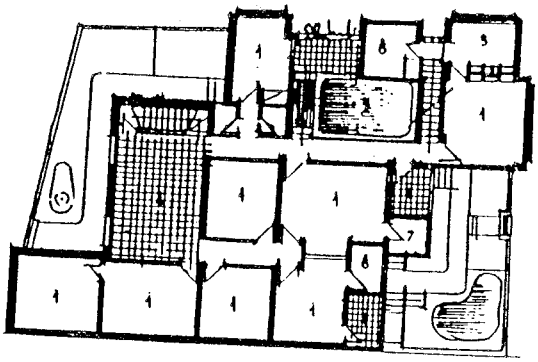


منظور عام للمسكن

المسكن 2



الطابق الأرضي



الطابق العلوي

- وسعاية
- رواق (VERANDA)
- 3 مسطحات (TERRASSES)
- 14 غرفة نوم
- ? غرفة جلوس رجالي
- تزهـرى
- مطابخ
- 5 بيوت استحمام
- 3 مراحيض
- حمـام
- ? مسبح (PISCINES)
- مكتب
- مـأرب
- بيت تسخين (CHAUFFERIE)
- ? غرف صلاة

يحتوى المسكن على ثلاث واجهات و جانب رابع ملاصق للمسكن المجاور (MITOYEN) باعتباره محاطا بثلاثة طرق أحدها غير نافذ (IMPASSE) . يعتبر هذا المسكن أكبر حجما من المسكن (1) و ذلك نظـرا للبرنامج المخصص له و الذى يعكس الوضعية المادّية الإجتماعية لصاحبه . فمن خلال عدد الغرف فقط الذى يعدّ أربعة عشر غرفة ، أو عدد بيوت الاستحمام الذى يبلغ الخمسة ، أو عدد المسابح وغيرها ، يتضح لنا مدى طمـوح الاشخاص الى ابراز مقدرتهم المادية في مستوى الاستهلاك للحيز الفضائي .

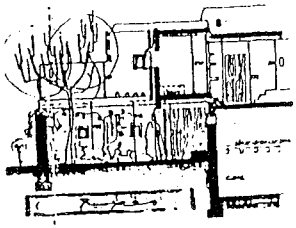
و بخصوص هذا المسكن سوف لن نضيف أكثر مما ذكرناه بالنسبة للمسكن الأوّل باعتبارهما يعكسان نفس الشّيء من حيث نمط العيش الحديث و الرغبة في الظّهور و الإستهلاك المفرط للفضاء بدون أى مبرّر ، إلاّ أنّنا نزيد على هـذا تميّز هذا المسكن على الاوّل بدرجة الرفاهة المرتفعة جدا فيه ، بالنظر الى ما يحتويه من حمام و مسابح و غرف إستحمام ، و ذلك رغم قلة المياه في ميزاب و صعوبة توفيرها ، إضافة الى عدد مداخله و درجة التّعقيد في توزيع أجزائه و اختلافه الواضح على مستوى الهيكلة عموما .

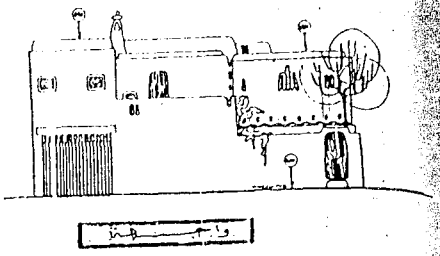
المسكن الثالث (3)

مسكن خاص في بني يزقن بحي "أولاد إدر" من تصميم المهندس المعماري ميشال ميرت (MICHEL MIERT).

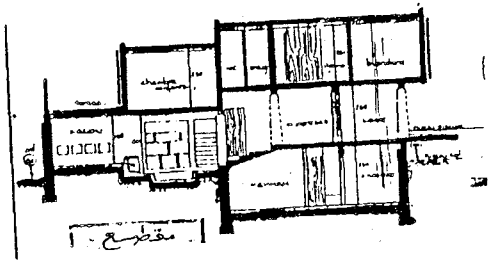
لا يختلف هذا المسكن كثيرا على المسكن الذي سبق على مستوى البرنامج الذي يميّزه، لا من حيث تعدّد الفضاءات ولا من حيث درجة الرفاهة (DEGRÉS DE CONFORT) التي يتمتّع بها، فظاهرة الاستهلاك الفضائي تبدو واضحة وجلّية في هذا المسكن الذي سعى فيه صاحبه الى الإكثار من الفراغات والفضاءات وفي بعض الاحيان تكرارها في الطوابق الثلاثة التي يتركّب منها المسكن وذلك لاستعمالها وتوظيفها حسب الفصول السنوية أي أن هناك فضاءات تستعمل في الصيف في حين تبقى الاخرى بدون وظيفة وفي الشتاء ينقلب الموضع فتصبح الفضاءات الغير مستعملة في الصيف توظف في الشتاء. هذا ما جعل تصميم هذا المسكن يتميّز بتعقيدات كبيرة على مستوى التوزيع الفضائي والربط بين مختلف الفراغات والمجالات، حتى اننا نجد صعوبة في البحث عن الفصل بين المجال النسائي والمجال الرجالي، الذي يبدو واضحا فقط في بعض الجزئيات كوجود مدخلين للمسكن، (مدخل للنساء وآخر للرجال)، أو بعض الحواجز الموجودة داخل المسكن، والتي تحجب الرؤية وتمنع الكشف بين مختلف الفضاءات كالحائط الموجود في "صالون" الشاي والذي يحجب المدرج المؤدي الى غرفة النوم الخاصة بالوالدين في الطابق العلوي، كما أن هذا المسكن يختلف عن غيره من المساكن ولا سيما عن المساكن التقليدية، في مستوى الهيكلة، حيث لم يعد "وسط الدار" هو الذي يتمحور حوله بقية الفراغات، بل أصبح هو نفسه كبقية الأجزاء المركّبة للمسكن فلا يعدو أن يكون غرفة كبقية الغرف. كما يختلف هذا المسكن كذلك عن المسكن (1) والمسكن (2) بالحديقة التي تحتلّ قرابة ثلث الارض المخصّصة له، وهي مقسّمة الى ثلاثة قطع كل واحدة منها مرتبطة بمجال من المجالات في المسكن، القطعة الاولى من الحديقة مخصّصة للرّجال والثانية للنساء، في حين تبقى القطعة الثالثة للعائلة العامة أو بالاحرى خاصة بالاطفال باعتبارها مرتبطة أساسا بمجالهم كما يوجد المسبح بجانبها.

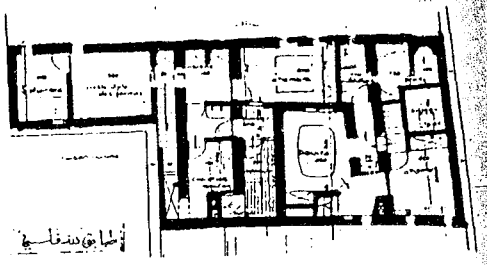
ونستشف من خلال برنامج هذا المسكن الذي يتميّز بالكثافة والتنوّع في الفضاءات، والتوزيع المعقد للفراغات، الطموح الى التفرّد والاستقلاليّة والنّزوع الى التميّز والرّفاهة والحداثة، كما تبرز لنا من خلال ما سبق كذلك فكرة توظيف المسكن كامل السّنة نظرا لعدم حاجة أهله لمسكن ثاني في الواحة التي لا تحتوي على المرافق الحديثة الكافية والتي لم تعد تلاقي الاهتمام الذي كان يوجّه اليها سابقا، باعتبار هجر السّكان للفلاحة من ناحية (تحوّل النّمط الاقتصادي والمعاشي)، واعتمادهم على التكييف الاصطناعي لمساكنهم دون الحاجة الى التكييف الطبيعي من ناحية أخرى.

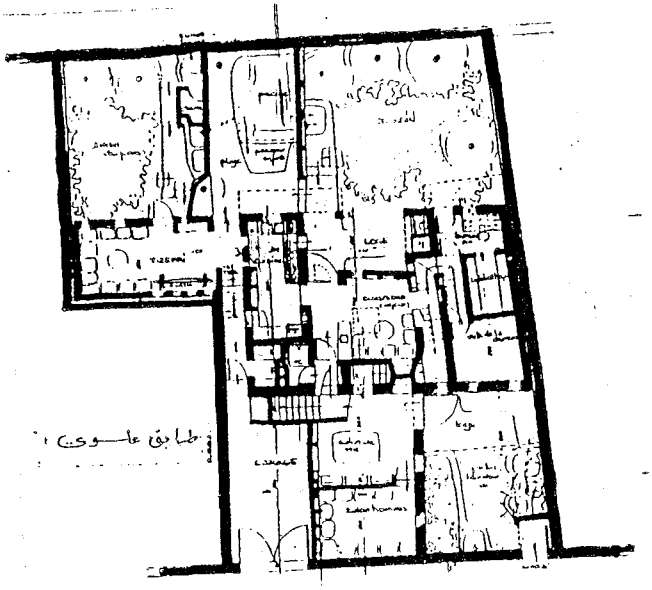


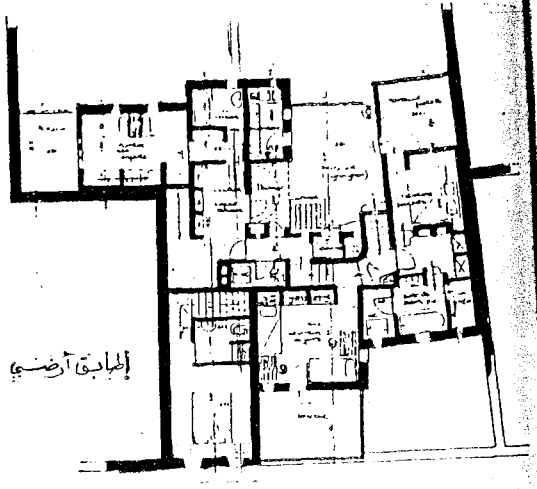


المسكن الثالث









السكـــن الرّابـــع (4)

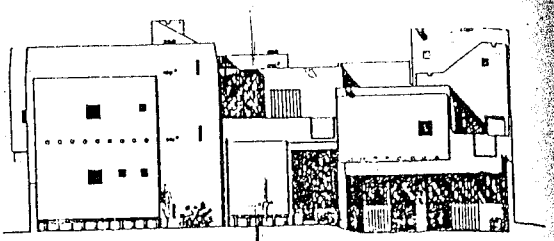
مسكن خاص في بني يزقن ، من تصميم المهندسين المعماريين ل ـ كنستان (Y. CONSTANT) و أ.ك مسّون (A.C MASSON) .

يحتوى هذا المسكن على برنامج ضخم موزّع على ثلاثة طوابق . سوف لن نظيف أشياء أخرى أو ملاحظات تختلف عن التي أوردناها بخصوص المسكن الذى سبق أي المسكن (3) باعتبار التقارب بينهما من حيث الكثافة وطبيعة الفضاءات وتعدّدها إلاّ أنّ هذا المسكن تمّ تصميمه حسب رغبة صاحبه في إعطاء الفضاءات الصّبغة الفردية . الشيء الذى أثر في التّوزيع العام لمختلف الفضاءات والاستهلاك الكبير الذى أحدثه ذلك في مساحات التنقل (CIRCULATION) ، ونحن اذ نورد هذا المثال أي المسكن (4) فلمزيد ابراز فكرة الاستهلاك المفرط للفضاء وانعكاس الممارسة الاجتماعية الحديثة على المعمار الذّاتي ،والتأكيد كذلك أن هذا النّمط للمسكن الحديث منتشر بكثرة في ميزاب ولا سيّما في الأحياء التي تعتبر امتدادا مباشرا للقصور كحيّ أولاد ادّر في بني يزقن الذى اخترنا منه هـــذه النماذج .

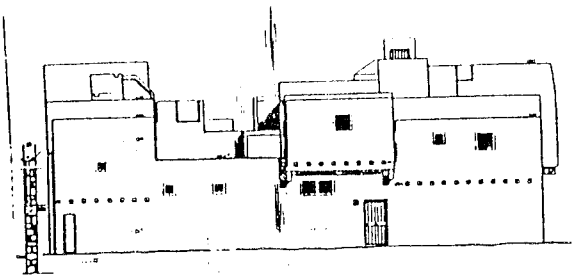
السكـــن الخامـــس (5)

مسكن خاصّ تمّ بناؤه مكان مسكن قديم وقع هدمه بعد أن تداعى للسقوط ،ويوجد هذا المسكن في قصر بني يزقن ونقدم هذا المسكن كمثال أو نموذج من المساكن التي أعيد بناؤها من جديد في الغشاء القديم ،وصمّمت من قبل معماريين . ونعرض هنا الامثلة والمقاطع والواجهات لكلّ من المسكن القديم والمسكن الجديد الذى حل محلّه لنأخذ فكرة عن كيفية اعادة بناء مسكن قديم ولنجرى مقارنة سريعة بينهما حتى تتضح لنا أكثر انعكاسات سمات الممارسة الاجتماعية الحديثة على هذا النوع من المشاريع الخاصّة .

لم يكن المسكن القديم يحتوى على أكثر من طابقين أي طابق أرضي وطابق علوى ،في حين يحتوى المسكن الجديد على ثلاثة طوابق (طابق سفلي وطابق علوى) ، اضافة الى السّطح . وهذه الاضافة في الطوابق باحداث طابق آخر سفلي أى تحت أرضي ،تعكس لنا رغبة صاحب المسكن في مزيد الفضاءات واستغلال الرقعة الارضية التي يحتلها المسكن أكثر ما يمكن ،اضافة الى ما يوفره الطابق السفلي من برودة هواء في الصّيف ودفء في الشتاء . وبالرغم من حفاظ هذا المسكن على النظام القديم في هيكلته الا أنّه يختلف كثيرا عن المسكن القديم من حيث المقاييس وعدد الغرف والفراغات اضافة الى النسب الجديدة التي يتّضح اختلافها جليّا عن النّسب القديمة ،

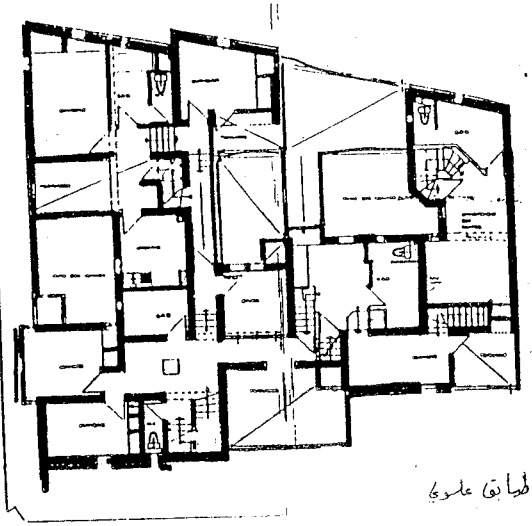


واجهة غربية

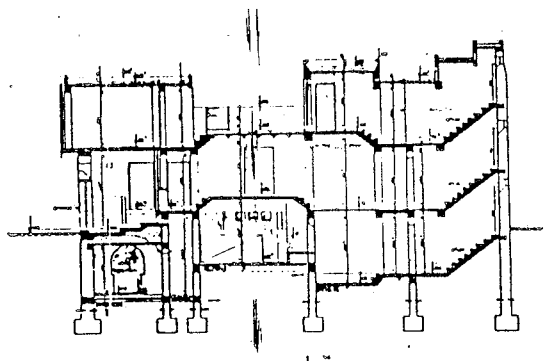


واجهة

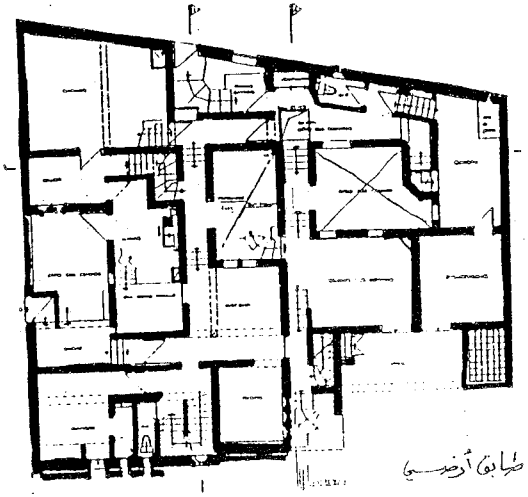
المسكن الرابع



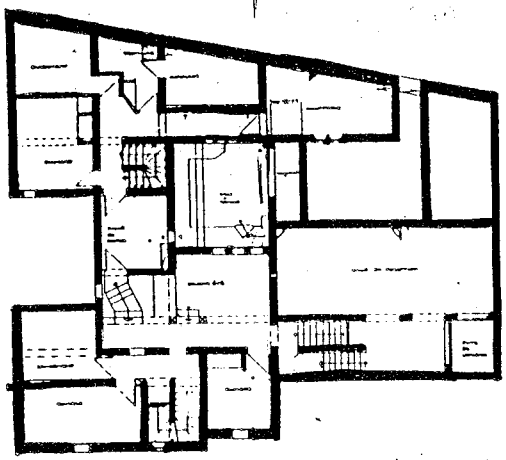
طابق علوي



مقطع



طابق أرضي



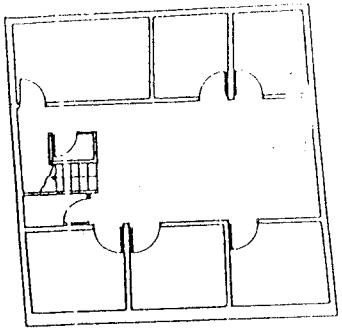
طابق مفلسح

ويبدو هذا واضحا من خلال الامثلة (PLANS) أو من خلال المقاطع (COUPES)، فالمقاطع تبرز لنا جيّدا الارتفاع تحت السقف الذي لا يتجاوز المتر والثمانين سنتمترا (1م80) في المسكن القديم، في حين يساوي (2م90) في المسكن الجديد، وهذا يعكس نمط العيش الحديث، والذي أثر على استعمال الفضاء، بحيث لم يعد ارتفاع (1م80 أو 2م00) تحت السقف كافيا، اذا اعتبرنا استعمال الكرسي والطاولة للجلوس والأكل والدراسة، بالاضافة الى الاثاث الآخر الذي يتطلّب ارتفاعا كافيا لنقله وتركيزه. أضف الى ذلك كلّه طموح صاحب المسكن الى الرّاحة والرّفاهة في استعمال فضاءات متّسعة وكبيرة الحجم (هذا حسب اعتقاده طبعا) ناسيا ما يحدثه ذلك من انعكسات مناخيّة سيئة داخل المسكن، لا سيّما وأن هذا المسكن مبني بطريقة حديثة واستعملت فيه مواد بناء لا تتلاءم مع الواقع المناخي والمحيط الطبيعي للجهة (كالاسمنت المسلّح وقوالب الاسمنت " PARPAING ")

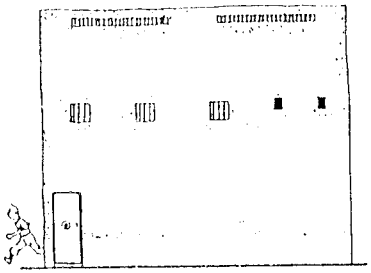
الملاحظ كذلك في هذا المسكن انه لم تراعى فيه مسألة الفصل بين المجال الرجالي والمجال النسائي باعتبار وجود المدرج وسط الدار بحيث لا يمكن النزول الى الطابق السفلي عبر المرور بوسط الدّار، الشيء الذي يسبّب ارباكا واخلالا في وظيفة المسكن ـ أضف الى ذلك وجود باب الدّار مباشرة أمام باب غرفة الاستقبال للرجال ممّا يفقد المسكن حرمته التي كان يتمتع بها قبل تجديده، وبالاضافة الى هذا حصل تغيير آخر على مستوى الطّابق العلوي حيث أصبح (الايكومار) الرّواق موجّها الى الناحية الشرقية الشمالية عوضا عن الناحية الجنوبية وكذلك موقع الفتحة العلويّة الأفقيّة (الشّباك) التي لم تعد تؤدّي الدور الذي كانت تؤديه فيما قبل (ادخال الشمس في الصباح والاضاءة كامل النهار). وهذا الارتباك الحاصل في نظام الهيكلة والتوزيع المجالي لفضاءات هذا المسكن ناتج عن عدّة أسباب :

أولها : سرعة انجاز التصميم واعداد الملف الخاص بطالب الرّخصة (رخصة البناء) للشروع في البناء واعداد المسكن في وقت سريع.

ثانيهما : عدم الملمام المعماري الذي قام بتصميم هذا المسكن بالمحيط الاجتماعي والطّبيعي لساكنيه وبالتالي عجزه عن ايجاد الحلول الكفيلة لعدّة مسائل، كمسألة الفصل بين المجال النسائي والمجال الرّجالي ومسألة حرمة المسكن، اضافة الى جهله بوظائف كل فضاء من فضاءاته وابراز ذلك على مستوى الأمثلة (PLANS) ومثال ذلك أنّه في حين تبيّن لنا جليّا غرفة الجلوس للنساء (التزفري) في البيت القديم، على مستوى الحجم والموضع والشكل والفتحات، تغيب هذه الغرفة في البيت الجديد ولم تعد واضحة، فالفراغات كلّها متشابهة من حيث الحجم والشكل والمساحة الخ...

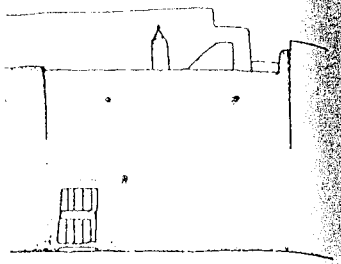


الطابق السفلي (حديثا)



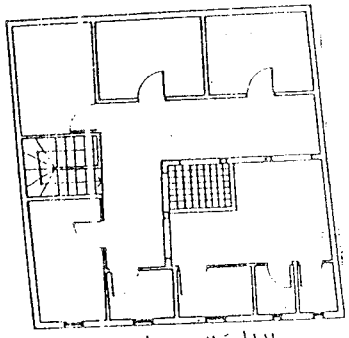
الواجهة

3

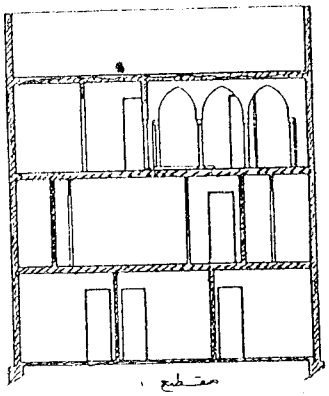


الواجهة

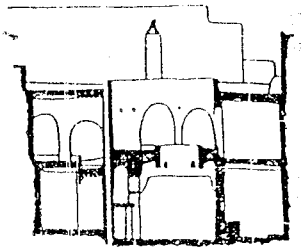
المسكن الخامس (مسكن أعيد بناؤه في القصر)



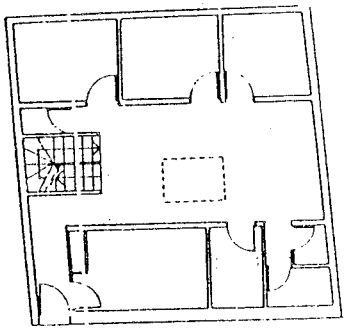
الطابق العلوي (حديثا)



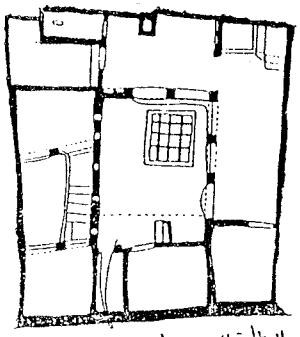
مقطع



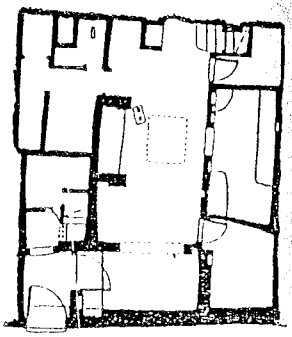
مقطع (المسكن قديما)



الطابق الأرضي (حديثا)



الطابق العلوي (قديما)



الطابق الأرضي
(المسكن قديما)

وبمقابلة أمثلة المسكن القديم مع أمثلة المسكن الجديد يمكن لنا ملاحظة الاختلاف الكبير بينهما والذى سبق تقديمه وشرحه. وبهذه الطريقة أيضا يمكن ملامسة الفارق على مستوى المقاطع والواجهات في نمط البناء والنسب والمقاييس المستعملة فيه.

خلاصة :

تظهر انعكاسات الممارسة الاجتماعية الحديثة في ميزاب على المعمار الذاتي في :

- التغيّر في القيمة العقارية للأراضي الناتج عن تحوّل في فلسفة قيمة المكان لدى المجتمع من الاعتماد على القيم الروحية الى القيم المادية ،
- ظهور نمط سكني منفرد ومستقل ناتج عن تقلص الروابط العائلية وتطلّع الأسر والأفراد الى الاستقلالية وعزوفهم عمّا يقيّد حرّياتهم.
- الارتفاع المفرط في استهلاك الفضاء يتجاوز الحاجة ، والاهتمام بمظهر المساكن وواجهاتها ... الناتج عن انفصال المعمار الذاتي عن المبادئ العقائديّة والفكرية الأصليّة للمجتمع كانعكاس للتحول الفكرى له ،وبعد أفراده وجماعاته عن دائرة المراقبة الدينية والاجتماعية.
- ظهور فضاءات جديدة في المسكن (المأرب، المخزن ...) الناتجة عن تغيّر النمط الاقتصادى والحياتي للسّكان.
- تغيّر الفضاءات وطبيعتها ومقاييسها وظهور عناصر الرّفاهة (مطبخ ،شرفة استقبال متنوّعة ،غرف استحمام متعددة ، مسابح ، ...) الناتج عن ظهور نمط استهلاكي جديد وتوق السّكان الى الحداثة والرفاهة.

٣- السلطة واستراتيجية التغيير
- المخططات التعميرية :

أ - مثال التهيئة لرافيرو 1962 - 1972

يعتبر مثال التهيئة الذى جاء به رافيرو ردّة الفعل الأولى التي جاءت ضدّ التدهور العمراني الذى شهدته مدن وادى ميزاب حيث أن سرعة التحوّلات المجتمعيّة وتطوّر مشاريع واهتمامات السكّان جعلت التّطور العمراني لا يخضع لأية مقاييس أو ضوابط ، فحاول رافيرو في مثال التهيئة الذى جاء به الحدّ من هذا التدهور ورسم الخطوط العامة للنمو المعمارى والتعمير في الجهة فكان لهذا المثال الفضل الكبير في تحسيس المواطنين

وخاصّة المسؤولين منهم بأهمّية الرّصيد المعماري الذى تملكه الجهة من ناحية ،وبخطورة وضعيته من ناحية أخرى وكنتيجة لذلك عملت السلطة على ادراج منطقة وادى ميزاب ضمن المناطق التاريخية التي يجب صيانتها والمحافظة عليها باصدار قرار في ذلك سنة 1971 ·

الاّ أن هذا القرار قوبل بردّ فعل كبير من قبل السّكان الذين شعروا بأنفسهم وكأنهم عناصر متحفية عتيقة وكما شعروا بعملية كبت وتكبيل لطموحاتهم في تغيير وتطوير نمط حياتهم ومحيط معمارهم وذلك بمنعهم من تغيير وظائف مبانيهم الأصليّة أو تحويلها أو هدمها لتجديدها اضافة الى منعهم من البناء فوق الهضـــاب واجبارهم على اتخاذ كتل وأشكال وألوان محدّدة فقاموا بارسال أكثر من ثلاثة آلاف برقية في أسبوع واحد لمعارضة هذا القرار الا أن السلطة واصلت تدعيمه والتأكيد عليه باحداث مكتب للدراسات المعمارية في ميزاب سنة 1972 ، يتكفّل بمراقبة عمليات البناء والتهذيب التي تحصل في الجهة ،ويتمتع بالصلوحيات الكافية لمنح كلّ ما يراه منافيا للاطار العمراني ·

الا أن نجاح رافيرو في لفت الانتباه لمعمار وادى ميزاب وللوضعية التي هو عليها قابله من ناحية أخرى فشل في تحديد اسلوب تطوير هذا الرصيد والنهوض بالواقع المعمارى للجهة الذى واصل التدهور رغم كـل وسائل التنظيم والمراقبة ·

لقد أخطأ رافيرو أوّلا : في كيفية التعامل مع الرصيد المعمارى التاريخي حيث نظر اليه نظرة متحفيـة فحاول تحنيطه بجعل الأولوية في أهدافه كما يقول الدكتور ابراهيم بن يوسف المحافظة على الاطار المعمـــارى التقليدى للقصور وذلك برسم الاهداف الثلاثة التالية :

- منع أي امكانية امتداد في الغشاء العمراني الحديث ،
- الحفاظ على مناظر القصور ،
- الحفاظ على النمط التقليدى للاطار المعمارى ·

ونتيجة للتعامل المتحفي التحنيطي لرافيرو مع هذا الرّصيد المعمارى مما يمثل ذلك من تناقـض مع صفة التّحرّك والتطور للمجتمع في الفكر والممارسات فقد تفاعل السكان مع هذا الرّصيد باحدى الطريقتين التاليتين :

1 ــ ترك واهمال هذا الرصيد من قبل أصحابه في انتظار سقوطه لتجديده ثانية وذلك في غياب المؤسسات القادرة على الصيانة ،

2 ـ تجاوز مخطط رافيرو من قبل المواطنين وحتّى المصالح الادارية في بعض الأحيان نحو رفع القيود "المجحفة" عن عمليتي البناء والتعمير.

أمّا الخطأ الثاني الذي ارتكبه رافيرو في مثال التهيئة فيتمثل في المعمار الذي خطط له، حيث أننا لا نجد علاقة متينة بين الشروط التي وضعها للبناء وبين النمط المعماري المعروف في ميزاب الاّ من حيث بعض الشكليات ومن ذلك اننا نجد في القواعد العامة التي وضعها للبناء في كل المناطق، اجبارية وجود مساحة "للحديقة" مؤكّدا على مقاييس التراجع بين البنايات التي تختلف من منطقة الى أخرى والتي لا تقلّ عن 1,5 م

يقول رافيرو : Regles générales Applicables à toutes les zones

Dans tout lotissement, qu'elle que soit sa vocation, la surface de chaque Lot doit comporter :
Une surface à batir
Une surface libre
Ces surfaces sont variables suivant la zone dans laquelle Le lotissement est inscrit » (250)

ويقول في مكان آخر : Chaque terrain Comportera obligatoirement une Surface batie au sol et une surface libre reservée au jardin (251)

وهذا النمط من البنايات المنفردة، "فيلات" الذي يريد رافيرو أن يبرره بالاستناد الى المساكن الموجودة في الواحة لا يمكن أن يستقيم سواء من الناحية الاقتصادية الفلاحية أو المناخية أو الاجتماعية وهذه المساكن التي ستبنى فوق مساحات تختلف من 200 الى 450 م² فما فوق يمكن أن تتسبب في المشاكل التالية :

1) احتلال مساحات كبيرة من الواحة لفائدة المباني خاصّة بمنح البناء فوق الهضاب،

2) تهديد الفلاحة حيث أن هذه المساحات المتبقات والغير مبنية "الحديقة" كما يعبّر عنها رافيرو ولا يمكن بأي حال من الأحوال فلاحتها كما كان في السّابق اضافة لانحسار اهتمام السكان بالنشاط الفلاحي.

3) التسبّب في اكتضاظ المباني في الوادي وما ينجرّ عن ذلك من مشاكل النقل وارتفاع النسبة السكانيّة ... كالذي تشهده بقية مدن العالم ، اضافة الى امكانية تجاوز الارتفاع الاقصى الذى حدده رافيرو للمباني والذى لا يجب أن يتجاوز الارتفاع الأقصى الذى حدده رافيرو للمباني والذى لا يجب أن يتجاوز ممّا يعمل على التأثير على المفاهيم والعلاقات الاجتماعية من ناحية (الكشف، الظل ...) ،وطمس الطابع المعماري المميز للمنطقة .

4) ارتفاع تكلفة المسكن الواحد حيث أنه لا يشترك مع غيره في الحيطان مع اجبارية اقتناء مساحة أرضيّة هامة لتوفير مسافة للبناء والحديقة مع الحاجة المرتفعة الى الطرقات التي يشترطها رافيرو والتي لا تختلف عن طرقات المدن الكبرى .

5) صعوبة عملية التطهير وارتفاع تكاليفها .

6) تعرض هذه المساكن باعتبارها منفردة ومستقلة الى عوارض الطقس الشديدة وخاصة منها الحرارة .

7) الحد من المراقبة الاجتماعية .

8) تكريس الفردية والحدّ من مكانة العلاقات الاجتماعية .

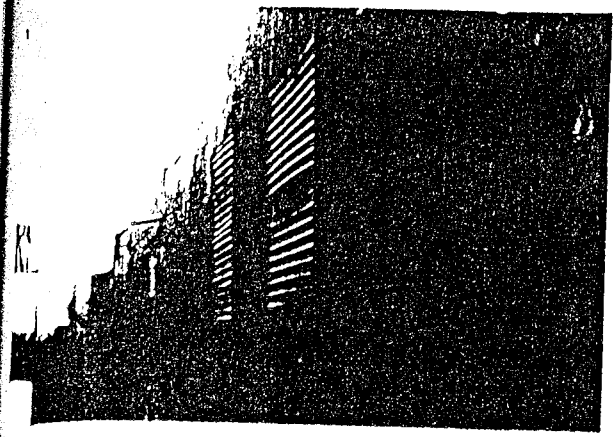
أما ما يظهر من اهتمام رافيرو بما هو مظهري وشكلي تأكيده على البعد الجمالي البحت لعناصر البناء التي يجب أن تتناسق مع الأشكال التقليدية للمعمار حسب تعبيره . وفي هذا الاطار ،ينظر الى مسألة المقاييس ويؤكّد عليها على أنّها العنصر الجمالي الاساسي لمعمار وادي ميزاب[252] كما بين أنه يجب أن تكون تركيبة ولون وشكل عناصر الحيطان مطابقة للنمط "التقليدى "وعلى صورته[253] واضافة الى ذلك فانّ الواجهات يجب أن تكون على هيئة الواجهات "التقليدية" في مقاييسها وفتحاتها ومختلف عناصرها يقول رافيرو

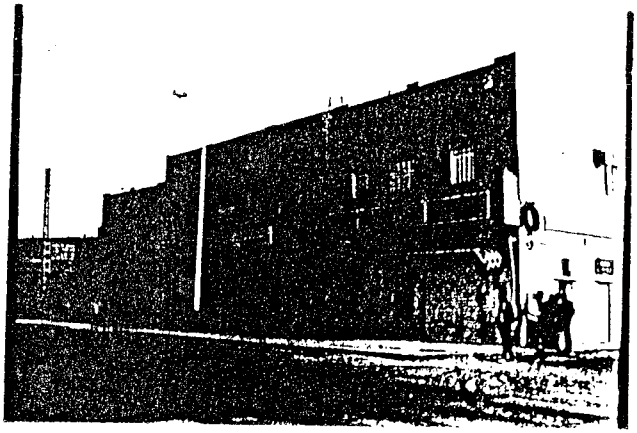
" Par leurs textures , leurs percements , leurs échelles , les façades seront apparentées aux façades traditionnelles" (254)

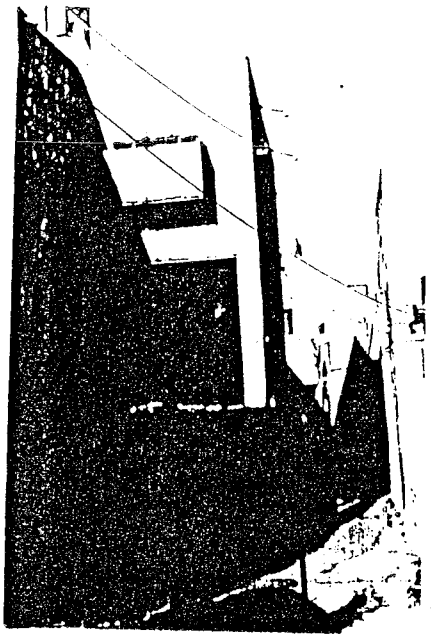
أما الكتل والاحجام فانه يربطها بالكتل والاحجام التقليدية من حيث البروز والتّراجع، بل ان تأكيد رافيرو على الشكل والمظهر دون المضمون يظهر جليّا في تأكيده على وجوب بناء الأروقة في الساحات والطرق التجارية والتي يجب أن تكون في مقاييسها مطابقة لمقاييس الأروقة "التقليدية" بأي وسيلة كان ذلك ولو باحداث شرفة اذ يقول :

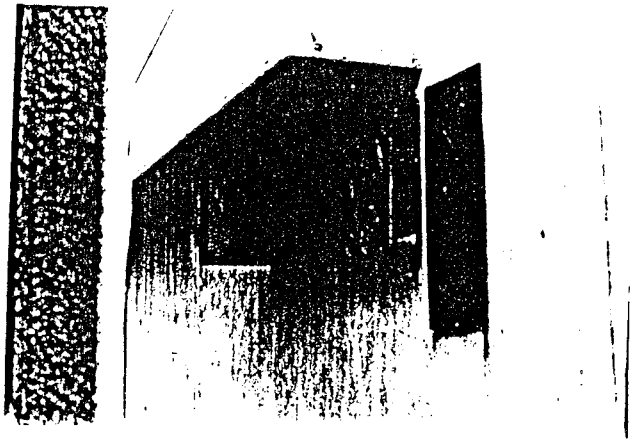
« L'échelle des portiques traditionnels doit être retrouvée par un moyen architectural.

Ce passage peut être couvert , soit par un treillis leger soit par un balcon , soit par un étage » (255)









الا أن ذلك لا يمكن أن يطعن في نية رافيرو ومن وراءه السلطة في محاولة النهوض بالرصيد المعماري التاريخي لوادي ميزاب والمحافظة عليه باعتباره جانبا هاما من الذاكرة الجماعية للمجتمع بل ربّما لو لم يقع العمل والتأكيد على هذا المثال وتدعيم ذلك بمكتب الدراسات لاندثر جانب هامّ وكبير من هذا الرّصيد . لكن عدم قدرة رافيرو ــ باعتبار عدم انتمائه حضاريا لهذا المجتمع ــ على ربط الشكل بالمضمون ومبالغته في التأكيد على ما هو ظاهري وشكلي مع محاولة تحنيط كل ما هو تقليدي رغم عدم ملاءمته للممارسة الحديثة للمجتمع التي تختلف اختلافا كبيرا عن ممارسة المجتمع الذي صاغ هذا النتاج المعماري قبل قرون عديدة ،أحدث :

- اختلافا بين المعمار التاريخي "المجمّد" والمجتمع المتحرّك ،
- اختلافا بين المعمار التاريخي والمعمار المستحدث ،
- اختلافا بين المظهر الخارجي والداخلي للبنائات ،
- اختلافا بين شكل البنائات ومضمونها ووظيفتها .

ــ مثال التهيئة لألبير سبير 1973 ــ 1988

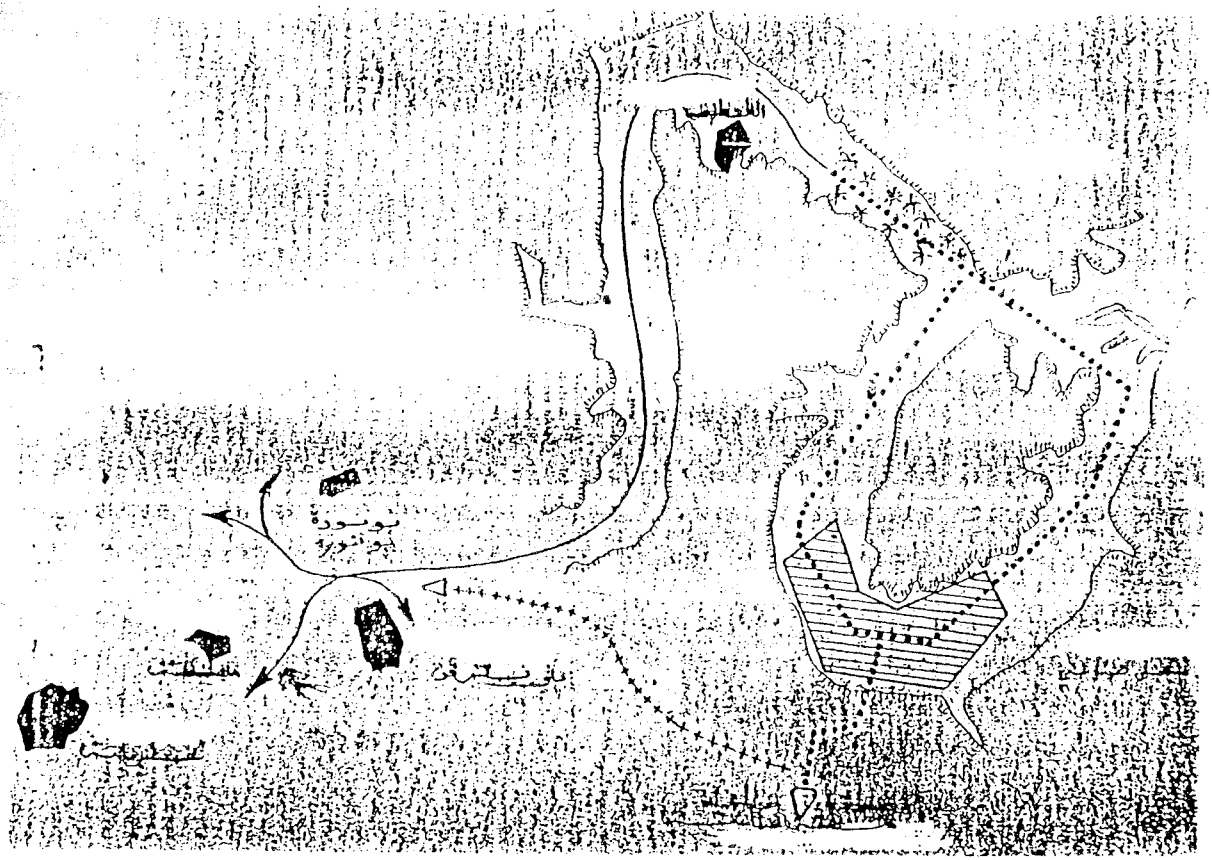
لان استطعنا دراسة مثال التهيئة الذى قام به رافيرو ونقده مباشرة ،الا أننا لم نستطع الحصول على التقرير الخاص بمثال التهيئة الذى قام به مكتب الدراسات سبير (SPEER) . وباعتبار أهميته حيث أنّه يعتمد في جانب كبير منه والى حدّ الآن في بلدية غرداية ــ رغم عدم المصادقة عليه ــ ،فاننا لم نرد تجاوزه أو غض النظر عنه واكتفينا بتقديم بعض جوانب النقد الذى قدمه له مكتب الدراسات والترميم لوادي ميزاب سنة 1979 .

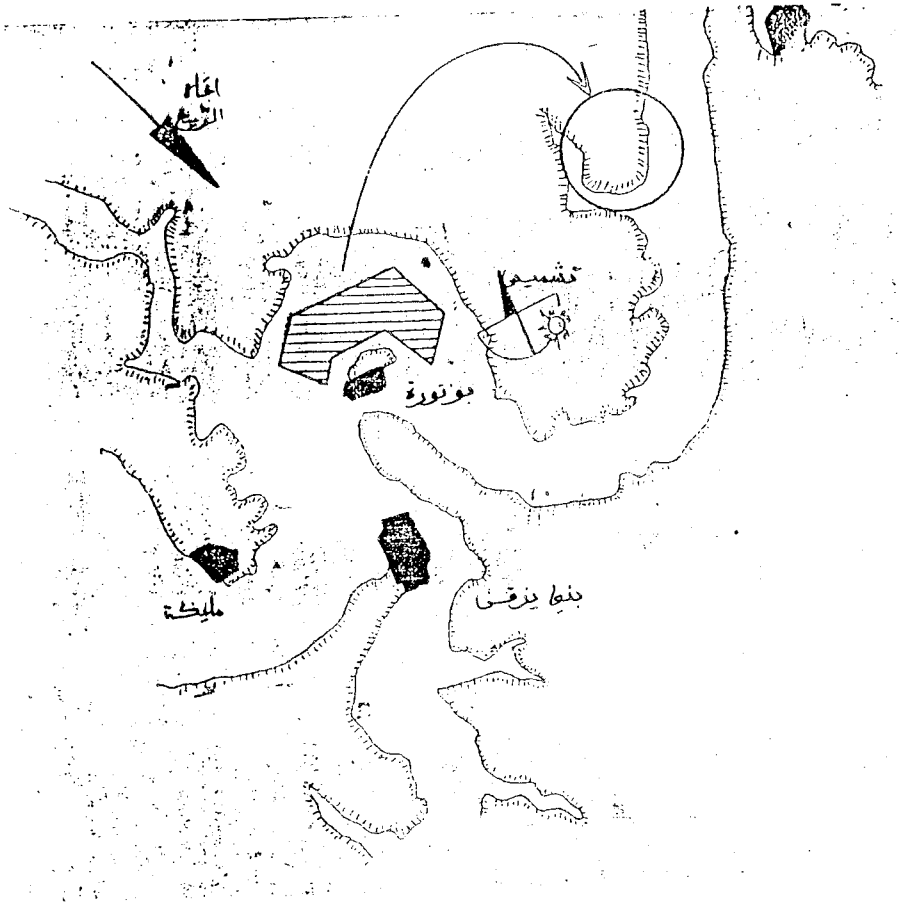
انّ أوّل ما يتقدّم به مكتب الدراسات بالنقد هو موعد عرض مثال سبير للدرس ، حيث جاء متأخرا بستّة سنوات أي سنة 1979 . بل ان المكتب يشتكي اضافة الى ذلك من عدم تمكنه من الحصول على نسخة منه والتجاءه الى مقرّ البلديّة لدراسته .

أما النقد المباشر لمثال سبير فيتمثل أساسا في النقاط التالية :

1) التقسيم المتسلط لفضاء البلدية الى مناطق دون اعتماد الحوار أو الدّراسة الأوليّة التي تسمح باستخراج مجال الخطأ ،

2) الاعتماد على الدراسات الكمّية دون الدّراسات الكيفيّة في التحمير ،كما أن في مثال التهيئة أخطاء كبيرة في التقدير والتنبؤ ومعلومات غير مدقّقة لا تسمح باستعماله اضافة الى أن واقع الحهة تجاوزه كثيرا ومثال


اللاذقية
بوسودة
بوتوزو

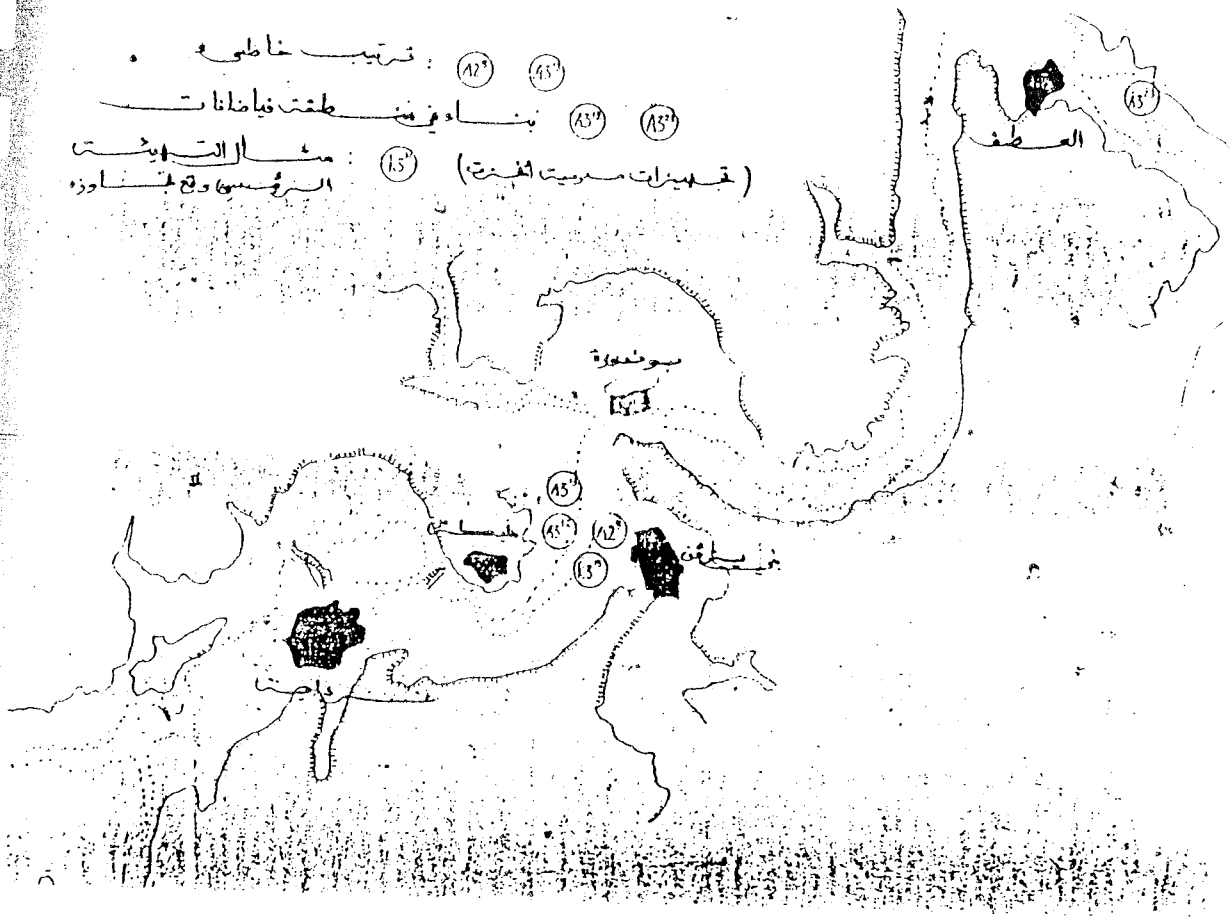


توسع حار "بوتورة"

أفضلية الاتجاه (بالنسبة للرياح والشمس) والتضاريس (تشرب مياه الأمطار).

إقتراح لموقع جديد : لامركزية التجمع السكني في المستقبل.

تتكون من ابراز تجمعات الفلاحية في شمال "بوتورة"


ترتيب خاطئ : (A12) (A13)
بناء في منطقة فيضانات (A13) (A13)
مثال التهيئة : (A13) (تعليمات مدرسية للفيضة)
البرمجيات وقع تجاوزه
العطف
بوشعوة
(A13)
(A13)
(A12)
(A13)
واحات

ذلك في المسألة السكانية حيث أن العدد السكاني الحقيقي سنة 1978 يساوى 80.000 بينما يقدره سبير بـ 66.000 فقط.

3) عدم مراعات الحالة الخطيرة التي عليها الواحة بزحف العمران عليها رغم ما تمثله من ضرورة مناخية وفلاحيّة حياتية للسكان ،بل تجاوز ذلك الى برمجة مناطق سكنيّة في الواحة على شاكلة أحياء الحدائق الاوروبية (K5 19) ،

4) تدعيم الكثافة السكنية في الوادي وما يتبعها من مرافق عوض البحث عن مواقع أخرى لاحداث نواتات عمرانية جديدة كما كان يفعله الميزابيون في الماضي ،

5) برمجة احياء سكنيّة في مناطق معرّضة لفيضان الوادى ومثال ذلك الامتدادات المبرمجة للعطف وملكة (A_3(23) ر A_3(12)) ـ انظر الصورة ـ

6) برمجة احياء في مواقع غير مناسبة مناخيا وجغرافيا كالامتداد المبرمج لبنورة في منطقة سيئة الوجهة حيث لا يتمتّع بالشمس خلال الشتاء مع توجهه نحو رياح الشمال الشديدة البرودة في الشتاء اضافة الى وجوده في أرض منبسطة يمكن أن تكون أرضا فلاحية جيّدة (انظر الصورة)

7) برمجة مناطق صناعيّة تهدّد الواحة وتقلّب هيكلة المدينة كتلك التي وقعت برمجتها قرب واحة العطف مما يعمل على احتلال الواحة عند امتداد المنطقة الصناعية كما يفرض على مدينة العطف طرقات كبيرة وحركة مرور لا تتماشى معها البنّية من حيث الأخطار التي تتسبب فيها اضافة للتلوث والضجيج مع تدمير جانب هام من الواحة ،

وأخيرا ، طمس النمط المعمارى والتعميري المميز لميزاب والذى يتمتع بشهرة عالميّة .

أما فيما يخصّ التنظيم الخاص بالبناءات في القصر فان تحديد ارتفاع البناءات بتسعة أمتار (9 م) (ثلاثة طوابق) عوضا عن سبعة أمتار ونصف كالذى كان في الماضي والذى جاء تحديده لتمكين كلّ المساكن من الشمس ومنح كشف المسكن للذى دونه ،يتناقض مع هذه الاعتبارات ويتسبب في اضطراب النظام الذى عليه البناءات في القصر كما يتسبب في تغيير وجه القصور الذى يتسم بالتصاعد السلمي ـ انظر الصورة ـ وبالتالي طمس ذاتيتها وهويتها كما يتسبّب ذلك في تضخّم سكاني في القصر وما ينجرّ عنه من مشاكل لا تخفى على أحد .

وكخلاصة للنقد الذى وجهه مكتب الدّراسات والترميم بميزاب فانّه يقترح الحلول التالية لمثال سبير ومن خلاله لأى مثال تهيئة يخصص لميزاب :

1) منح وجود طرقات كبيرة في المنطقة ،

2) عدم البناء في المناطق التي يمكن أن تكون مناطق خضراء ،

3) البحث عن مواقع خارجيّة مناسبة للنشاطات الصناعيّة ،

4) احترام النمط المعماري للمنطقة وخاصّة في المجال الخاص بالقصور مع منع الارتفاع الى تسعة أمتار ،

5) اختيار مواقع نواتات عمرانية جديدة خارج الوادي لاستيعاب التضخم السكاني والنموّ الوظيفي .

وبدون هذا التحوير الذى يجب ادخاله على مثال سبير(SPEEQ)،ومع كثرة البناء وتضخمه في الوادي فانّ المنطقة ستفقد ذاتيتها وجاذبيتها .

— مثال التهيئة لسيرو C.E.R.A.U 1983 — 2000

نظرا للحركية العمرانية الكبيرة التي تشهدها منطقة وادي ميزاب ، وفي غياب مثال للتهيئة أو حتّى بعض القوانين التي يمكن العمل بها [357] والتي يمكن من خلالها رسم ملامح النمو السليم والقطع مع كل ما هو فوضوي ،أوكلت السلطة لسيرو [358] مهمّة ايجاد مثال تهيئة لمنطقة وادي ميزاب حيث أنجز الدراسة النظرية سنة 1983 دون التمكّن من اتمام مثال التهيئة عمليا . الا أن الملاحظة الأولى التي نبدأ بها لنقد هذه الدراسة ، هو سقوط السلطة في نفس الخطأ الذى حصل مع مثال التهيئة الذي قام به سبير(Speeq)والذى لم يقع عرضه للدّراسة الا بعد ستّ سنوات من انجازه ،ذلك أن الدراسة التي قام بها مكتب الدراسات سيرو (C.E.R.A.U) سنة 1983 لم يقع اعتمادها لانجاز مثال التهيئة الذى قامت به U.R.B.A.T.L.A الا في أواخر سنة 1988 ممّا يجعل التحاليل والمعلومات التي جاءت بها تتأخّر عن الواقع الجديد للجهة الذى يتغيّر بسرعة كبيرة على كافّة المستويات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية . الا أنّنا سنقوم بنقد لهذه الدراسة باعتبار أنّها اعتمدت في صياغة مثال التهيئة الجديد والذى لم يصادق عليه بعد الى حدود بداية سنة 1989 .

عكس مثالي التهيئة الذين قدمناهما آنفا ،وخاصّة منهما مثال Speeq ،فان المثال الجديد (C.E.R.A.U) يعبّر عن محاولة جدّيّة لدراسة منطقة وادي ميزاب على جميع المستويات . فلم تهتمّ الدراسة بالجانب الكمّي الجاف للعمران فقط ،بل تجاوزته لدراسة الجانب الكيفي والمضموني للعمارة والمجتمع بمختلف مكوّناته ووظائفه ونشاطاته اقتناعا بجدليّة العلاقة بين كل العناصر المادية والثقافية للمنطقة والمجتمع ممّا يتأكّد معه وجوب أخذ كل هذه العناصر بعين الاعتبار في صياغة أي مثال تهيئة .

اذن ففي الجزء الأول وبعد تناول الواقع الادارى والسياسي للجهة ، : تطرّقتالدّراسة الى عرض الاطار التاريخي والاجتماعي للسكان من حيث الأصل وطبيعة الفكر والمذهب ثم تدرّجت الى طبيعة التركيبة الاجتماعيّة

للمجتمع الميزابي وما حصل له من تحوّلات سياسية واقتصادية وفكرية وذلك قبل أن تتحوّل الى دراسة الاطـــار الجغرافي والمناخي للجهة.

أما فيما يخصّ الجزء الثاني فقد وقع الاهتمام فيه بمزيد تحليل الجانب الاجتماعي والاقتصادى وما يتعلّق بهما من معطيات حول السكان من حيث عددهم وتوزيعهم حسب المناطق ،وطبيعتهم ،وتقسيمهم حسب الجنس والأعمار والنشاطات بما يتصل بذلك من تعليم وتشغيل ... ثم ينطلق مكتب الدّراسات سيرو (C.E.R.A.U) مـن هذا التحليل الى دراسة آفاق التطوّر السّكاني والاقتصادى للجهة ومعالمه. وفي هذا الاطار يلاحظ مكتـب الدراسات أن نسبة كبيرة من السكان (40٪) لا يتجاوز عمرهم الأربعة عشر سنة (14 سنة) وأنّ واحـدا على خمسة من السكان يتمتعون بعمل أي 12.200 من جملة 80.000 ساكن كما أنّ القطاع التجاري هو الطّاغي على القطاعات الاقتصادية الأخرى وخاصّة منها الفلاحة حيث أن نصف الأراضي الفلاحيّة أي أربعمائة هكتـــار (400 هـ) من النخيل وثلاثمائة هكتار (300 هـ) من الزراعات المختلفة لا تلاقي أي اهتمام أو اعتناء يذكـر، بل انّ قطاعي الفلاحة والصناعة لا يشغلان الا (17٪) من اليد العاملة رغم مردوديتها بينما تشّغل التجارة التي تفوق الحاجة المحليّة للسّكان (66٪) من اليد العاملة مما يمثل خللا كبيرا في التوزيع الاقتصادى للجهة. لذلك فانّ مثال التهيئة يرى أنّه يجب توجيه النشاط الاقتصادي الى قطاع الصناعة أكثر فأكثر نظرا لما يمتاز به من مردودية اقتصادية ايجابية وامكانية توفير مواطن الشغل الكافية مستقبلا للأعداد الكبيرة من الجيل الصّغـــير. والصناعة التي يراها مثال التهيئة مناسبة للجهة هي الصّناعة الصّغيرة والمتوسّطة والمتعلّقة بالاستهلاك حيث يرى أن حاجة السكّان لها سواء من حيث انتاجها أو مواطن الشغل التي توفرها اضافة الى الامكانيات المادية التي يتمتع بها كثير من الميزابيين وحماسهم لها حيث أنّهم قدموا في شأنها مائة مطلب ترخيص... يجعـل الاهتمام بها مسألة ضرورية ومتأكّدة. ولهذا السبب توقع مثال التهيئة توفير 5.600 موطن شغل في القطـاع الخاصّ لذلك برمج منطقة صناعيّة حديثة لاستيعاب المشاريع التي لم تجد القبول نظرا لقلّة الأراضي وتناقـض وجود هذه الصناعات في المنطقة العمرانية عدى بعض الورشات أو الشركات التقليدية التي يمكن ادراجها ضمن الامتداد العمراني.

الا أن مثال التهيئة برّر اعتماده على تشجيع القطاع الصناعي دون الفلاحي بالاستناد الى الواقـــع البيئي للجهة حيث يرى أنه لا يمكن احداث أراض فلاحية جديدة نظرا لضيق الأراضي وقلّة المياه اضافة الـى عدم اهتمام السكان بهذا القطاع لانخفاض مردوديته وتراكم مشاكله لذلك فانّ مثال التهيئة لم يخصص مواطن

شغل مستقبلية هي الفلاحة وأكتفي بالاشارة الى وجوب الحفاظ على اليد العاملة الحالية . ولكن رغم ان الفلاحة لم تعد تمثل مورد رزق هام أو ركيزة اقتصادية هامّة كما كانت في الماضي الا أنّ مثال التهيئة يرى أنّه يجب المحافظة أولا على الأراضي الفلاحيّة الحالية ومزيد استغلالها والعناية بها ومنع كل ما من شأنه أن يجعلها مناطق سكنيّة ولو حدائقيّة لما يتسبّب لها من أخطار الانحسار والمحو فهي تتاز بدور اجتماعي ومعاشي هامّ اضافة الى أنّها تعتبر عنصرا هامّا ومميزا للمحيط حيث تساهم في احداث مناخ مصغّر ضروري وحياتي للسكان كما تعمل على المحافظة على أديم الأرض ومسكه من التنقل بالرياح الصحراوية . . .

أمّا الجزء الثالث فهو يحتوي على تحليل فضائي تتبعه جملة توصيات واختيارات عامّة .

لقد تناول مثال التهيئة بالدرس في البداية نموّ مدن ميزاب لمعرفة وجهته ونمطه ثمّ تطرّق الى الدّراسة النظريّة لمسألة المدينة بمختلف مكوّناتها لاستنباط منهجيّة تحليل فعّالة للمعرفة الدّقيقة لواقع مدن وادي ميزاب ومعمارها ولمعرفة النمط الجيّد الذى يجب أن تكون عليه .

لقد تطرّقت الدراسة الى تحليل الواقع البيئي كمجال الأودية وتحديد المساحات التي تحتلها عند الفيضان ثم قسمت الجهة الى عدّة مناطق أو بالأحرى قطاعات كما تسميها (Secteur) لتحليلها التحليل العميق والدّقيق وللتمكّن من صياغة البرنامج المناسب لها دون السقوط في التحاليل العامة والسطحيّة التي لا يمكن أن تعطي صورة واضحة عن مختلف عناصر المدينة ومكوّناتها . وفي هذا الاطار تمّ تحديد الكثافة السكنية وطبيعة المرافق ونسبتها ومستوى الخدمات وبالتالي درجة المدنيّة (Degré d'urbanité) ليكون التخطيط في مثال التهيئة موافقا لطبيعة كل قطاع بحيث :

- يراعي النقص الحاصل في كلّ قطاع على مستوى المرافق والخدمات . . .
- يحدث توازنا بين المناطق والقطاعات المختلفة ،
- يمنع مركزة النشاطات ويحدّ من الخلل الحاصل في توزيع الوظائف ،
- يرسم خطوط النمو المستقبلية .

أخيرا ، يجب أن نلاحظ أن مثال التهيئة لسبر و (C.E.R.A.U) كان بحق خطوة متقدمة كثيرا عن مثال سبر Speer فهو وكما أسلفنا يعبّر عن محاولة جادّة لدراسة عميقة لواقع الجهة وواقع معمارها من أجل صياغة المثال الحقيقي الذى يمكن أن يتقدّم بها والذى يستطيع أن ينال رضى السكان ومختلف مؤسسات السلطة وفي هذا الاطار نسجل الايجابيات التالية :

1) مشاركة اخصائيين في علم الاجتماع الى جانب المهندسين المعماريين والتحضيريين في صياغة هذا المثال ،

2) محاولة فهم الطبيعة التاريخية والثقافية للمجتمع ،

3) اعتماد الدراسة التحليلية على عدد هامّ من المعلومات والمعطيات الاقتصادية والاجتماعية الحديثة والدقيقة .

4) التحليل المعمق لمختلف عناصر الجهة (الوادي ،الواحة ...)

5) اعتماد التحليل والبرمجة على تقسيم الجهة الى مناطق وقطاعات ليتم دراستها بأكثر عمق والبرمجة فيها بحسب طبيعتها وخاصياتها .

أمّا السلبيات المتعلقة بهذا المثال فتقتصر على :

1) الاعتماد المتأخر للسلطات على هذه الدراسة التحليلية في صياغة مثال التهيئة الجديد ،

2) عدم اعطاء المكانة الهامة في التحليل للمعمار التاريخي وطريقة التعامل معه مستقبلا ،

3) عدم القدرة على ربط التراث التاريخي والفكري للمجتمع بنمط الانتاج المعماري الحديث أو حتّى نمط التنمية الاقتصادي المراد احداثه والاكتفاء بالرد الوصفي للطبيعة الفكرية للمجتمع ،

4) الاعتماد في البرمجة والتخطيط على مفاهيم المدينة الغربية الحديثة ونمطها ومن ذلك التوزيع الفضائي للمرافق وتحديد علاقتها بالمساكن ،وعلاقة السيارة بالمساكن والمرافق ،كما نشير هنا الى أن قرار احداث 30 مسكن في الهكتار يعتبر متقدما بالنسبة لمثال سبير الذي يحدد الكثافة بـ 25 مسكن في الهكتار لكنه رغم ذلك يبعد كلّ البعد عن النمط المعماري الأصيل والتاريخي الخاص بالمنطقة رغم ما يقدمه مثال التهيئة من حجج مختلفة نابعة من تقييم خارجي اعتمد المقارنة مع النمط الغربي الحديث فمدينة غرداية التي مثلت طيلة قرون عديدة وحدة اجتماعية وعمرانية متماسكة ومتكاملة ،بها 2000 مسكن لا تتجاوز المساحة الأرضية الداخلية المخصصة للمسكن الواحد 115 م^2 بينما ترتفع هذه المساحة في هذا المثال الى ثلاثة أصناف (333 م^2) لذلك نوجه لهذا الاختيار نفس النقد الذي وجهناه لمثال رافيرو ، في هذه النقطة كما نشير الى أنه كان من الواجب الاستفادة من النقد الذي وجهه مكتب الدراسات والترميم لمثال سبير فيما يخص ايجاد نواة عمرانية أخرى خارج المنطقة الحالية التي لا يمكن مزيد تكثيفها بمساكن ومرافق الى ما لا نهاية له .

- البرامج المعمارية والمعمار المخطط:

يهتم هذا القسم من الانتاج المعماري بالمشاريع المخططة من قبل السلطة والتي تحتوي ،في جزء كبير منها ،على عمليات بناء المساكن ضمن برامج الاسكان المتواصلة . كما تحتوي على المنشآت العامة (الوظيفية ، الادارية ،التجارية ، . .) والتي تلعب السلطة الدور الرئيسي ،في تخطيطها وانجازها .

ويأتي هذا القسم الهام من الانتاج المعماري شبه "معزول" عن ارادة المجتمع وطموحاته ،وذلك على مستوى صياغته وكيفية تصميمه .

ونحن اذ نتناول هذا الانتاج المعماري بالدرس ،فذلك لأهمية ما يحمله في طياته من مؤشرات تحول وتغيير في فكر المجتمع وممارسته .

أ. السكن:

مع ازدياد سكان الجزائر وارتفاع الكثافة السكانية في الكثير من المدن والمناطق ،وخاصة بعد الاستقلال وبعد التحولات العميقة التي شهدتها البلاد ،على اثر الخيارات ،الاقتصادية والسياسية ضمن السياسة التنموية العامة والشاملة لمختلف جهاتها ،ازدادت الحاجة الى السكن ،وأصبح توفير الأعداد الكافية من المساكن لطالبيها أمرا ملحا بالنسبة للسلطة ، التي وجدت نفسها مجبرة على الاستجابة الى هذا المطلب العاجل ومواجهة الأزمة بشتى الطرق والوسائل . فرسمت لذلك عدة مخططات تهدف الى انجاز أعداد هائلة من المساكن في شتى أنحاء البلاد وخاصة في المدن الكبرى ،والمدن التي شهدت نموا اقتصاديا وبالتالي سكانيا مرتفعا . ومن أشكال مواجهة الأزمة السكنية ، احداث وانجاز مجموعات سكنية محيطة بالمدن ،تمتص وتقلص من حدة الكثافة السكانية التي عليها هذه المدن ولا سيما نواتاتها القديمة ،على أن تتم عمليات البناء هذه ،في وقت وجيز ،ليتمكن أصحابها من التمتع بها والحصول عليها في أقرب وقت ممكن .

من هنا بدأت الازمة في النتاج المعماري الحالي التي ظهرت في العلاقة بين نمط السكن الجديد ، المخطط والمبرمج ،والنمط الحياتي للمجتمع وثقافته ،اذ لم تراعى في صياغة هذا النوع من المعمار ،الخاصيات الثقافية الاجتماعية لساكنيه ،من حيث الشكل والمضمون ، بل كان استجابة آلية لنداء الطلب ،وكان المعيار الوحيد في انجاز هذه الأعداد الهائلة من المساكن هو الكم ،ولم يراعى في انجازها الا الجانب المادي (من حيث التكلفة) وعامل الزمن (من حيث وقت الانجاز) .

وفي هذا الاطار ،تأتي برامج الاسكان وعمليات انجازها في ميزاب حيث أنجزت السلطة مئات من الوحدات السكنية ذات نمط مغاير للنمط المحلّي ٠

انّ نمط السكن هذا هو نمط مستورد ومسقط على المنطقة اذ لا يستجيب للواقع المادّي والمعنوي للمجتمع كما أنّه لا يتلاءم مع المحيط الطبيعي والواقع المناخي للجهة ،وأخيرا فانه لا يمتّ بأية صلة الى نمط العيش ونظام العلاقات الاجتماعية لأهالي ميزاب ولا يأخذ بعين الاعتبار خصوصية هذا المجتمع وممارساته وعاداته وتقاليده ،ولابراز ذلك ،نكتفي هنا بدراسة بعض النماذج من هذا النتاج المتمثلة في مجموعات سكنيةمختلفة أنجزت أو هي في طور الانجاز وأحدثت في عمليات تتراوح اعداد المساكن فيها بين 60 مسكن و400 مسكن وموزعة على عدّة مناطق في ميزاب٠ ونحن اذ نورد هذه النماذج ونتناولهابالدرس ،فاننا لا ننوي بذلك دراسة ظروف انجازها ولا تقييم عملية بنائها من حيث اطارها وسيرورتها الادارية ،لأنّ ذلك يتطلّب مجالا كبيرا وبحثا عميقا من ناحية ،ولعدم ارتباطه بموضوع بحثنا ارتباطا وثيقا ومباشرا من ناحية أخرى ،بل سندرسها من حيث تركيبة الوحدات السكنية التي تكوّنها وانعكاسها على الممارسة الاجتماعية في ميزاب ،وما تعكسه هي كذلك من ممارسة اجتماعية حديثة ٠ كما سنرى ردّة الفعل المجتمعية الممكنة تجاه هذا النتاج ٠ واضافة الى هذه الدّراسة الاجتماعية سنقوم بقراءة تقنية لهذه الوحدات السكنية ،من حيث النسب والمقاييس ومواد البناء المستعملة في انجازها ٠

وهذه النماذج هي على التوالي :

1) عمليّة انجاز ل 400 مسكن بحي سيدى عبّاز (بغرداية) بلديّة بنورة٠

2) عملية انجاز ل 66 مسكن بغرداية

3) عملية انجاز لمساكن لرجال سلك التعليم

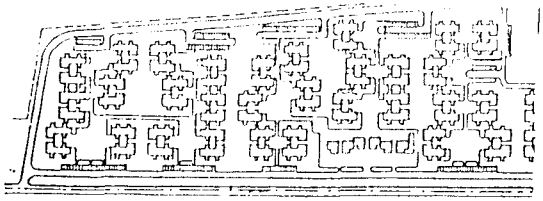
4) عمليّة انجاز ل 320 مسكن بحي بن غانم بغرداية ٠

1) العملية الاولى 400 مسكن بحي سيدى عبّاز :

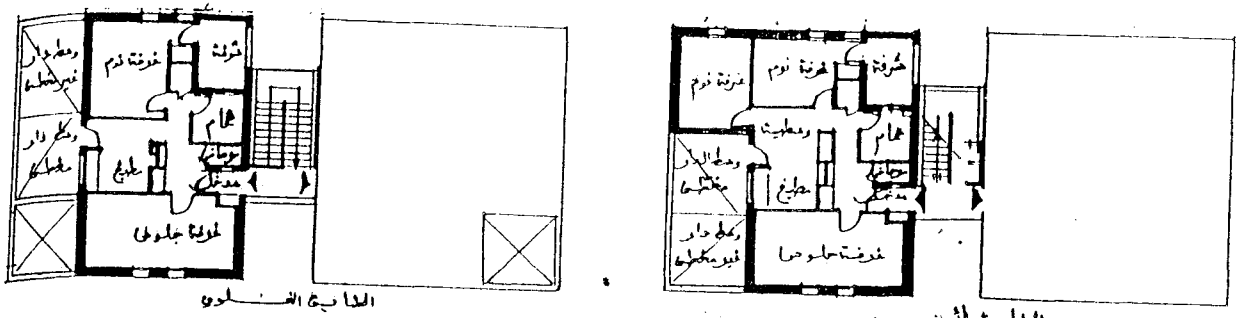
تتكوّن هذه العمليّة انطلاقا من انموذج سكني واحد ،وتتكوّن الوحدة السكنية المجمّعة من 4 مساكن متلاصقة ومتجاورة ،اثنان منها أرضيّة واثنان علويّة ويمكن الوصول الى المسكنين العلويين عبر مدرج مشترك بينهما ٠

وتبلغ المساحة الجميلة للمسكن 110 م² مغطّاة ،ويتركب المسكن من :

— غرفة جلوس ،

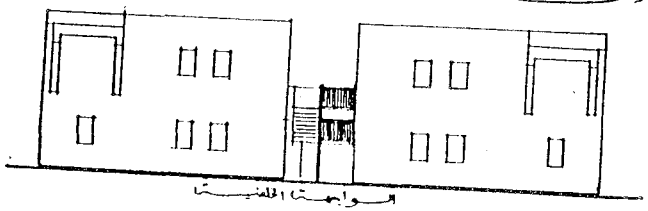


مثال الكتل

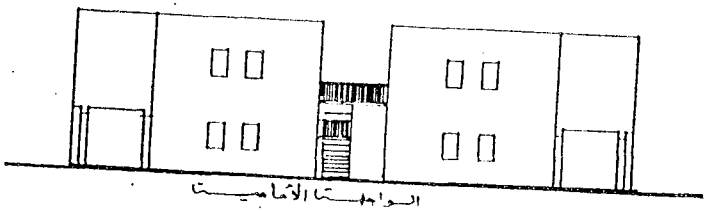


الطابق الأرضي — الطابق العلوي

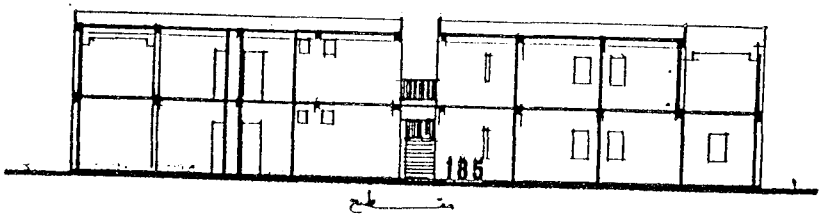
العليتا الأولى — عليتا ٤٥٥ مسكن بفرواتها



الواجهة الخلفية



الواجهة الأمامية



مقطع

- غرفتان للنوم ،
- بيت استحمام ،
- مرحاض ،
- وسطيّة ،
- زاوية مطبخ ،
- مساحة غير مغطّاة في شكل حديقة .

تتوزّع هذه الفضاءات في المسكن حسب هيكلة وتنظيم لا يمتّان بأي صلة الى هيكلة وتنظيم المسكن الميزابي الذي تتمحور فضاءاته حول وسط الدّار فيكون بذلك مسكنا منغلقا على الخارج ومفتوحا للدّاخل (Espace introverti) ،بل نجد هذا المسكن مفتوحا على الخارج (Espace extroverti) ولا يحتوى على "وسط الدّار" بل يحتوى على مجرّد فضاء للمرور والتنقل داخله ،على شاكلة نمط المسكن الغربي أو مساكن العمارات المتعددة الطوابق . كما يحتوى على فضاء غير مغطّى في شكل حديقة لا يصلح الا لأداء بعض الانشطة التابعة للمطبخ ،أو الغسيل ولا يؤدّى الدور الذي كان يؤديه في المسكن الميزابي القديم . وهذه أوّل ملاحظة بخصوص هيكلة هذا المسكن . انّ هذا المسكن هو أنموذج بصدد الاعادة في مناطق عديدة من الجزائر ،بحيث يبني في الشمال كما يبني في الجنوب بنفس التصميم ونفس الحجم ،وهذه دلالة على أن تصميمه لا يأخذ بعين الاعتبار خصوصية المجموعة التي جعل من أجلها بل كان مفروضا عليها .

انّ المسكن المفتوح على الخارج في ميزاب لا يتلاءم أوّلا : مع الواقع المناخي للجهة الذي يتسم بشدّة الحرارة وهبوب الرّياح الرملية القوية في أغلب فصول السنة ،وثانيا : مع السلوك الاجتماعي الذي يتصف بالمحافظة وعدم التكشّف على الغير ،فوجود فتحات المسكن متوجهة الى الخارج يساعد على الكشف ،وهذا أمرا ما زال مرفوضا تماما عند الميزابيين ،الشيء الذي يتسبّب في حرج كبير في استهلاك هذا النمط من المساكن من طرف الميزابيين لا سيما وأنّ في هذه العملية توجد المساكن متقابلة بطريقة تجعل الكشف (Vis à Vis) أمرا لا مفرّ منه الا باغلاق النوافذ طوال الوقت أو بجعل حواجز لها تمنع الكشف ، مما يخلّ بالضرورات الصحية والمناخية لفضاءات المسكن .

والملاحظة الثانية في مستوى الهيكلة كذلك أننا عندما نقوم بقراءة للمثال (P1.07) نجد أن المسكن يحتوى على مدخل واحد لا تتوفّر فيه شروط الحفاظ على الحرمة التي تحدثنا عنها كثيرا في هذا البحث والتي تعتبر أمرا مقدسا عند

الميزابيين ولا بدّ من احترامها والحفاظ عليها (المقصود حرمة المسكن) . كما أنّه لا يسمح بفصل المجال الرّجالي عن المجال النسائي خاصّة وأن في هذا المثال لا يبد و هناك أي فصل بين المجالين ،فالكلّ هنا مترابط ومتشابك لا يلائم نمط الحياة في ميزاب ، بأي حال من الأحوال .

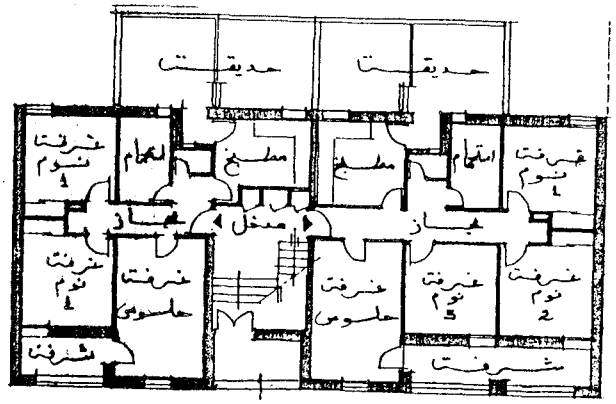
زد على ذلك وجود فراغات كالشرفة (loggia) التي لا تؤدّي وظيفة تذكر باعتبارها تطلّ على شرفة المسكن المقابل ،مما جعل السكان يسارعون بغلقها بجدار أو بنوع من "المشربية" الحازلة وربّما عدم استعمالها لوقت طويل .

أمّا فيما يخصّ مواد البناء المستعملة في هذه المساكن فهي المواد المتوفرة والمصنّعة في المنطقة كالاسمنت والجبس والاسمنت المسلح و "القوالب الجاهزة من الاسمنت والحصى" (Parpaing) التي لا تتلائم كلية مع الواقع المناخي للجهة . وأمّا فيما يخص المقاييس والنسب فانها لا تتلائم هي الأخرى مع النموذج الميزابي التاريخي فيما يخصّ استغلال الفضاءات في المسكن ومثال ذلك غرفة الجلوس الوحيدة في المسكن التي تفوق مساحتها 20 م² ، كان من الأجدر تقسيمها الى غرفتي جلوس واحدة للنساء والاخرى للرجال لتمكين العائلة من استعمالها في جلّ الاوقات والمناسبات وخاصة اذا اعتبرنا أن العمل الرئيسي للمرأة في ميزاب هو النسيج في المسكن فتكون لها بذلك غرفتها الخاصة التي تستقبل فيها صديقاتها ،كما أن للرجال حرّية التصرّف في الغرفة الأخرى . ولكن حجم وشكل غرفة الجلوس الحالية يمنعانها من أداء وظيفتها على أحسن وجه حيث تكون اما حكرا على الرّجال دون النساء أو تستعمل جماعيا في اطار الاسرة فقط .

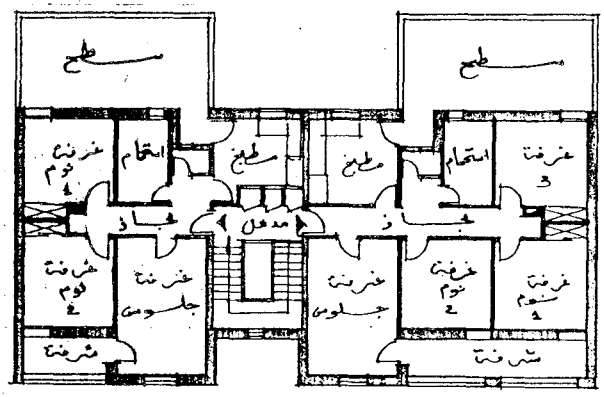
وعند قراءة واجهات هذه المساكن يتبيّن لنا جليّا عدم خضوع نمطها للذّوق والنمط السائدين في المنطقة وذلك على مستوى حجم الفتحات وطريقة توزيعها على الواجهة وكذلك على مستوى مواد البناء والألوان المستعملة فيها .

2) العمليّة الثانية (66 مسكن)

لا يختلف التركيب العام لهذه العملية عن تركيب العملية الاولى (400 مسكن) من حيث الوحدات السكنية التي تحتوى عليها والتي تتركّب الواحدة منها من 4 مساكن (اثنان منها في الطابق الارضي واثنان في الطابق العلوى) . الا أن في هذه العملية حجمان مختلفان للانموذج السكني الذى تتكوّن منه الوحدات السكنية : الحجم الأوّل ،مسكن ذى ثلاث غرف،والحجم الثاني مسكن ذى أربع غرف مع عدم اختلافهما عن بعضهما ،على مستوى النظام والتوزيع الفضائي داخلهما . ففي كلا المسكنين ،كل الغرف والفضاءات توجد على جانبه مجاز (Couloir)



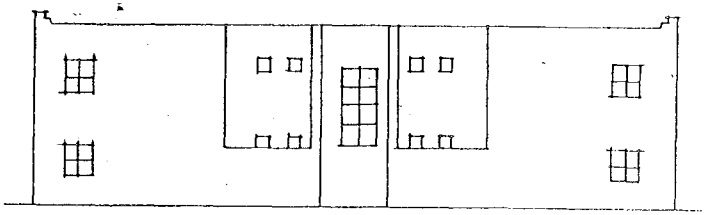
الطابق الأرضي



الطابق العلوي

المرحلة الثانية :

مشروع
60 مسكن



الواجهة الخلفية

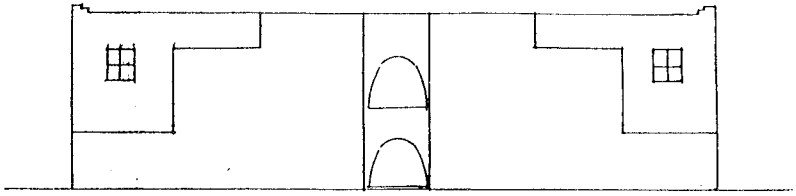
ضيّق ، يقسم المسكن الى جزئين ،جزء يحتوى على المطبخ وغرفة الاستحمام والمرحاض وغرفة نوم ، في حين أن الجزء الآخر يحتوى على غرفة الجلوس وغرفة أو غرفتي نوم اضافة الى شرفة (balcon) . لا يمت نمط هذا المسكن بأى صلة الى نمط المسكن الميزابي التاريخي منه والحديث ،فهو نمط مسقط على هذه الجهة مثله مثل النموذج الذى ورد في العمليّة الأولى (400 مسكن) .

في هذا النموذج ليس هناك أية محاولة لايجاد مجال رجالي ومجال نسائي وفصلها الواحد عن الآخر ، وتبقى كل الملاحظات التي أوردناها بخصوص المسكن في العمليّة الأولى (400 مسكن) فيما يتعلّق بالنسب والمقاييس والواجهات ومواد البناء المستعملة ،منطبقة على هذا المسكن ،أضف الى ذلك ،تميّز هذا المسكن ببراداة أكبر في تصميمه ،خاصّة من ناحية نوعية الفضاء الداخلي وضيق مجال التنقل فيه .

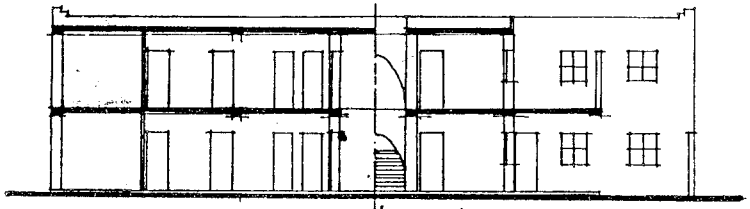
3) العملية الثالثة (مساكن رجال سلك التعليم) .

نلاحظ من خلال تسمية هذه العملية أن الامر يتعلّق ببناء مجموعة مساكن لرجال سلك التعليم ،الذين تكاثر عددهم في ميزاب ،سواء منهم الذين يأتون حتّى مناطق أخرى من القطر الجزائرى ، أو سكان الجهة . ولا تخضع هذه المساكن لواقع الجهة ،لا من حيث الطابع المعمارى ولا من حيث التأقلم مع المحيط الاجتماعي والمناخ المحلّي . والمسكن في هذه العملية هو عبارة عن أنموذج بصدد التكرار في كل الجهات في الجزائر من شمالها الى جنوبها ،من المناطق الشديدة البرودة الى المناطق الشديدة الحرارة ،فهو اذن في هذه الحالة أنموذج مستورد ومسقط على الجهة . وهو لا يختلف من هذه على النماذج التي قدّمناها فيما سبق ،الا أن فيه محاولة للتقليص من عدد النوافذ التي تفتح من الخارج ،ولكن وبالرّغم من هذه المحاولة ،فانّ وجود نوافذ تفتح على الأفنية (cours) في مستوى الطابق الأرضي والطابق العلوى على السواء يجعل منها مصدر حرج للسّكان ،وخاصّة منهم من في الطابق الأرضي الذين سوف يكونون عرضة للكشف ،كما أن وجود نوافذ على مستوى الطابق الأرضي ،تطلّ على الشارع مباشرة هي الاخرى كذلك مصدر ازعاج وتحرّج لسكان هذا الطابق ، يضاف الى هذا كلّه كبر حجم هذه النوافذ جميعها بما لا يتلاءم مع الواقع المناخي المحلّي .

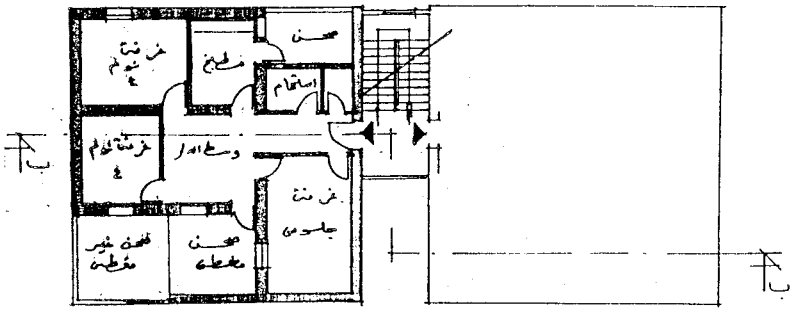
والى جانب ما سبق ،فانعدام تؤخذ حرمة المسكن بعين الاعتبار ، وذلك من خلال وجود باب غرفة الجلوس مباشرة بجانب المدخل الذى يفتح على داخل المسكن والذى يقابل باب المسكن المجاور ،دون وجود أى حاجز يمنع كشف ما في داخله . وتنطبق بقية الملاحظات بخصوص النسب والمقاييس والواجهات ومواد البناء المستعملة والتي ذكرناها في العمليات الأخرى ، على هذه العملية .



الواجهة الأمامية



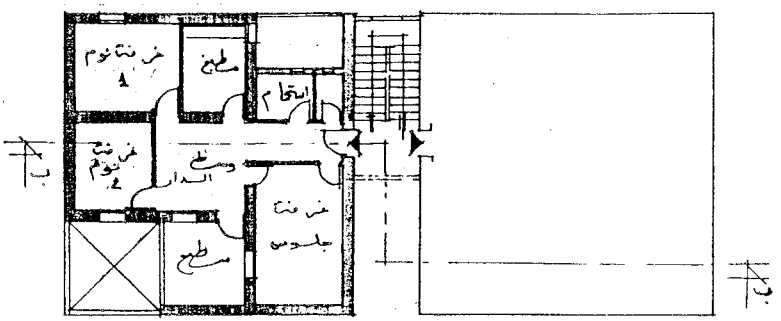
مقطع ب ب



الطابق الأرضي

العلبة الثالثة

مساكن رجال التعليم



الطابق العلوي

4) **العملية الرابعة 320 مسكن بحي بن فالم :**

نكتفي في دراسة هذه العمليّة بذكر الايجابيات والسلبيات التي تتضمنها وفي البداية نقدم الانموذج السكني الذي تتركب منه هذه العمليّة :

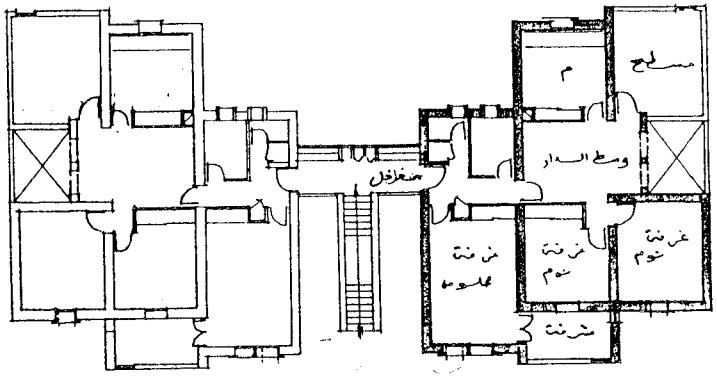
- المساحة الجميلة للمسكن 130 م² منها 120 م² مغطاة .
- يحتوي المسكن على :
  - وسط الدّار ،
  - غرفة الجلوس ،
  - ثلاث غرف نوم ،
  - مطبخ ،
  - بيت استحمام ،
  - مرحاض ،
  - حديقة صغيرة ،
  - شرفة .

من الايجابيات في هذه العمليّة : محاولة الأخذ بعين الاعتبار المحيط الاجتماعي والواقع المناخي للجهة بتقريب تصميم هذا المسكن ،على مستوى التنظيم والهيكلة ،من نمط المسكن القديم ،وذلك بوجود وسط الدّار وبالتقليص من الفتحات على الخارج ،كما أن هناك محاولة للفصل بين المجال النسائي والمجال الرجالي ، وهذا يظهر خاصّة في قرب غرفة الجلوس من مدخل المسكن ،وعزلها عن باقي فضاءاته .

من الايجابيات كذلك ،محاولة استعمال مواد البناء المحلية في تصميم هذا المسكن ،كالحجر مثلا ،الذي يبرز لنا من خلال الأمثلة (ص ص 92-94) ،الا أننا هنا ،لا نعلم ان كان قد يقع التعمل بهذه المواد عند الانجاز الفعلي للعمليّة ،أم لاعتبار أن المشروع لم ينجز بعد .

ومقابل هذه الايجابيات هناك سلبيات عديدة في هذه العملية ،منها :

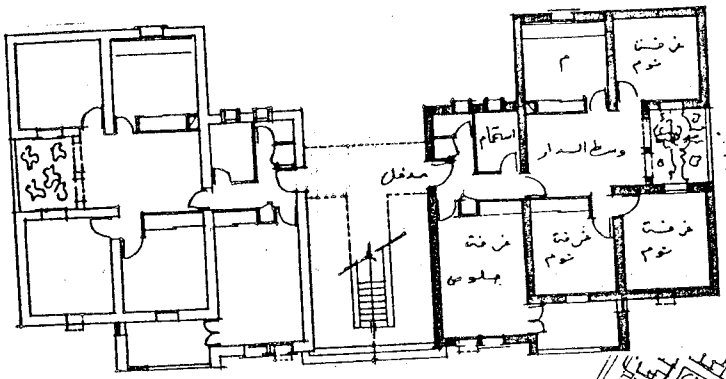
1) على مستوى العمليّة ككلّ ،هناك تكرار آلي للوحدات السكنية المتكوّنة من أربعة مساكن ، اثنين منها في الطابق الأرضي واثنين في الطابق العلوي) والتي تتوزع في شكل مجموعات متشابهة ومنفصلة الواحدة عن الأخرى



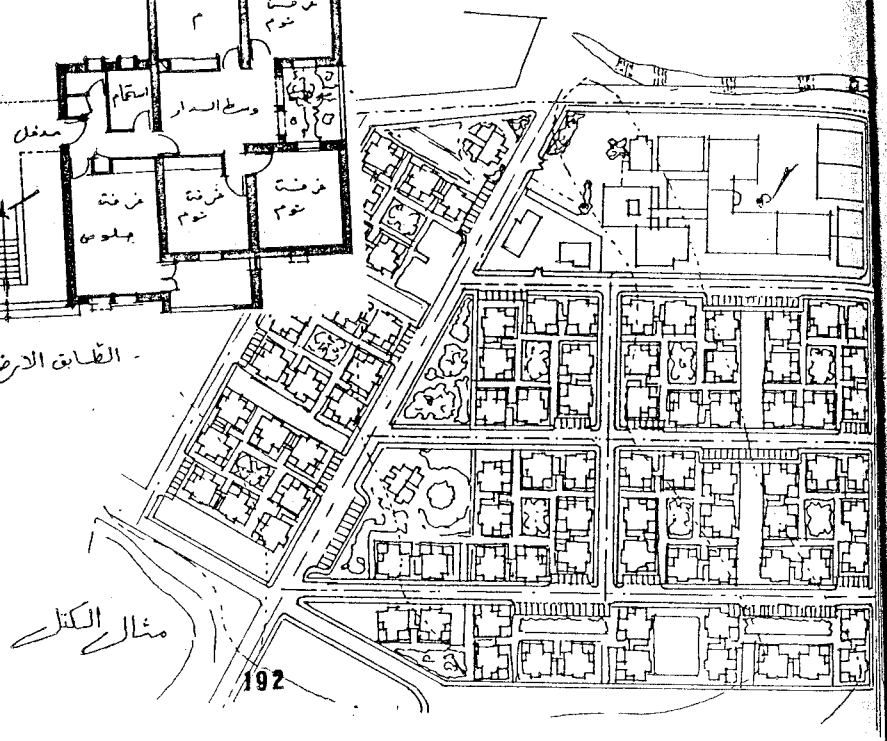
- الطابق العلوي -

العملية الرابعة :

320 مسكن جمعي بالغام



- الطابق الارضي -



مثال الكتل

مشكلة بذلك نمطا تعميريا يكرّس الاستقلاليّة والتفرّد بدون أي روابط ،يربط هذه المجموعات ،الواحدة بالاخرى ؛ الشيء الذي ينتج كذلك شكلا ومظهرا عاما مملاً ،باعتبار أنه ليس هناك أي اختلاف بين كل المساكن في هذه العمليّة ،كما يقلّص من الرّوابط الاجتماعيّة . اضافة الى أن نمط التركيب هذا يجعل من 3/4 المساكن لا تتمتّع بالوجهة الجيّدة (bonne orientation) .

2) على مستوى النسب والمقاييس داخل المسكن ،هناك تقارب كبير بين احجام الفضاءات المكوّنة له مما يفقدها (أي الفضاءات) خصوصياتها ويميّزها الواحد عن الآخر .
فمساحات الغرف لا تختلف من غرفة الى أخرى ،كما لا يختلف عن مساحة المطبخ مثلا ، ولا تبعد كثير عن مساحة غرفة الجلوس أو مساحة وسط الدّار ،مما يجعل هناك صعوبة في قراءة المثال وابراز مختلف وظائف فضاءاته .

3) وجود المساكن ،الواحد فوق الآخر ،أمر لا يتماشى مع عقلية الميزابيين التي تفرض هذه الفكرة رفضا قطعيا ،فالميزابي لا يسمح لنفسه بأيما أن يسكن مسكنا ،دون أن يكون له حق التصرّف في فضاءاته من الأسفل الى الأعلى ،أي بما في ذلك ما تحت الأرض وما فوقها حتى السطح . وهذه من الأسباب الرئيسية التي تجعل الميزابيين يرفضون هذا النمط من السكن . الا أنّه من الملاحظ في هذا الصدد ،أن هذه المساكن تشهد اقبالا من طرف المواطنين الجزائريين ،سكّان ميزاب الغير أصليين وخاصة منهم ،الذين نزحوا الى هناك طلبا للشغل . ولكن مع ذلك فان ظهور نمط اقتصادي جديد في ميزاب وبداية تشكّل لطبقات اجتماعية متباينة ،على مستوى الدخل سيجعل من الفئة الضعيفة الدخل ،من يلجأ الى هذه النوعية من المساكن "القليلة التكلفة" المخططة من قبل السّلطة ، وذلك أمام عجز هذه الفئة عن اقتناء هذه المساكن . مما يجعلها تحمل في طياتها مؤشرات تحوّل في الممارسة الاجتماعية المستقبلية لهذه الفئة . وأخيرا فاننا نلاحظ نوعا من التطوّر والتّقدم على مستوى الشكل والمضمون بالنسبة للأمثلة التي سبق تقديمها .

خلاصة :

من الانعكاسات التي سيتسبب فيها هذا النمط من السّكن الذي تنجزه السلطة ما يلي :

1) تشويه الاطار المعماري المحلّي وطمس هويته وتقليص جاذبيته ،
2) احداث حالة من عدم الارتياح النفسي لدى السكان تجاه هذا النمط من السكن المتميّز بالتكرار الآلي المملّ وافتقار فحيطه عموما للحيوية الكافية ،
3) تكريس الاستقلاليّة والتفرّد بفصل الوحدات السكنية بعضها عن بعض .

4) تفكيك عناصر المجتمع وتقليص الرّوابط الاجتماعيّة فيه بعدم الأخذ بعين الاعتبار العلاقات العائلية والتركيبة الاجتماعية بين الأجوار .

5) إحداث اضطراب مفاجيء في العلاقات بين مختلف أفراد المجتمع بعدم مراعاة العرف والعادة فيه التي تضبط العلاقة بين الأجوار وبين المرأة والرّجل .

6) تدهور الحالة الصحية للسكان لعدم ملاءمة هذا النمط للمناخ المحلي (نمط مفتوح "Introverti" ، فتحات كبيرة الحجم ،مواد بناء متناقضة مع المحيط الطبيعي للجهة ...) .

ب- المنشآت العامة

تنقسم المنشآت العامّة الى منشآت وظيفية ،ادارية ،اقتصادية ،... اخترنا بعضا منها لدراستهـــا وتحليلها ،باعتبارها جانبا هامّا من النّتاج المعماري الحديث في ميزاب وباعتبار علاقتها بالممارسة الاجتماعية من حيث التأثير والتأثر ،والتي تتحمّل السّلطة في كثير من الأحيان مسؤولية برمجتها وانجازها .

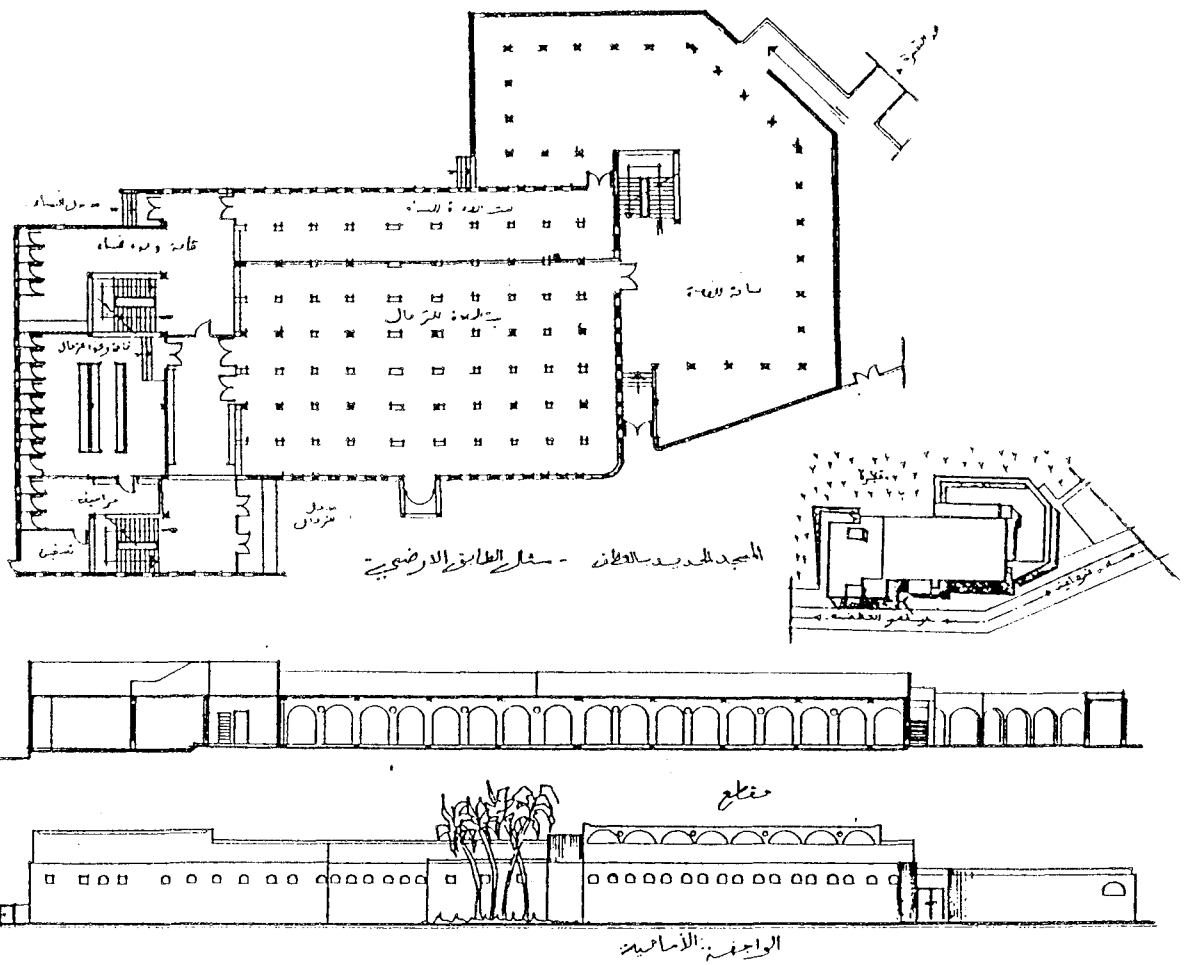
وتتمثل المنشآت التي اخترناها في :

* مسجد بالعطف ،
* ادارة البريد بغرداية ،
* مقر بلدية غرداية ،
* المغازة الكبرى بغرداية (مؤسسة التوزيع وحدة غرداية) ،
* نزل ريم (RYM) بثنية المخزن بين غرداية وبني يزقن

1) المسجـد

لقد كان لنمط العيش الحديث في ميزاب الاثر الكبير في تقليص دور المسجد الرّئيسي في المدينة ،خاصّة أن خروج السّلطة السّياسية منه وتقلّص دور الهياكل الدّينية الاجتماعية ،لم يعد يبرّر مسألة الحفاظ على مسجـد واحد سلطة دينية سياسية واحدة تتخذ من المسجد مقرّا لها ولنشاطها . كما أن لامتداد المدينة واتساعها مع ما ينجرّ عن ذلك من بعد للمسافات تأثير في اختيار احداث مسجد آخر .

وعادة ما يقوم الأهالي ببناء المساجد عند الحاجة اليها ، فيتكفّل المهندسون المعماريون حينها بتصميمها .



المسجد الجديد بالأطاني - مثال الطابق الأرضي

ومن هذه المساجد مسجد العطف الذى سيتمّ بناؤه قريبا ،وهو من تصميم المهندس المعمارى محمّد خيرون (أصيل بني يزقن) .

ونسوق هنا بعض الملاحظات في ما يخصّ تصميمه وصياغته :

— التشابه الكبير في شكل وهيكلة هذا المسجد بينه وبين مسجد القصر في بني يزقن ، ممّا يدلّ على أنّ هذا المعماري حاول الاستناد الى العمارة التاريخية والاقتباس منها .

— المحافظة على تقسيم فضاءات المسجد الى مجال نسائي وآخر رجالي .

— صياغة السّطح العلوى لبيت الصّلاة بالشكل الذى يجعله صالحا لأداء الصّلاة في فصل الصّيف، والذى لم يكن يسمح باستعماله من قبل باعتبار توسّط المسجد للقصر واحتلاله المكان المرتفع فيه ممّا يتسبّب في كشف المساكن المجاورة بما يتناقض مع مبادىء المجتمع. لكنّ هذه الاضافة التي أدخلها المهندس "خيرون" على طريقة استعمال سطح المسجد يبرّرها وجود هذا الأخير في أرض منبسطة ومحاطة بمقبرة ممّا لا يسمح للمصلّين بكشف المساكن وحرماتها .

— عدم اختلاف المقاييس في فضاءات المسجد كما هي عليه في المسجد التاريخي مع فقدانها لعناصر النقش والزخرفة .

— امتياز هذا المثال ببساطة ووضوح في التصميم .

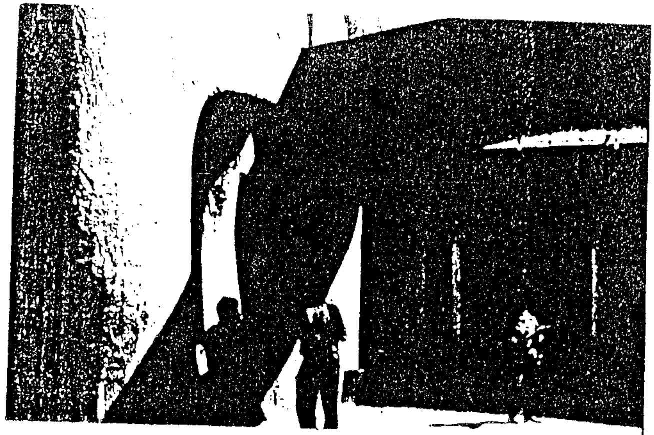
— سقوط المهندس المعمارى في عملية نقل شكلية تكاد تكون "حرفية" ،ومثال ذلك بيت الصّلاة الذي قسّمها حسب شبكة (Trame) مربّعة ، ترتكز على أعمدة رافعة وغير رافعة ، حيث لا تؤدّي جلّها دور الرّفع ليقتصر دورها على ملء الفراغ للمحافظة على الشكل التاريخي لبيت الصّلاة .

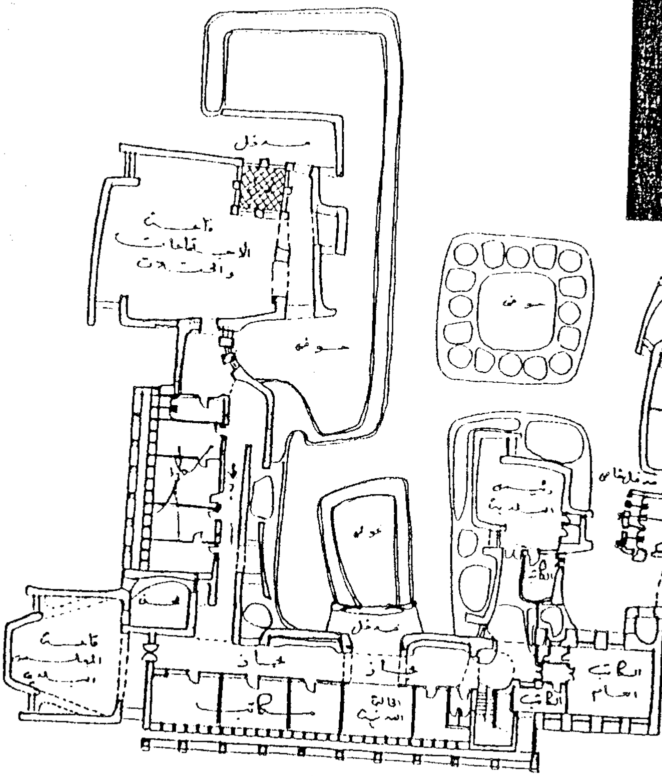
— استعمال مواد بناء لا تتلاءم مع الطّبيعة المناخية للجهة (اسمنت مسلح وغيرها من المواد الحديثة) .

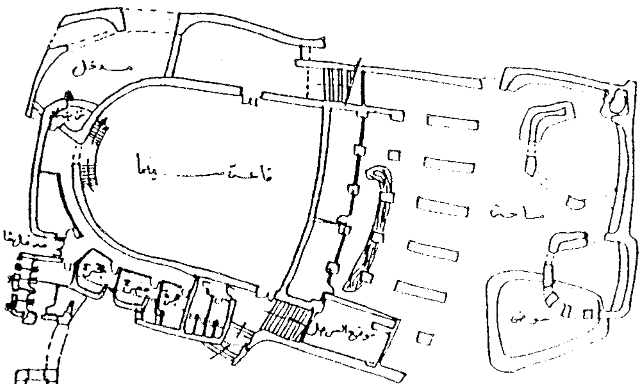
2) ادارة البريد ومقرّ البلدية بغرداية

لقد قام المعمارى آندرى رافرو A. Ravereau بتصميم مبنى ادارة البريد بينما تولى المعماري فرنان بويون F. Pouillon تصميم مبنى مقر البلدية .

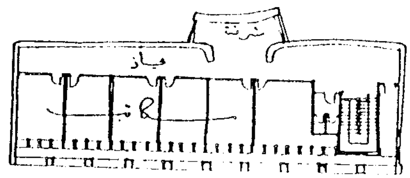
مقر بلدية غرداية







الطابق الأرضي



الطابق العلوي

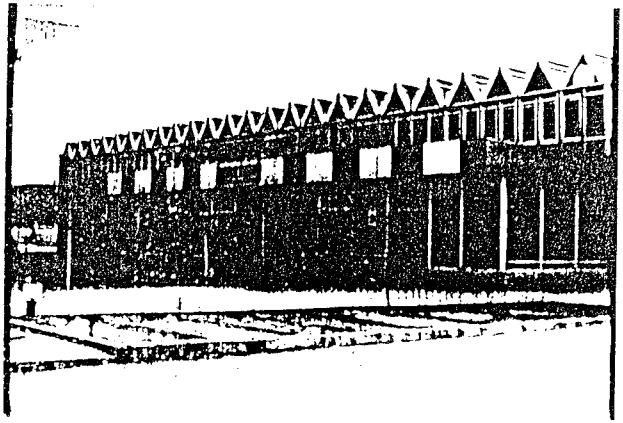
لقد حاول المعماريان في هذين المنشأين الاقتباس من العمارة المحلّية التاريخية بأخذ بعض الجزئيات والخاصّيات وتوظيفها ، وذلك في مستوى الشكل العام للمبنى ومواد البناء المستعملة فيه بما يتلاءم مع المحيط المعماري والطّبيعي لميزاب.

لان نجح (Pouillon) في اعطاء مبنى البلدية ميزة خاصّة ووظيفة ناجحة (Fonctionnalité) ،الّا أنّه سقط في الشكلية (Formalisme) المفرطة ،التي تجعل بعض الجزئيات عديمة الوظيفة ،كما تجعل بعض المقاييس غير منطقيّة (Rationnelles) وخاصّة منها مقاييس الحيطان التي يفوق سمك بعضها المتر (1,00 م) ،لما في ذلك من تبذير واسراف في الفضاء ومواد البناء ،كما أنّه وبالرغم من نجاحه في اختيار مواد البناء المحلية كالحجارة والجبس وغيرها ،لما تمثله من تأقلم مع المحيط الطّبيعي والمناخي ،الا أنّه فشل في مستوى الفتحات التي كانت كبيرة الحجم بما لا يتلاءم مع الطبيعة المناخية للجهة.

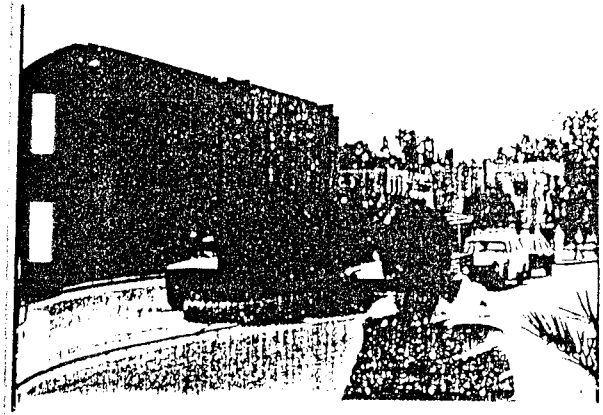
ويلتقي بويون (Pouillon) مع رافرو (Ravereau) في فكرة الحفاظ على المعمار التاريخي لميزاب، حيث صمّم رافرو ادارة البريد بغرداية انطلاقا من هذه الفكرة ،الا أنّه أخفق في ذلك ،لا من حيث الشكل فقط بل من حيث المضمون كذلك. وفي هذا يقول السّيد سليمان تيزوقاغين أن "محاولة مهندس معماري خارجي الحفاظ على معمار أصيل ،عادة ما تكون فاشلة ، حيث يحاول اسقاط نمط ومنهجية خارجية على واقع خاص ومثال ذلك ادارة البريد بغرداية ، التي عمل رافرو (Ravereau) فيها على رسم مفعول للواجهة التي شهدت تراكما كبيرا ، لعناصر مختلفة من البناءات التاريخية ،رغم عدم تناسقها وترابطها ، بل ورغم عدم تأقلمها البتّة مع وظيفة المبنى ممّا يبرز التناقض بين المنهجية والهدف." (٢٥٩)

فكان اهتمام رافرو بالغلاف والواجهة اهتماما مفرطا على حساب الوظيفة التي سيؤدّيها هذا المبنى ،ممّا انعكس على التوزيع الفضائي فيه ، الذي لا يخضع لنسب منسجمة و لا يتماشى مع النمط المعماري المحلّي ، باحتوائه على الممرات (Couloirs) بصفة مكثفة و مملّة و خصوصا على مستوى الطابق العلوي.

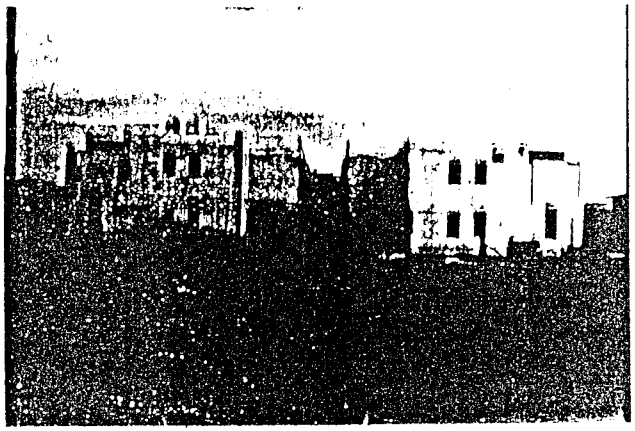
لقد ساهم هذان المنشآن بصفة جدّية في التدهور الذي يشهده المعمار في ميزاب ، و ذلك من خلال اهتمام السلطة بهما و تقديمهما على أنهما تجربتين ناجحتين ، حيث كان تأثيرهما على السكّان تأثيرا سلبيا ، ذلك أنهما ساهما في صياغة ذوق معماري حديث في المجتمع يمتاز بالشكلية و حبّ الظهور من خلال التركيز على على الواجهات ، واختزال الربط الذي يمكن أن يقوم بين الموروث من المعمار التاريخي و المستحدث ، في

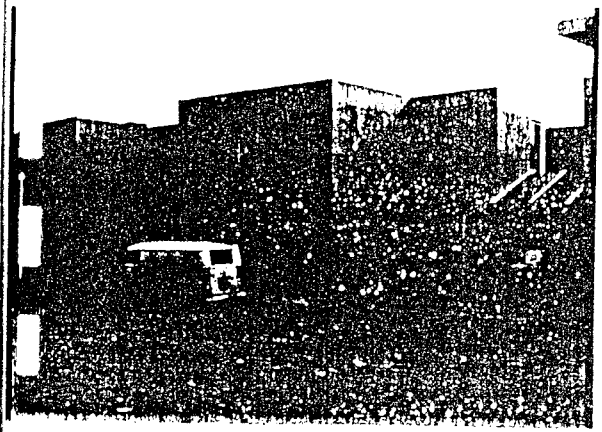


الاشارة الكبرى بفردانة



إدارة البريد بفردانة





عملية الـ ٤٥٥ مسكن لحي سيدي عمار بفردانة

الشكليات التي لا يمكن الا أن تعمّق النظرة التحنيطية للعمارة و المجتمع في آن واحد .

3) المغازة الكبرى بغرداية (مؤسسة التوزيع – وحدة غرداية)

لقد كانت السلطة وراء تركيز واحداث هذه المغازة التي تعتبر من المنشآت العامة ذات الطابع التجاري ، و ذلك أمام الكثافة السكانية التي شهدتها منطقة وادي ميزاب و ارتفاع حاجة السكان المستمرة الى مختلف المواد الاستهلاكية .

أما الملاحظة التي نوردها في البداية هي أن هذه المغازة هي من ضمن مئات أمثالها، الموزعة على كامل تراب الجزائر و التي هي على ملك الدولة الجزائرية حيث لا تختلف الواحدة منها عن الاخرى سواء من حيث الشكل و المضمون بل و حتى من حيث المواد التي تباع فيها و التي سعت الدولة الى توزيعها على مختلف جهات البلاد بكلّ "عدل" .

فهي اذن عبارة عن أنموذج بصدد الاعادة و التكرار في كل المناطق دون مراعاة للخصوصيات المحلية ، سواء منها الاجتماعية أو المعمارية أو الطبيعية .

و يكفي هنا أن نلقي نظرة على الغلاف الخارجي لهذه المغازة ، و نقوم بقراءة لواجهاتها ، حتى نستخلص أنها مسقطة و غريبة عن الواقع المادي و المعنوي للجهة ، و ذلك ابتداء من الواجهة التي صممت من مواد معدنية (ألومينيوم) و مواد شفافة (بلّور) لا تتلائم مع المناخ المحلي للمنطقة ، المتصف بالحرارة الشديدة في الصيف و الرياح الرملية القوية على امتداد فترات كبيرة من السنة ، وصولا الى السقف المنحني ، الذي يذكرنا بالمعمار في المناطق الثلجية ، الشديدة البرودة لفترات طويلة من السنة . فهي اذن في جملتها لا تتأقلم مع واقع الجهة الطبيعة . كما أن هذا النمط من المغازات، ذات الواجهات الشفافة يعكس نمطا استهلاكيا جديثا و غريبا ، اذ أن الواجهات الشفافة و التي يبرز عبرها ما في داخل المغازة ، هي من الاساليب الحديثة في طريقة العرض المرتكزة على عامل الاغراء و الجاذبية للحرفاء ، و ذلك على شاكلة النمط الغربي الرأسمالي ، الذي له انعكاسات اجتماعية سيئة نحن في غنى عن الخوض في تحليلها .

4) نزل ريم (RYM)

تمّ تصميم هذا النزل بشكل لا يرتبط بنمط المعمار الميزابي التاريخي على أيّ مستوى . فاذا اعتبرنا أنّ النزل (عموما) هو فضاء مخصّص لاستقبال الزّوار من السائحين و توفير الراحة لهم ، فمن البديهي أن يكون متميزا على مستوى الشكل و المضمون حاملا في صياغته الملامح المعمارية للجهة ، متخذا في ذلك شكلا يتأقلم مع المحيط

الجغرافي و الواقع المناخي لميزاب و متضمنا فضاءات تذكر الزائر أو السائح بخصوصيات الفضاءات الميزابية التاريخية خاصة و أن خصوصية المكان هي التي جلبته اليه. إلا أننا لا نشعر تجاه هذا النزل الذي بين أيدينا بأي احساس يشعرنا بأننا في ميزاب، مثله مثل كثير من النزل في مناطق أخرى خارج ميزاب، و هذا يتجلى من خلال توزيع فضاءاته الداخلية التي تتصف بالغموض خاصة اذا نظرنا الى المجازات (Couloirs) التي تربط بينها و التي تبدو متداخلة و متشابكة كمتاهة (Labyrinthe) تصعب حركة التنقل فيها بوضوح، و كذلك من خلال الواجهة التي صممت بشكل عشوائي لا يأخذ بعين الاعتبار الخصوصية المناخية المحلية (فتحات كبيرة الحجم و شرفات لا تمت الى معمار وادي ميزاب بصلة، أضف الى ذلك مواد البناء المستعملة في هذا النزل و التي لا تتلاءم مع الواقع المناخي و المميزات المعمارية للجهة. (اسمنت مسلح، قوالب من الاسمنت و الحصى الخ...).

ـ استنتاجات

بعد دراسة وتحليل المعمار الحديث في ميزاب في جانب هام منه وطبيعة علاقته بالممارسة الاجتماعية الحديثة من حيث التأثير والتأثر نقف على بعض الاستنتاجات العامة التي تعكس منهجية انتاج هذا المعمار.

أ) خضوع المجتمع لقيم الحياة الحديثة :

تتأثر الممارسة الاجتماعية الحديثة في ميزاب لجملة من القيم الجديدة المسبوقة بالفكر الانساني المرتكز أساسا على مفاهيم كالحرية والفردية والعقلنة لمختلف التشريعات والقوانين، وتتسم هذه الممارسة بعدم ارتباطها الوثيق بالأصول العقائدية وبتفلص الروابط والالتزامات الاجتماعية وعزوف الأفراد عما يقيد حرياتهم ويحد من طموحاتهم. كما تتسم أيضا بالتطلع الى الحداثة والرفاهية والتوق الى مزيد من الراحة والمتعة مما تسبب في بُعد الافراد والجماعات عن دائرة المراقبة الدينية وظهور العقلية الاستهلاكية وانحسار العلاقات الاجتماعية وبالتالي بروز مناهج حياتية لا ترتبط في كثير منها بالعمق الثقافي للمجتمع.

وجاءت هذه الممارسة المغايرة لما كانت عليه سابقا نتيجة توقف المجتمع عن الابداع في اطار التواصل الحضاري لمدة زمنية طويلة وتعرضه لعوامل فكرية وسياسية واجتماعية غريبة عنه سبق شرحها وتفصيلها.

وباعتبار أن المعمار جزء من الانتاج المادي للمجتمع فانه لا يمكن أن يكون الا انعكاسا لفكره وممارسته وتطلعات أفراده.

٢ـ تأثير الانتاج المعماري الحالي بأسس القيم الحديثة

1) الحرية والاستقلالية

يبرز انعكاس هذه القيمة على العمارة في :

ـ ظهور نمط المساكن المنفردة والتخلّي عن نمط المسكن العائلي باستقلال الأسر وانفراد كل منهما بمسكن خاصّ .

ـ تقلّص الاعتماد على التركيبة الاجتماعية في تقسيم الأراضي وحيازتها ،

ـ استقلال الأفراد في العائلة بغرف خاصّة ،

ـ الحرّية المطلقة في صياغة الفضاءات الداخلية للمسكن وواجهاته .

ـ اقتصار خضوع صياغة المسكن للقوانين الرّسمية المتعلقة بالبنّاء وعدم اعتمادها على طبيعة المفاهيم والعلاقات الاجتماعية الأصلية .

2) حب الظهور والتفوق

يبرز هذا في .

ـ تصميم الواجهات من حيث تراكم مواد البناء والزخرفة وتعدد الالوان والفتحات ...

ـ التسابق في حجم البناء والتطاول فيه .

ـ الاكثار من عناصر البناء في المسكن (عديد الغرف ـ غرف الاستحمام والمبالغة في مقاييسها وأثاثها).

3) الاستهلاكية والطموح الى الرفاهة والحداثة

يبرز هذا في :

ـ تجاوز الحاجة في البناء باحداث مساكن ذات مساحات كبيرة جدّا مع تعدّد الطوابق والفضاءات الدّاخلية ذات الوظيفة المحدودة ،

ـ تجاوز النسب والمقاييس العادية والتي يحتاج اليها في المساحة والارتفاع ،

ـ ادخال عناصر الرّفاهة والحداثة في المسكن والاكثار منها (المسبح ،المكيّف الكهربائي ،مختلف الآلات والوسائل التقنيّة المنزلية ...)

٣ـ خضوع المجتمع في انتاجه المعماري الحالي للسلطة المركزية

باعتبار تدخل السلطة في الجوانب السياسية و الاقتصادية والاجتماعية للمتساكنين بما يحقق برامجها فانها

تعتبر المسؤولة من عملية البناء والاسكان ومثال ذلك أن اختيار تركيز نواة صناعية أو مركب اقتصادي في منطقة معيّنة ،يقتضي منها توفير السّكن والمرافق التي تتبعه للعاملين بهذه النواة أو المركب .

من هنا جاء تدخل السّلطة في تقنين عملية البناء وتوجيهها حسب اختياراتها وأهدافها . وباعتبار أن فضاء المدينة يخضع لسلطتها ،فان كل ما يدخل في هذا الفضاء يجب أن يخضع لاشرافها وتسييرها ومراقبتها وذلك حسب قوانين مضبوطة تعمل على تطبيقها وانجازها الأطر اللازمة والمؤسسات الضرورية (البلدية ، مكاتب الدّراسات ...)

4-ضعف السمة الجماعية في الانتاج المعماري

يبرز هذا في :

- سيطرة الذوق الشخصي والتدخلات الفردية على الانتاج المعماري وذلك من قبل صاحب المسكن أو المهندس المعماري الذي يصمّم المثال أو الاشخاص المساهمين والمؤثرين في اختيارات السّلطة . (المخططات التعميرية ،الرّغبة في جعل مدينة فرداية مدينة الألف قبو ، ...)

- التفرّد بالقرار من قبل المالك عند صياغة مسكنه ،

- عدم مشاركة أهل الاختصاص ومختلف المعنيين ببرامج السلطة في عمليتي التخطيط والبناء واحتكار ذلك من قبل بعض الأفراد والجهات .

5-محاولات التجاوز

لشعور المواطنين والسلطة بعدم مواكبة المعمار التاريخي لحاجياتهم وممارساتهم الحديثة سعوا الى استيراد أنماط خارجية من المعمار وتقليدها أو الاقتباس منها ،رغم عدم تأقلمها مع الطبيعة الثقافية والحضارية للمجتمع وعدم تلاؤمها مع الظروف الطبيعية والمناخية للجهة ،كما سعى البعض الآخر الى اقتباس بعض الأشكال وجزئيات المعمار التاريخي واقحامها في المعمار الحديث خاصّة على مستوى الواجهات وبعض الكتل .

6- استخراج بعض الحاجيات الحديثة للمجتمع

- حاجة السكان الى نمط سكني وتعميري يتلاءم مع وسائل النقل الحديثة (طرق ومسالك خاصّة بالسيارات مآرب (Garage et parking) للسيارات ومختلف وسائل النقل .

- حاجة السكان الى منشآت اجتماعية وثقافية وصحية متخصّصة وتتماشى مع طبيعة علاقاتهم (مراكز

للأنشطة النسائية ،تطوير فضاءات الحجبة ٠٠٠)

ـ حاجة السكان الى نمط من المساكن يتلاءم مع مختلف فصول السنة دون اللجوء الى السكن في الواحة ٠

بالنسبة للمسكن

حاجة السكان الى فضاءات متسعة نسبيا ، تلائم الاثاث والالات الحديثة المستعملة في المسكن مثل المطبخ ، غرفة الجلوس (باعتبار احتوائها علي جهاز تلفزة ٠٠٠) وفضاءات للدراسة ٠

٧- خلل في العلاقة بين المعمار الحديث والممارسة الاجتماعية

يعكس المعمار الحديث في ميزاب الازمة التي يعيشها المجتمع بين حاجاته و طموحاته المتطورة وطريقة الاستجابة لها ، حيث نجد هذا الانتاج المعماري يتجاوز في جانب كبير منه الحاجيات الكمية للأفراد بينما يعجز عن تلبية ابسط حاجاتهم النوعية ثقافيا وبيئيا ٠

كما انسلخ هذا المعمار عن اصول المجتمع العقائدية والثقافية تحت دوافع داخلية وخارجية عديدة مما جعله يساهم في صنع ممارساته وحاجيات منبتة و غريبة عن واقع المجتمع المادي والفكري والنفسي ٠

هوامش

(16) "ميلاد مجتمع" ص 9

(17) انظر في ذلك لمزيد التفصيل : "الرسالة الشافية" ص 25 ـ 26

(18) فجر الاسلام ، ص 251

(19) فجر الاسلام ص 251

(20) الرسالة الشافية ص 113

(21) فجر الاسلام ص 257

(22) فجر الاسلام ص 257

(23) فجر الاسلام ص 263

(24) فجر الاسلام ص 264

(25) الرسالة الشافية ص 49 ـ 50

(26) الرسالة الشافية ص 43

(27) ميزاب بلد كفاح ص 18

(28) الرسالة الشافية ص 130 ـ 131

(29) ميزاب بلد كفاح ص 20

(30) انظر في ذلك : ميزاب بلد كفاح ص 19 والرسالة الشافية ص18 الى 23وبعض اتفاقات مجلس عمي سعيد بتصرف ص 31

(31) Les zones tropicales arides et Subtropicales

(32) أبو يعقوب يوسف الورجلاني والمدارس الاسلامية ص 15

(33) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 49

(34) أبو يعقوب يوسف الورجلاني والمدارس الكلامية الاسلامية ص 15

(35) كتاب الوضح ص 15 ـ 16

(36) أبو يعقوب يوسف ص 16

(37) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 56

(38) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 16

(39) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 69

(40) أبو يعقوب يوسف الورجلاني و المدارس الكلامية الاسلامية ص 16

(41) أبو يعقوب يوسف الورجلاني و المدارس الكلامية الاسلامية ص 16

(42) قواعد الاسلام ج 1 ص 45

(43) مقدمة التوحيد ص 91

(44) أبو يعقوب يوسف الورجلاني و المدارس الكلامية الاسلامية ص 17

(45) أبو يعقوب يوسف الورجلاني و المدارس الكلامية الاسلامية ص 17

(46) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 120

(47) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 121

(48) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 106

(49) المجادلة الآية 22

(50) الاباضية في موكب التاريخ ص 84 ـ 87

(51) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 107

(52) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 107 ـ 113

الاباضية في موكب التاريخ ص 93 - 96

(54) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 113

(55) أبو يعقوب يوسف الورجلاني و المدارس الكلامية الاسلامية ص 17

(56) أبو يعقوب يوسف الورجلاني و المدارس الكلامية الاسلامية ص 55

(57) أبو يعقوب يوسف الورجلاني و المدارس الكلامية الاسلامية ص 54

(58) دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ص 122

(59) هذا الفصل مأخوذ عن مقدمة لرسالة ماجستير في العلوم الاجتماعية حول العائلة الميزابية • البنية القديمة والتغيرات الحديثة (هبة الحاج رمضان) جامعة الجزائر معهد العلوم الاجتماعية 86 ـ 1987 • من ص 28 إلى ص 35

(60) نظام العزابة عند الاباضية الوهبية الصفحة 61 مقتبس من كتاب : الاباضية في موكب التاريخ الحلقة الاولى ص 119 الطبعة الاولى ، القاهرة 1964 •

(61) حكى لي شيخ من بني يسقن أنه في القديم عندما يقوم شخص بمخالفة و يصدر أمر الحزابة بتجريته فان الناس جميعا يقاطعونه ، و حتى زوجته تبتعد عنه لانه في نظرها خارج عن طاعة الله و المسلمين .

(62) الاباضية في مركب التاريخ ص 84

(63) ميزاب بلد كفاح — ص 51

(64) "كانت مهمة القضاء في ميزاب يتصرف فيها الحزابة الى غاية القرن الحالي حيث حول من طرف الاستعمار الى المحاكم الاسلامية" — ميزاب بلد كفاح

(65) ( ) le processus d'urbanisation et les transformations sociales au M'ZAB (Algerie)

(66) المدينة الاسلامية ص 30 — 31

(67) عيون الاخبار 32 ص 313

(68) المدينة الاسلامية ص 40

(*1) القصر : و أصل كلمة القصر بربرى : و هي المدينة المبنية فوق الهضبة وقد نستعمل كلمة المدينة في الاطروحة للدلالة على القصر و ما حوله ،أي ما يتبعه من مقبرة ...

(*2) كبس رشيق : مرتفع خفيف

(69) سورة الأعراف الآية 128

(70) المدينة الاسلامية ص 55

(71) المدينة الاسلامية ص 55

(72) المدينة الاسلامية ص 56

(73) الرسالة الشافية ص 32 — 33

(74) (Des Couples d'opposition) التي أشار اليها و تناولها بالتحليل الدكتور ابراهيم بن يوسف في أطروحته (انظر المراجع)

(*3) منزل : مجموعة مساكن

(75) أصول الارضين ص 86

(*4) خطط : جمع خطة و هي الحي ، (Ilot)

(76) الحجرات 13

(77) سورة طـه 55

(78) شامل الاصل و الفرع ص 5

(79) المدنية الاسلامية ص 56

(80) أصول الأرضين ص 85

(81) أصول الأرضين ص 104 ـ 105

(82) أصول الارضين ص 39

(*)[5] المنزل : مجموعة مساكن "الحومة" ، "الحي"

(83) انظر في ذلك الرسالة الشافية ص 24

(84) ارجع الى الاصول الاجتماعية

(85) ميزاب بلد قفاح ص 21

(86) مختصر العمارات ص 55

(87) يقول تعالى "و أمرهم شورى بينهم" و "و شاورهم في الأمر"

(88) أصول الاراضيـــن ص 98

(89) أصول الاراضين ص 39

(90) أصول الاراضـــين ص 53

(91) مجموعة مساكن "حومة" ، "حـي"

(92) اصول الاراضين صفحة 43

(93) انظر في ذلك اصول الاراضيـــن ص 97

(94) اصول الاراضـــين ص 46

(95) أصول الأراضـــين ص 80

(96) مختصر العمارات ص 55

(97) تقدم شرح ذلك في تخطيط المدينة

(98) انظر في ذلك أصول الاراضـــين ص 82 الى 96
انظر في ذلك مختصر العمارات ص 24 ـ 25 ـ 26

(99) مختصر العمارات ص 24 ـ 25

(100) حديث شريف

(101) و هو أصول الاراضين للشيخ أبي العباس

(102) مختصر العمارات ص 27

(103) اصول الاراضين ص 45

(104) أصول الاراضين ص 65

(105) انظر اصول الاراضين ص 76

(106) مختصر العمارات ص 25

(107) سورة الذاريات الآية 36

(108) سورة الانشقاق الآية رقم 6

(109) سورة النور الآية رقم 36 ج 18 .

(111) كتاب الوضح ص 89

(110) شامل الأصل و الفرع ص 189 ج 2

(112) سورة التوبة الآية 107

(113) شامل الأصل و الفرع ص 186

(114) المحضرة : المدرسة القرآنية

(115) شامل الاصل و الفرع ص 263

(116) يقول الشيخ الطفيش في شامل الاصل و الفرع ص 11 ج 2 "وقيل تفسد (أي القبلة) لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تصلوا في مقبرة ولا في مجزرة ولا في مزبلة ولا في حمام ولا معطن الابل ولا في قارعة الطريق ولا فوق الكعبة".

(117) شامل الأصل و الفرع صفحة 277

(118) شامل الأصل و الفرع صفحة 277

(119) تتمثل التنوبة في "أوقاف معلقة في أملاكهم (الموتى) ، التي كانوا يملكونها ، ينفذ ها من تنتقل اليه تلك الأملاك كل سنة مدى الدهر ، حسب رغبة المحبّس ، و وصيته . و التنوبة تقع في أيام الجمعة و خاصة في فصل الشتاء ، و هي عبارة على موكب مكوّن من أعضاء و من بعض الطلبة ممّن يحفظون القرآن ، يتوجهون الى مصلّى المقبرة المقصودة ، فيرتلون القرآن في جماعات ، و ذلك منذ الصباح الباكر ، و يتوافد بقية الأهالي بعد صلاة العصر الى المصلّى و يشرع في تفريق تلك الأوقاف و توزيعها على الحاضرين و هذه الأوقاف تتكون من طعام مهيء من نوع

خاص روعي في اعداده عدم تسترعه للفساد ، و امكان حمله و تفريقه بسهولة" (*) ويتكرر هذا العمل كل يوم جمعة طيلة شهرين ، أو ثلاثة أشهر الشتاء.

* ميزاب بلد كفاح صفحة 73 — 74.

(120) و ربما يرجع ذلك الى اعتقاد الاباضية أن الاموات يبعثون في الآخرة بأجساد الدنيا حيث يقول الشيخ أطفيش في كتابه الذهب الخالص ص 14 الطبعة الثانية

"يجب اعتقاد البعث و المبعوث هو الاجساد الفانية بعينها"

(121) سورة الانسان آية 9

(122) سورة الحديد آية 7

(123) سورة آل عمران آية 92

(124) مختصر العمارات ص 13

(126) مخطوط ترتيب نوازل نفوسة . للقطب الشيخ أطفيش ص 442

(125) و هو أبو سعيد ميمون الافلح ثالث أئمة الدولة الرسمية ، امتد حكمه من سنة 208 هـ الى 258 هـ "عن نشأة دولة الخوارج بالمغرب" مجلة البحث العلمي ص 269 — 279)

(127) السكن لغة : الراحة و الطمأنينة

المسكن : مكان الراحة و الطمأنينة

(128) سورة الروم آية 21

(129) يصل هذا العدد الى العشرين فردا حسب قول الشيخ ابراهيم الطلاي

(130) العائلة الميزابية . البنية التقليدية و التحولات الحديثة ص 14 بتصرف

(132) ص 71 "Habiter le desert"

(133) شامل الاصل و الفرع ص 143

(134) التي تعكسها الأمثال الشعبية الكثيرة و منها : "أَتِي تَتْفَنْ جَارْ إِنِّي تَكْبُوشْتْ إِرَقْ"

أي أنه من يدخل بين حجر الموقد و القدر يحترق

(134) ص 71 " Habiter le desert "

(135) سورة النور آية 27

(136) شامل الأصل و الفرع ص 142

(137) حديث شريف رواه الترمذي

(138) شامل الأصل و الفرع صفحة 101

(139) شامل الأصل و الفرع ص 102

(140) ترتيب نوازل نفوسة ص 407 (مخطوط للشيخ أطفيش)

(141) ثالث أئمة الدولة الرستمية الاباضية حكم من سنة 208 هـ الى سنة 258 هـ حسب محمد بن تاويت نشأة دولة الخوارج بالمغرب ـ مجلة البحث العلمي عـ 5 ـدد صفحة 269 / 279 المغـرب.

(142) يتحدث الشيخ أبو العباس أحمد في هذه المسألة في فصل : "قسمة المنافع في المشترك" في مخطوط أصول الاراضين صفحة 21

(143) شامل الأصل و الفرع صفحة 189

(144) شامل الأصل و الفرع ص 142

(145) مختصر العمارات ص 26

(146) أصول الأراضين ص 85

(147) مختصر العمارات ص 2

(148) أصول الأراضين ص 83

(149) مختصر العمارات ص 24 / 25

(150) مختصر العمارات ص 6 ـ 7 ـ 8 ـ 9

(151) مختصر العمارات ص 30

(152) مختصر العمارات ص 27

(153) مختصر العمارات ص 16

(154) ترتيب نوازل نفوسة ص 465

(155) مختصر العمارات ص 41

(156) ابـن خلدون

(157) ريـاض الصالحين ص 158

(157) ريـاض الصالحين ص 156

(158) مختصر العمارات ص 13

(159) القصور هنا تعني البناءات الفخمة و الضخمة

(160) تذهب المعتزلة الى غير هذا حيث تقول بأنّ الحسن ما حسّنه العقل و القبيح ماقبّحه العقل ، لذلك كان العقل عندهم أولى من النص في الاجتهاد

(161) سورة الذاريات آية 56

(162) انظر شكل رقـ 1 ـم

(163) سورة الأحزاب آية 72

(164) سورة البقرة آية 30

(165) انظر شكل رقم "2"

(166) حديث شريف ـ شامل الأصل و الفرع ص 4

= المقصود بالقلوب هي العقول

(167) يقول الشيخ اطفيـش :" روى : "جلوس ساعة مع العلماء أحب الى الله من عبادة ألف ألف سنة لا يعصى فيها طرف عين" ـ المصدر السابق

(168) سورة الاسراء آية 26 / 27

(169) المجتمع و التاريخ ج 1 ص 23

(170) سورة الممتحنة آية 13

(180) ذلك أنّ المجتمع في الفكر الاسلامي يعتبر أصيلا كأصالة الفرد فهو يموت و يحيى و يحاسب كلية بالثواب و العقاب حسب عمله

(181) مرتضى مصـاهـرى "المجتمع و التاريخ" ج 1 ص 24

(182) Le MZAB une leçon d'architecture P.141

(183) يقول هيرقليطس (Heraclites) ان التغير قانون الوجود و ان الاستقرار موت و عدم / الثقافة و الشخصية ص 82

(184) انظر سورة النمل آية 88

(185) باعتبار غريزته التي لم يخترها و التي يتحرك لتلبيتها وفق قواعد لم يتدخل في اختيارها أو ايجادها

(186) سورة الاحزاب آية 72

(187) انظر سورة القرة آية 164

(188) الذات المعنوية بما تحتويه من عقيدة و فكر و ذوق

(189) انظر سورة النساء آية 110

(190) التدور يعني الانتقال من طور الى آخر / مالك بن نبي

(191) سورة يونس آية 108

(192) سورة الرحمان آية 33

(193) و هي من العادات و التقاليد و الآداب و السلوك و الافكار و اللغة ...

(194) الثاقفة و الشخصية / ص 83

(195) ميلاد مجتمع ص 11

(197) ابتداء من مرحلة الاستعمار أي منذ سنة 1882 الى المرحلة الحديثة

(196) لقد شهد المجتمع الميزابي عزلة داتية شبه تامة عن الخارج دامت اربعة قرون و ذلك من القرن العاشر الى القرن الربع عشر . أما المرحلة الثانية و التي دامت خمسة قرون ، أي من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر ، فلقد كان تفتح المجتمع الميزابي على من حوله ، تفتحا يخضع لمراقبة دقيقة و صارمة من قبل مؤسسات المجتمع و هياكله بحيث منعت كل تأثر أو تحوير عميق أو مباشر في بنيته الثقافية ، المادية و المعنوية

(204) خواطر حول الوضعية الاجتماعية والعلاقات الانسانية في غرداية ص 13

(198) العسكرية والاجتماعية

(199) التل = الشمال الجزائري

(200) le processus d'urbanisation et les transformations sociales au M'ZAB
(Algerie P. 86 - 87)

(201) كتاب الوضح ص 168

(202) يقول الشيخان طلاى وبابانو : "ان من وسائل المجتمع في تثبيت ابنائه في الوطن (ميزاب) هو تزويجه مبكرا بحيث يجبر الشاب الذى يعمل خارج ميزاب على الرجوع الى وطنه اذا كانت له فيه زوجة " ذلك أن اخراج النساء من ميزاب "يعتبر تعد على حدود الله لزمت من فعله دعوة السوء من المذهب واللعنة والخزى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لأن في ذلك سوء العاقبة في الدين والأعراض وتشتيت للملّة وخراب للبلاد ومخالفة للأغراض" نص اتفاقية بين أضاء عزابة القرى السبع" ويصبح بذلك الميزابي الموجود خارج وطنه ميزابا، مسافرا وجب رجوعه طالت

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

هذا وقد اجتمعت اعضاء القرى السبعة وادلميزاب
غرداية وملیكة وبسفن وبنورة - والعطف وبريان والقرارة
اجتمعوا في عهد الرحمن الكوركي رحمه الله واتفقنا
بعد ان قرانا الجائحة على اننا لا نرضوا على ميزابيًا
ان يخرج زوجته او بنته او حرمة ميزابية مطلقًا
اي يخرجها من ميزاب الى بلدة من ساير البلدان مطلقًا
غير احدى السبعة القرى المذكورين فجعلنا ذلك حدًا
محدودا وحبلا مشيدا مرصوصا وسدا وثيقا
من تعداها فقد تعدى حدود الله ولزمته دعوة
السوء من المذهب وعليه اللعنة والخزي في الحيوة
الدنيا وفي الاخرة

معشر الاخوان اننا لا نقدر بطال دعوت الجمهورية
ولا حتى انا ولا كافة لمعارضتها فان الدولة لا تمنع
من فعل ذلك اوارادان يفعل ونحن لا نجهل ذلك الا اننا
نحذركم ونذركم ما لا ترضى به المسلمين فان عقوبة ذلك
خسرانا مبينا لان هذا مما يستهوننا عنها في ديننا
واعراضنا وتشتيت ملتنا وخراب بلادنا ومخالفة اغراضنا
وبدعة في سيرتنا قال صلى الله عليه وسلم ملعون من خالف
المسلمون ولو في شبر الى نقل والله على ما نقول وكيل انتهى
بتاريخ يوم ٦ سنة ايام مضت من شوال المبارك عام ١٣٤٢ هجرية
والسلام على من اتبع الهدى واخشى عواقب الردى ولعنة الله على

(من كذب وتولى)

مدّة اقامته حتى أن صلاته تكون بالتقصير عكس المذهب المالكي مثلا الذي يحدد مدّة التقصير في الصلاة عند السفر بثلاثة أيام . اذن فان المذهب الاباضي لا يعتبر الفرد مستقرا ومستوطنا مكان ما الا اذا كان له فيه أهل (زوجة) يقول الشيخ أطفيش : "ويقصّر المسافر ولو طال مقامه في مصر ما لم يوطّنه (المذهب الخالص المنوه بالعلم القالص ص 147). اعتمادا على قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "من تأهل ببلد فهو من أهله" ... أي "أن مجرّد التزوج يجعل الانسان محدودا في أهل البلد"

(203) مزاب بلد كفاح ص

(206) بما في ذلك قوانين البناء والتعمير التي وقع تقديم بعض الفصول منها في بداية البحث

(207) لمزيد التفصيل ،ارجع الى المدخل النظري

(208) الجدير بالذكر هنا أن تاريخ هذه الاتفاقية توافقه ثورة محمّد بن عبد الله في الصّحراء والتي دامت من 1851 الى 1854 ضدّ فرنسا والقبائل المتحاونة معها

(209) Le processus d'urbanisation et les transformations sociales du M'ZAB p:88

(210) " " " " " " " " p. 91/99

(210) نفس المرجع — عن ---------- Merghoub (B) op cit p 53.
Dr. Amat (CHARLES) op cit p: 25
Gouvion (Het E) op. cit p: 256.

(213) وذلك في كتابه ميزاب بلد كفاح ص 54 بتصرّف

(211) سورة البقرة . آية 249

(212) سورة محمد آية 4

(217) انظر لمزيد التفصيل أطروحة : Le processus d'urbanisation et les transformations sociales du M'ZAB. (MERGHOUB (B) op cit p 99/91 ; op cit p 54 ; CHARLES (H), Les communes en Algérie ; SOUBIROUS, Alger p: 188.).

(221) مزاب بلد كفاح ص 82

(213) سورة الا نفال آية 60

(220) وهي المحاضر القرآنية القديمة التي تشرف عليها العزّابة والتي يقتصر التدريس فيها على حفظ القرآن وتحليم قواعد المذهب الاباضي .

(234) تسجيل بالعطف (ميزاب) ديسمبر 1988

(235) الرسالة الشافية ص 92

(236) "بدأت الاحوال الاجتماعية في ميزاب تتغير ،ونظم العزّابة وسلطتهم تنحسر شيئا فشيئا عندما تمركز الفرنسيون بميزاب سنة 1882 ." (من كتاب مزاب بلد كفاح ص 47)

(237) انظر المدخل النظري لعوامل التحوّل وما قالته الدّكتورة سامية حسن السّاعاتي في ذلك

(238) مزاب بلد كفاح ص : 76

(239) ارجع الى بداية تحليل المرحلة الاستعمارية

(240) العائلة الميزابية: البنية التقليدية والتغيرات الحديثة ص، 28

(241) L'Afrique du nord française dans l'histoire du VIIe Au XIXe Siecle p. 322

(242) انظر صياغة الوثيقة المتعلّقة بالاتفاقية حول عدم خروج المرأة الميزابية من ميزاب

(243) انظر في ذلك Le processus d'urbanisation et les transformations Sociales du M'ZAB p 137

(244) L'Afrique du nord Française dans l'histoire du XIIe Au XIXe siecle (p. 323).

(245) تحصّلنا على الأرقام من أطروحة ابراهيم بن يوسف ص 147

(246) تحصّلنا على الأرقام من أطروحة ابراهيم بن يوسف ص 140

(247) منطقة صناعية بتعد مسافة قدرها 10 كم على "غرداية" باتجاه المنيعة

(248) لقد وصل الأمر الى صدام دموي بين الميزابيين الأصليين وجانب من النازحين (المذابيين) وذلك سنة 1985

(249) من دراسة جامعية حول العائلة الميزابية (البنية التقليدية والتغيرات الحديثة) للأستاذ هيبة الحاج رمضان والكلام لطلعت همّام : سين وجيم عن علم الاجتماع، ص 118.

(250) العائلة الميزابية البنية التقليدية والتغيّرات الحديثة ص (2)

(251) هبة الحاج رمضان نفس المرجع ص 14، 15 و 16

(252) مزاب بلد كفاح ص : 60

(253) يقول "Elle a obtenu la possibilité de s'instruire, de circuler en automobile, d'accompagner son époux dans les villes du Nord, Habiter le desert" (71 6) (DONNADIEU, DIDILLON)

(223) ذلك أن القانون المحلي الذي يمنع الميزابي من ميزاب والذي قدّمناه سابقا لم يعد يطبّق حاليا ودخل مع كثير من القوانين الأخرى الى تراث الذاكرة

(224) L'Afrique du Nord française dans l'histoire du XVIIe au XIIe siècle (p 323)

(225) تسجيل ...

(226) Le processus d'urbanisation et les transformations sociales au M'Zab (ص 102)

(227) Habiter le désert ص 34

(230) Le processus d'urbanisation et les transformations sociales au M'Zab (ص 132)

(231) (ص 133) " " " " " "

(234) (ص 183) " " " " " "

(254) Plan directeur RAVEREAU A.P.U.2

(256) عكس رافيرو الذي حاول مقابل ذلك رسم خطوط عامة لامتداد الواحة والذي كان واقع الجهة يسمح به أكثر سنة 1962 من سنة 1973 باعتبار وجود الاراضي الهامة التي لم تستغل بعد سواء في البناء أو الفلاحة مما لا يمكن بعد التضخم الذي حصل في الجهة من حيث البنايات السكنية والوظيفية.

(257) نظرا لعدم الموافقة والمصادقة على مثال التهيئة الذي جاء به سبير (SPEER) ممّا يجعله غير قانوني رغم أن بلدية غرداية تعتمد عليه الى حدّ الآن.

(258) C.E.R.A.U مركز الدراسات والبحوث المعمارية والتعميرية بـ Bruxelles
Centre d'études et de recherche d'Architecture et d'Urbanisme.

ـــــ ملاحظة :

لاخذ الأمثلة الواردة في الجزء الخاص بالعمار والممارسة الاجتماعية في ميزاب قديما، المتعلّقة بالعمار التاريخي مأخوذة من مكتب الدراسات والصيانة بغرداية (Bureau de la vallée).

III - ابعاد الاشكالية المطروحة في ميزان

1. مقارنة واستنتاج

2. كيف التعامل مع الواقع المعاري في ميزان

1. مقارنة واستنتاج

١- الثوابت والمتغيرات
- في الممارسة الاجتماعيّة
- في المعمار

٢- إستخلاصات

2. كيف التعامل مع الواقع المعماري في ميزاب

١- تجربة سليمان تيزوقاغين
٢- ملامح رؤيتنا (نظريًا)

1. مقارنة واستنتاج

1- الثوابت والمتغيرات في الممارسة الاجتماعية

- الجانب السّياسي :

قديما	حديثا
الثوابت	
الشّعور بواجب الحفاظ على المبادئ الأساسيّة للمذهب بما فيها من التميّز والاستقلاليّة	
المتغيّرات	
سلطة محلّية	سلطة مركزيّة خارجية
هياكل تسيير ومراقبة محلّية	هياكل تسيير ومراقبة مركزية خارجيّة
قوانين دينيّة محلّية	قوانين وضعيّة مركزيّة
أهداف سياسية مذهبية خاصّة	أهداف سياسية وطنيّة عامّة
علاقات خارجية محدودة	علاقات خارجية مفتوحة

ـ الجانب الاقتصادي :	
المتغيرات	
الفلاحة (الواحة)	التجارة والصّناعة
مؤسّسة اقتصاديّة خاصّة	مؤسّسة اقتصادية خاصّة أو حكوميّة
مؤسّسة اقتصاديّة عائلية مشتركة	مؤسّسة اقتصاديّة فرديّة أو عموميّة
الهدف : (المعاش)	الهدف : (الاثراء)
الهدف بقدر الحاجة الحياتية	الهدف الرّفاهيّة وتنمية الاستهلاك
المنتفع : أفراد العائلة الموسّعة ثم المجتمع	أفراد العائلة النّووية وفي بعض الاحيـــان العائلة الموسّعة .
الثوابت	
التكليف : الرّجل	الرّجل
ـ الجانب الفكري :	
الثوابت	
الشعور بواجب الحفاظ على المذهب وتطبيق مبادئه العامّة	

المتغيّرات	
فكر اسلامي ايباضي	مزيج من الفكر الاباضي الاسلامي والمادّي العالمي
تعليم محلّي ومحتوى عقائدي مذهبي	تعليم "رسمي" ومحتوى علمي وفكري وطني وعالمي
وسائل اعلام وتثقيف محلّية	وسائل اعلام وتثقيف خارجية تابعة للسّلطة المركزية
ـ الجانب الاجتماعي :	
الثوابت	
الوظائف : التفريق في الوظائف والمسؤوليات بين الرّجل والمرأة	
الفصل بين عالم المرأة والرّجل	
احترام العلاقات العائلية	

مسألة الحرمة

تعتبر الحرمة من المسائل الهامّة في المجتمع الميزابي القديم منه والحديث، فهي من الثوابت الستي تمّ الحفاظ عليها وصيانتها من كلّ ما من شأنه أن يخلّ بها وأن يجعلها عرضة الانتهاك! والمقصود بالحرمة هنا ليست المرأة فقط بل المجتمع كلّه، فالمجتمع له حرمة، والاسرة لها حرمتها، والفرد في المجتمع له حرمته كما أنّ للميّت حرمته تماما مثلما للحيّ.

فمبدأ الحفاظ على الحرمة هو مبدأ أساسي، ميّز فيما مضى العلاقات في المجتمع الميزابي والممارسة الاجتماعية فيه ويميّز كذلك الممارسة الاجتماعية الحديثة، بالرغم من التغيرات والتحوّلات التي طرأت عليها والتي شرحناها آنفا. وتبرز هذه الظاهرة الهامّة (الحرمة) في العمارة الحديثة في ميزاب بشكل عامّ، وفي المعمار الذّاتي بشكل خاصّ ولا سيّما الجزء التلقائي منه.

المتغيرات	
المجتمع كتلة متجانسة ومتكاملة ومتكافلة	المجتمع مجموعة فئات متمايزة المستوى المادّي والثقافي · (شبه مستقلة)
علاقة الفرد أو العائلة بالمجتمع هي علاقة حماية ومراقبة ·	علاقة الفرد أو العائلة بالمجتمع هي علاقة تراثية تاريخية
العشيرة هي مجموعة عائلات تدافع بعضها عن بعض ،متكافلة وتراقب بعضها البعض	العشيرة هي اطار للعلاقات الموروثة بين العائلات (القرابة)
العائلة هي مجموعة أسر خاضعة لسلطة الوالدين	العائلة هي الأسرة النّوويّة التي تقتصر على الأب والأم والأطفال
العلاقات العائليّة هي اشتراك في السّكن والمنافع والكسب والمعاش	استقلاليّة في السّكن والمنافع والكسب والمعاش
حجم الاسرة كبير وممتد	متوسّط أو محدود
الزّواج مبكّر وفي اطار العائلة	متأخر نسبيّا ومفتوح
تميّز الفرد في المجتمع:بالسّنّ والدّين	بالسّنّ والتعليم والقدرات المادّية

في المعمار	
قديما	حديثا
ـ في القوانين : المتغيّرات	
قوانين مستنبطة من القيم والمبادئ الدّينية وطبيعة العلاقات الاجتماعيّة	قوانين وضعيّة ذات أبعاد تنمويّة عامّة ونمـــط استهلاكي حديث
ـ في التخطيط : المتغيّرات	
بالاتفاق حسب حاجات المجتمع	حسب أهداف السّلطة المركزيّة
ـ في المراقبة : المتغيّرات	
من قبل الهياكل الدّينيّة الاجتماعية	من قبل هياكل ومؤسسات السّلطة المركزية
في عناصر العمارة	
1) في هيكلة المدينة المتغيّرات	
حسب الحاجة وحسب مجالات متقابلة : ـ (نسائية/رجالية) (1) ـ (عامة/خاصّة) (2) ـ (دينية/دنيوية) (3)	حسب مناطق وظيفية وحسب الحاجة دون اعتبار للأزواج (1) ، (2) و (3).

2) في نموّ المدينة	
المتغيّرات	
المحافظة على الهيكلة العامّة للمدينة (موقع المسجد ،موقع السّوق ، ...)	نموّ لا يأخذ بعين الاعتبار الهيكلة العامّة للمدينة
النّموّ من ناحية الشرق والأخذ بعين الاعتبار الضّوابط الجغرافية الطّبيعيّة (مجرى الوادى)	نموّ في كلّ الاتّجاهات ولا يأخذ بعين الاعتبار المحيط الطّبيعي
3) في الطّـرق	
المتغيّرات	
تخطيط الطرق حسب المنافع وحسب المناخ والمقاييس الانسانية	تخطيط الطّرق حسب الاستعمال (وسائل التنقل)
طرق عامّة وخاصّة	طرق عامّة فقط
4) في المنافـع	
المتغيّرات	
الاستعمال حسب الجنس والسّنّ	الاستعمال عام وحسب الحاجة
تعدّد الوظائف	تخصّص في الوظائف

ج) في المساكن الثوابت فصل المجال الرّجالي عن النسائي والحفاظ على حرمة المسكن
الحفاظ على بعض عناصر المسكن كالمدخل "المنعطف" ووسط الدّار و "التزفرى" والايكومار

المتغيّرات	
مساكن ملتصقة	مساكن منفصلة ومستقلة
نمط محلّي ومنغلق (Introvertie)	نمط مستورد ومفتوح (Extravertie)
المساحة الأرضية والجملية المغطاة صغيرة وبقدر الحاجة	المساحة الأرضيّة والجملية المغطاة كبيرة وتفوق الحاجة
صياغة الفضاءات حسب الحاجة الحياتيّة	صياغة الفضاءات حسب نمط الاستهلاك الحديث والمتطوّر والتّوق الى الرّفاهة
تأقلم مع المحيط الطّبيعي (جغرافي ومناخي)	عدم مراعاة المحيط الطّبيعي
المسكن : مجال العائلة الممتدة	المسكن : فضاء العائلة النّووية
المسكن : مجال خاصّ بالمرأة بدرجة أولى	المسكن : مجال مشترك بين المرأة والرّجل

5) في جزئيات المسكن	
زاوية للطّبخ (موقد في وسط الدّار)	مطبخ كبير وكامل الشروط
فضاء للطّهارة صغير وبقدر الحاجة	غرفة أو أكثر للاستحمام
زاوية للصّلاة في التزفرى مخصّصة للنساء	غرفة للصّلاة أو غرفتان
مقاييس ونسب بقدر الحاجة	مقاييس ونسب فوق الحاجة
مواد بناء محلية ملائمة للواقع المناخي	مواد بناء مستوردة وخارجية لا تلائم الواقع المناخي
تكييف طبيعي	تكييف اصطناعي

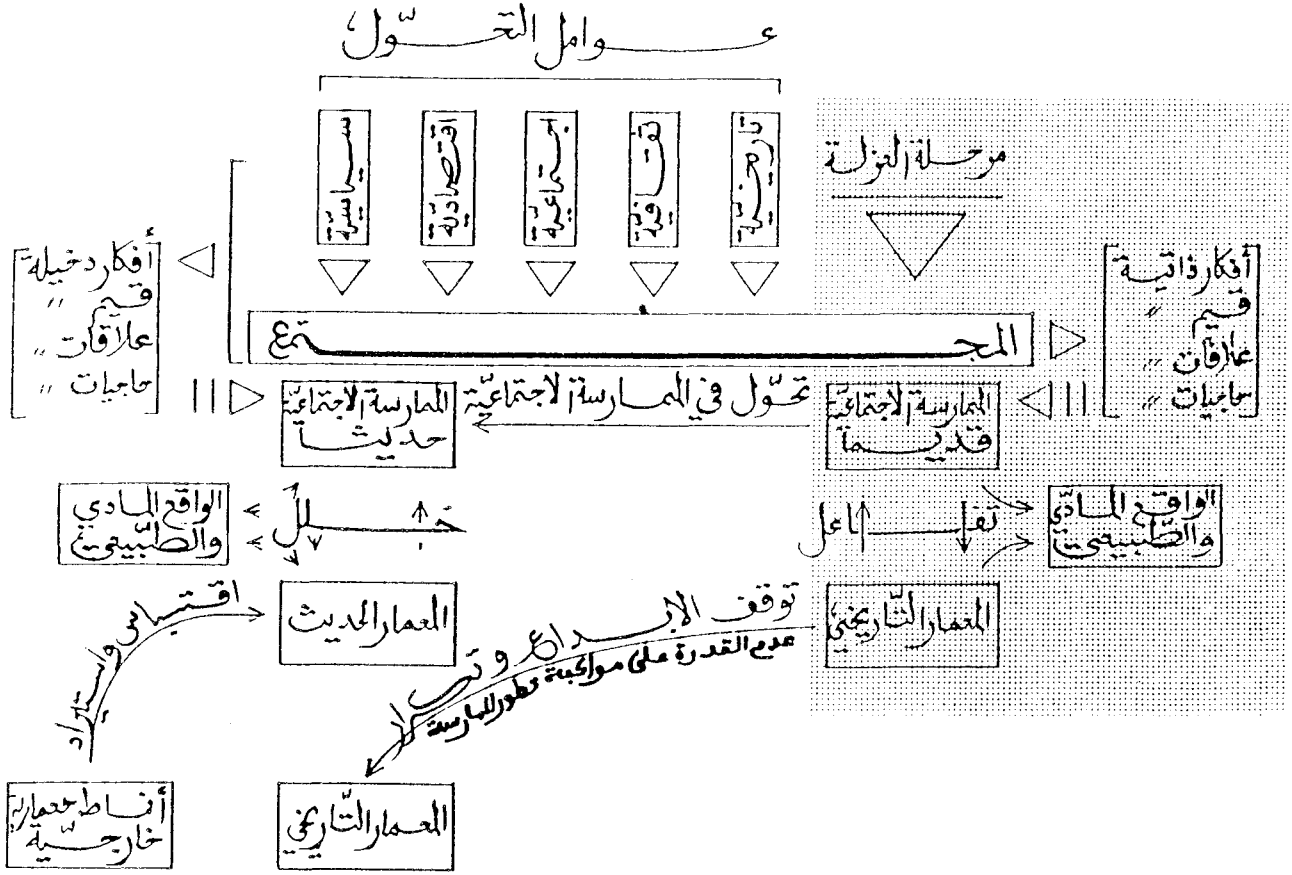
استخـــلاصـات

لقد تميّزت العلاقة بين المعمار والممارسة الاجتماعية في الماضي بتجانس وانسجام، حيث كان المعمـار انعكاسا مباشرا لفكر المجتمع وممارساته واستجابة لحاجياته دون تعقد أو اخلال بالضرورات كماكان المعمـــار يصاغ بطريقة تمكّنه من تحقيق أهداف المجتمع والمحافظة على نمط حياته ومنهاج عقيدته.

وأخيرا فقد كانت علاقة كلّ من الممارسة الاجتماعية والمعمار بالاطار المادي والطبيعي للمنطقة علاقـــة تكامل بحيث نجد تأقلما للممارسة الاجتماعية والمعمار مع هذا الاطار بالاستفادة منه دون محاولة تجاوزه أو تغيير ملامحه.

الا أنه دخلت على المجتمع عوامل خارجية، سياسية، اقتصادية، فكرية واجتماعية، أحدثت فيه تحولات عميقة في ممارسته الاجتماعية بما يتناقض مع الكثير من القيم الثقافية والممارسات الاصيلة للمجتمع وذلك رغـــم محاولة الهياكل الاجتماعية التقليص من تأثير هذه العوامل ومنع حصول التحوّل، بينما لم يشهد المعمـــار أي تطوّر أو تغيّر نتيجة توقف المجتمع عن الابداع لمدّة طويلة من الزمن ممّا جعل هذا المعمار غير قادر علـى مواكبة التحوّلات الحديثة التي حصلت في الممارسة الاجتماعية والتأقلم معها حيث أنه لم يعد يستطيع الاستجابة لحاجيات المجتمع المستحدثة وتحقيق طموحات أفراده الشيء الذي جعل هؤلاء يبحثون عن معمار آخـــر يستجيب لحاجياتهم ويحقق رغباتهم وذلك باستيراد أنماط معمارية خارجية لا ترتبط بالمعمار التاريخي في أي مستوى ولا تأخذ بعين الاعتبار الطبيعة الثقافية للمجتمع والاطار المادّي والطبيعي للمنطقة ممّا أحدث قطيعة بين هذا النتاج المعماري والمعمار التاريخي وخلّل في العلاقة بينه وبين الممارسة الاجتماعيّة الحديثة حيث لم يقدر على الاستجابة الموفقة لممارسات المجتمع وحاجياته الموضوعية والمتطوّرة إضافة الى مساهمته في صنـع ممارسات وحاجيات منبتّة عن واقعه المادّي والفكري والنفسي.

وفيما يلي نورد مقارنة بين أسس المعمار التاريخي والمعمار الحديث ومنهجيتي صياغتهما، لرسم ملامـح رؤيتنا للنهوض بالواقع المعماري للجهة بما يتلاءم مع حاجيات المجتمع الموضوعية والحديثة وأصوله الثقافية.


عوامل التحول
تاريخية
ثقافية
اجتماعية
اقتصادية
سياسية
مرحلة العزلة
المجتمع
أفكار ذاتية
قيم
علاقات
حاجيات
أفكار دخيلة
قيم
علاقات
حاجيات
تحول في الممارسة الاجتماعية
الممارسة الاجتماعية قديما
الممارسة الاجتماعية حديثا
الواقع المادي والطبيعي
تفاعل
الواقع المادي والطبيعي
حلل
المعمار التاريخي
توقف الابداع وتكرار
عدم القدرة على مواكبة تطور الممارسة
المعمار الحديث
اقتباسي واستيراد
أنماط معمارية خارجية
المعمار التاريخي

1) علاقة الممارسة الاجتماعية بأسس المجتمع الفكرية

ينبع اهتمامنا بأسس المجتمع الفكرية باعتبار صياغتها لممارسة المجتمع وبالتالي انتاجه المعماري . ففي حين كان المجتمع الميزابي يخضع قديما لأسس فكرية محلية نابعة من أصول حضارية ، أصبح في الوقت الحاضر يخضع لقيم فكرية خارجية غريبة عنه ومتناقضة في كثير منها مع موروثه الثقافي وأسسه العقائدية ممّا أحدث تحوّلا عميقا في ممارسته الاجتماعية بما لا يرتبط مع ما كانت عليه سابقا . وقد نتجت هذه الوضعية عن عجز الهياكل السّياسيّة والاجتماعية المحلّية عن تطوير فكر المجتمع وبالتالي ممارسته (عدم تطوير التعليم في الوقت المناسب وبالكيفية اللازمة ... المبالغة في الحفاظ على بعض القضامين الفكرية الشّكلية ،المبالغة في الانزواء والاستقلالية ..) وأساليب عملها .

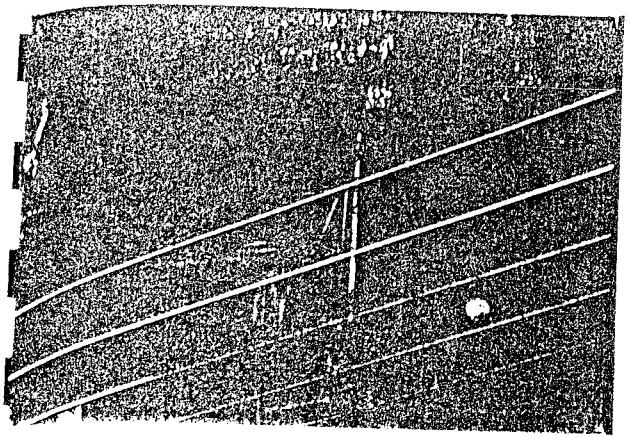
2) تأثر الانتاج المعماري بقيم المجتمع الفكرية

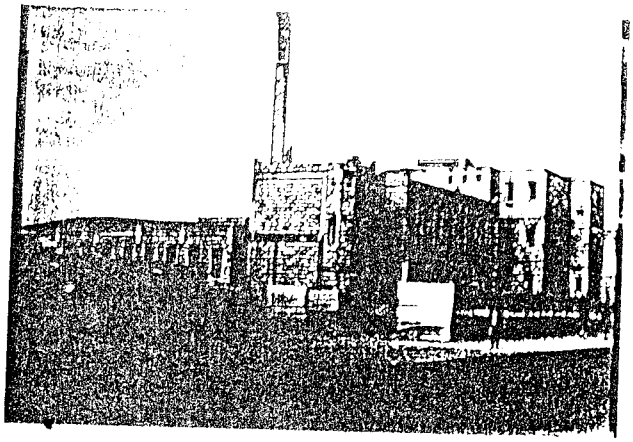
لان كان المعمار التّاريخي مرتبطا بقيم المجتمع ارتباطا وثيقا في القديم ،حيث كان انعكاسا مباشـــرا وفطريا لهذه القيم ،فان المعمار الحالي يشكو من علاقة غير صحّية بينه وبين القيم الحديثة للمجتمع التي تحتوى على قيم خارجية غريبة عنه وبعض القيم الأصيلة التي مازالت تشدّ المجتمع اليها ومثال ذلك مسألة الحرمة وقيمة حفظ العرض التي بقيت من الثوابت المؤثرة على العمارة بأشكال عديدة وبما يتناقض مع نمط هذه العمـــارة الغريبة في كثير من الأحيان .

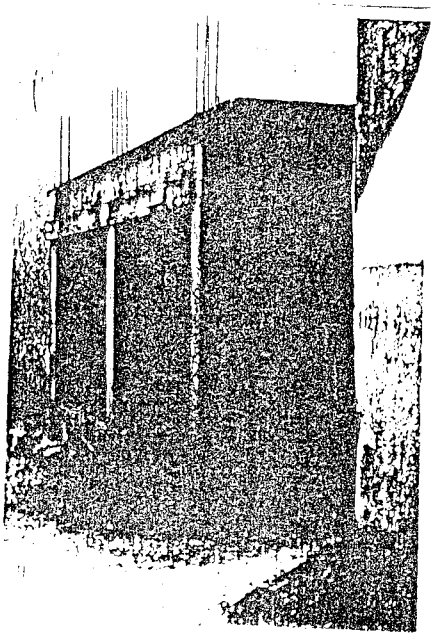
كما أن من أوجه التضارب بين المعمار الحالي والقيم الحديثة عدم قدرة المجتمع على ربط هذا المعمار بهذه القيم نوعيّا واقتصار ذلك على المستوى الكمّي ، ومثال ذلك الافراط في البناء دون استعماله بالكلية أو حتى بالطريقة التي تتناسب مع نمطه (طوابق غير مستعملة ،غرف مغلقة ،شرفات مهجورة ... الخ)

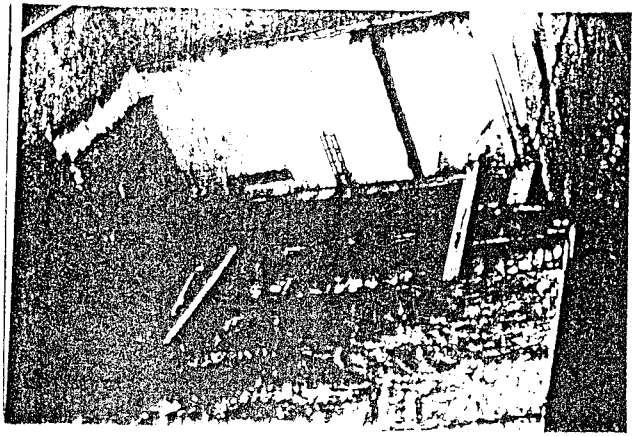
3) خضوع المجتمع في انتاجه المعماري الى سلطة مشرفة ومسيّرة :

لان كانت الهياكل السياسية والاجتماعية المحلية في الماضي توجه وتأطر عملية البناء من خلال تشريعات وقوانين نابعة من عقيدة المجتمع الميزابي وفكره وبالتالي ارادته بما ينسجم مع ممارساته وطبيعة علاقاته حتى ان الكثير من التشريعات والقوانين كانت تؤخذ بعد اتفاق من يهمهم الامر لتعبّر عن ارادة المجتمع الحرّة فـــي









التقنين ومسؤولية كل أفراده في المحافظة على هذه القوانين ومراقبة تنفيذها ،فان القوانين المالية المتعلقة بالبناء والتي وضعتها السلطة المركزية لا ترتبط في الكثير منها الا بمخطّطاتها واختياراتها المركزية دون الرجوع الى ارادة المجتمع وخصوصياته الثقافية فكان ذلك المعمار الحديث منفصلا عن هذه الارادة وهذه الثقافة وبالتالي عن المجتمع.

4) مهمّة الانتاج المعماري من المشاركة الجماعية الى السلطة الفردية

من كل ما سبق نلاحظ أن المعمار التاريخي كان في القديم ثمرة المجتمع بأسره ،حيث شارك في صياغة مختلف أفراده ومؤسساته ممّا جعله يمثل وحدة متجانسة بين مختلف مكوّناته وبينه وبين المجتمع، في حين تتجاذب المعمار الحالي أطراف عدّة مختلفة الأذواق والمناهج ومتناقضة الأهداف في كثير من الأحيان ،محاولة كلّ منها التفرّد بسلطة الاعمار ممّا أحدث اضطرابا في علاقة المجتمع بنتاجه المعماري الذى أصبح يمثل خليطا من العناصر المختلفة والغير متجانسة.

2. كيف التعامل مع الواقع المعماري في ميزاب

1. تجربة سليمان تيزوقاغين

أمام الواقع المعماري الذى تعيشه ميزاب حاليا والذى يتسم بالتدهور وعدم التجانس والتناسق ، مع ما يشهده البناء من نمو سريع جعل الكثيرين سواء كانوا من السلطة أو من خارجها يفكرون في كيفية ايجاد حل لهذا الواقع والتدخل فيه بما يعيده الى موقعه الطبيعي والأصيل ،الّا أن الرؤى في ذلك تختلف من شخص الى آخر. ومن هذه الرؤى والتجارب، التجربة التي قام بها مهندس الكهرباء السيد سليمان تيزوقارين وهو ميزابي من بني يزقن حيث تفكّرنا تجربته بورشة البوهاوز " BAUHAUS " التي أحدثت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الاولى اذ اهتم بكل ما هو تقليدى وتاريخي من النسيج الى الاثاث حتى المسكن ذاته محاولا النهوض به وجعله يواكب الحاجيات الحديثة والاستعمالات المستحدثة ،مع اخضاعه لنسق الانتاج الحديث المتّسم بالكثرة والسرعة

والتماثل . وفيما يخص النسيج ،تحصل سنة 1984 على ميداليتين ،ذهبية وبرنزية في جينيف " GENEVE " .
أمّا في مجال العمارة ،فان له تجربة فريدة قام بها في الامتداد العمراني لبني يزقن نقدمها فيما يلي :

بدأ السيد سليمان تيزوقاغين تجربته بمحاولة معرفة أسباب تدهور العمران في ميزاب ليعمل على تلافيها والابتعاد عنها ،فهو يلاحظ أن ميزاب لم يشهد تدهورا قط على مستوى المعمار والتعمير كالذي بدأ يحصل له منذ سنة 1970 . وأول سبب كان وراء هذا التدهور ـ حسب رأيه ـ هو تصنيف منطقة ميزاب ضمن المناطق والمعالم التاريخية وتركيز مكتب للدراسات المعمارية والصيانة بغرداية الذي يتكفل دون غيره بصيانة هذا المعمار وبمتابعة كل بناء في الجهة حيث يخضع لرخصته ومراقبته ممّا عمل على عزل المعمار عن الصّياغة والفعل عن الهياكل التقليدية التي كانت تسهر على مراقبة النشاط المعماري بما يتماشى مع ثقافة المجتمع وتتدخل في الوقت المناسب لصيانته عند كل بداية تداع أو سقوط ونتيجة لهذا الاختيار تدهور المعمار وتماثلت كثير من المعالم للسقوط بسبب تعقد الاجراءات الادارية وبطئها كما أن جهل المسؤولين والتقنيين في هذا المكتب ـ باعتبارهم خارجيين ـ لمعمار وادي ميزاب وللاصول الفكرية والثقافية[35] لتصيخ بها لا يمكنهم من صيانته والنهوض به فضلا عن فقدانهم الحماس الكافي له . بل حتّى وان وجد بعض الحماس لهذه العمارة الا أن امتلاك هؤلاء المهندسين المعماريين أو التقنيين الخارجيين لذوق ،ومنهجية خارجية لا يمكن الا أن يسقط نمطا وفكرا خارجيا عن العمارة المحلية ولا يتصل بها الا في بعض الشكليات كالذي حدث في الذارة البريد التي بنلها روفيرو واضافة لما سبق ،فان الزام المواطنين بتقديم أمثلة لبنائهم للسلط المختصة بمافيها مكتب الدراسات والصيانة لدراستها والمصادقة عليها أجبرهم على الرجوع الى المهندسين المعماريين أو التقنيين لانجازها وباعتبارهم عادة ما يكونون خارجيين ، وباعتبار كذلك عدم ارتباطهم بهذه العمارة اضافة الى أنه وقع تكوينهم حسب معايير خارجة عن القيم المعمارية لميزاب فقد وقع بذلك اسقاط أنماط معمارية وذوق فني خارجي عن المنطقة فضلا عن عزل البنائين الاصليين والسكان عن عمارتهم .

بذلك كانت مبادرته وتجربته كتعبير عن أن النهوض بمعمار وادي ميزاب لا يمكن أن يكون الا من قبل أهله أو على الأقل من قبل من فهم وتشبع بالقيم والمبادئ التي صاغت هذه العمارة لينطلق منها ومن جديد في صياغة المعمار المستقبلي حيث يقول : "انطلقنا من الملاحظات السابقة وقلنا يجب أن نجد حلولا لمشاكل البناء التي نعيشها وذلك بأنفسنا "[36]

ان أوّل ما نلاحظه في الصياغة العمليّة لتجربة سليمان تيزوڤاغين هو أنّه لم يعدّ مثالا في ذلك واكتفى برسم بعض الافكار . فاعتمد في البناء المنهجية القديمة التي يتخذها البناؤون وهي صياغة المسكن مباشرة على الأرض بحيث يتأقلم معها ويتطوّر شيئا فشيئا حيث لا تظهر صورته النهائية الا بعد اتمامه وفي هذه المنهجية يقول سليمان تيزوڤاغين : "ان منهجية العمل بين المهندس المعماري صاحب الدراسة الاكاديمية والبنّاء صاحب الخبرة المحلية اختلافا تاما ،فبينما ينغلق المهندس المعماري في مكتبه محاولا انتاج بناء يضع عليه امضاءه وبصماته مما يجعله يهتم اهتماما مفرطا بالغلاف والواجهة على حساب الداخل مستعملا في بنائه مختلف مواد البناء مهما كانت تكلفتها ، لا يهتم البنّاء الذي تعوّد على العمل بدون مثال ،الا بالحاجة التي تتطلبها العائلة ومواد البناء الموجودة على ذمته وبما يضاف الى ذلك شكل الارض التي يبني عليها . ويعلمه بالحاجة العائلية المباشره لمختلف فضاءات المسكن ومكوناته ونظرا لعلمه كذلك بخصائص مواد البناء المحيه وما تستطيع أن توفره من استعلامات مختلفة اضافة الى علمه بامكانيات المالك المادية ونمط حياته يمكن له صياغة عمارة محلية جيّدة وأقل تكلفة بينما لا يملك المهندس المعماري الحديث وخاصة الخارجي هذه المعلومات ولا يقدر فهم خصائصها أو طريقة صياغتها بل لا يملك المنهجية الملائمة للعمل " (261)

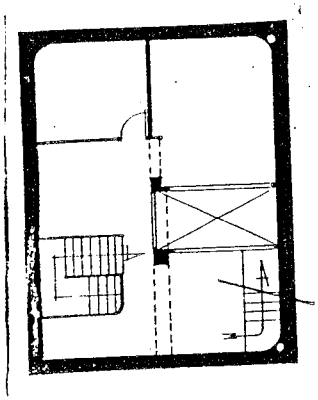
كما أن لهذه المنهجية التي اتبعها سليمان تيزوڤاغين فضلا كبيرا في توفير ما بين 40٪ الى 60٪ من الوقت المستهلك في عملية البناء ذلك "أن البنّاء الذي يكون المصمّم والمنجز في آن واحد يملك كل شيء في رأسه ويمسك بكلّ دقائق البناء وخصائص موادّه " (262) مع عدم خضوعه للتسيير والقرار الخارجي (المهندس المعماري) ممّا يوفّر ايجابيات مادية واجتماعية كثيرة وبهذه المنهجية ،لم يستغرق بناء المسكن الذي انجزه سليمان تيزوڤاغين أكثر من خمسة عشرة (15) اسبوعا كما وفّرت ،إلى جانب بعض الاعتبارات الأخرى التي سنذكرها فيما بعد أربعون في المائة من تكلفة المسكن التي قدرها المهندسون المعماريون بأربعين مليون لتصبح أربعة وعشرون فقط .

يقول سليمان تيزوڤاغين "ان النموذج الذي صغناه هو الدليل على إمكانية كذلك تستند للعمارة التاريخية وتتواصل معها . لذلك عملنا أولا على اقناع الناس بان هناك طريقة يمكن أن يخرج من أصالة البناء عندنا دون اللجوء الى الاقتباس من التيارات والنماذج والطرق المعمارية الاجنبية التي لا تتأقلم مع التقاليد والعادات ولا تحترم النصوص القديمة ممّا يتسبب في فوضى في البناء ، بينما لهذه الطريقة امكانية اعطاء حل للاحتياجات الجديدة . فبدأنا من هنا بدراسة مختلف جوانب المسكن القديم والافكار والتغييرات الجديدة التي دخلت عليه

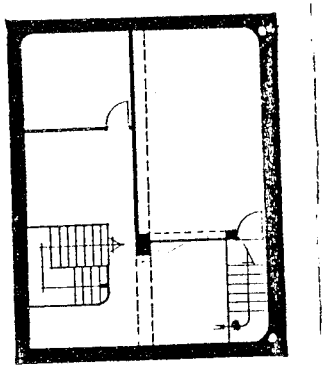
لنأخذ الجيّد ونترك السيء، كما رأينا الحل في المواد المحلية التي يمكن أن تستجيب للحاجيات الأصلية لا التي يتخيلّها الشخص والتي لا يكون لها معنى " (٢٤٢)

والجير ... اضافة الى محاولة تطوير بعضها كالطين حيث جرّب نوعا من الآجر المستخرج من الطين المثبت " Terre Stabilisée " أما الخشب فقد استعمل في أول الامر وفي تجربة بدائية وسابقة الخشب الأبيض كعوارض (Poutrelle) عندما كان متوفرا وأقل ثمنا من خشب النخيل ،أما عندما قلّ وارتفع ثمنه بما ظهر الى استعمال هذه العوارض من الاسمنت المسلح المصنوع بالقالب في نفس موقع البناء ويتم استعماله في البناء بطريقة عازلة وابتعد بذلك عن المواد الخارجية التي تختلف اختلافا جذريا عن المواد المحلية والتي لا تتأقلم مع نمط المعمار الأصيل ولا تتماشى كلية مع المناخ المحلي . الا أننا حسب قول السيد سليمان نجدها تستعمل كثيرا من قبل المهندسين المعماريين الذين يجدون أنفسهم مجبرين عند استعمال الحديد أو قوالب الاسمنت مثلا على ادخال المكيفات الهوائية لتخفض من تأثير شرب حرارة الصيف الشديدة وبرودة الشتاء القارس . ان اعتماد السيد سليمان تيزوقاعين على المفاهيم المجتمعية المحلية والقواعد الفكرية الاسلامية والتي من بينها مسألة الاستخلاف(٢٤٣) في الفعال جعلته يعتبر أن قاعدة البناء في ميزاب هي تلبية الحاجة والوصول الى الهدف بأقل تكلفة . بل يؤكد على عدم التصرف من غير الحاجة حيث يقول : " le travail et la demarche du maçon est la même de celui qui construit un autre, donc si on doit mettre 6 boulons dans une roue, le sixième boulon doit être justifié "

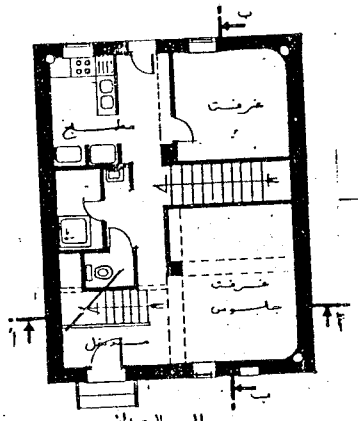
وفي هذا الاطار نلاحظ استعماله للمواد الأقل تكلفة بل انه لم يحاول ادخال بعض المواد التي أصبحت مستعملة كثيرا في ميزاب كالجليز والخزف ... كما نلاحظ الغياب الكلي لعناصر الزخرفة سواء في داخل المسكن أو خارجه بل ان الواجهات الاربع للمسكن لا تملك حتى اللياسة (Enduit) واكتفى السيد سليمان باحاطة البابان الرئيسي والفرعي والثلاث فتحات بهذه اللياسة . كما أننا نلاحظ بساطة وابتعادا عن كل تعقيد في صياغة العناصر المختلفة للبناء الداخلية منها والخارجية ومن ذلك الباب الرئيسي للمسكن الذي لا يحتوي على أية زركشة أو نقش وهو رغم ذلك يمتاز بقيمة جمالية كبيرة تذكرنا بالبهجة جمال المعمار التاريخي لميزاب . وفي هذا يضيف السيد سليمان تيزوقاعين "ما كان ضروريا من الحاجيات الحديثة أخذناه بعين الاعتبار وأما ما كان شكليا منها رفضناه ومثال ذلك فتح النوافذ على الشارع التي الغيناها والزخارف عموما ،وذلك اعتمادا على شروط البناءات المعمارية القديمة من حيث احترام الجار واحترام الآخرين فيمكن للشخص أن يجعل الزينة داخل بيته ولكنه يمنع من وضعها خارج البيت اضرارا منه لتراثه أو تفوقه " (٢٤٤)



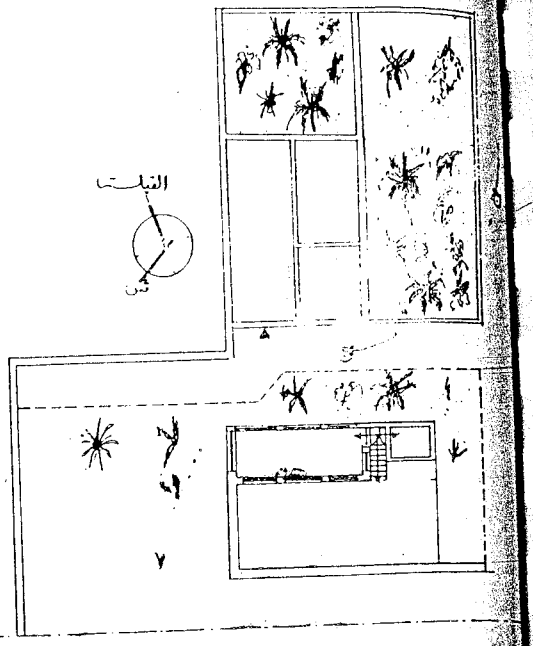
الطابق السفلي



الطابق الثاني

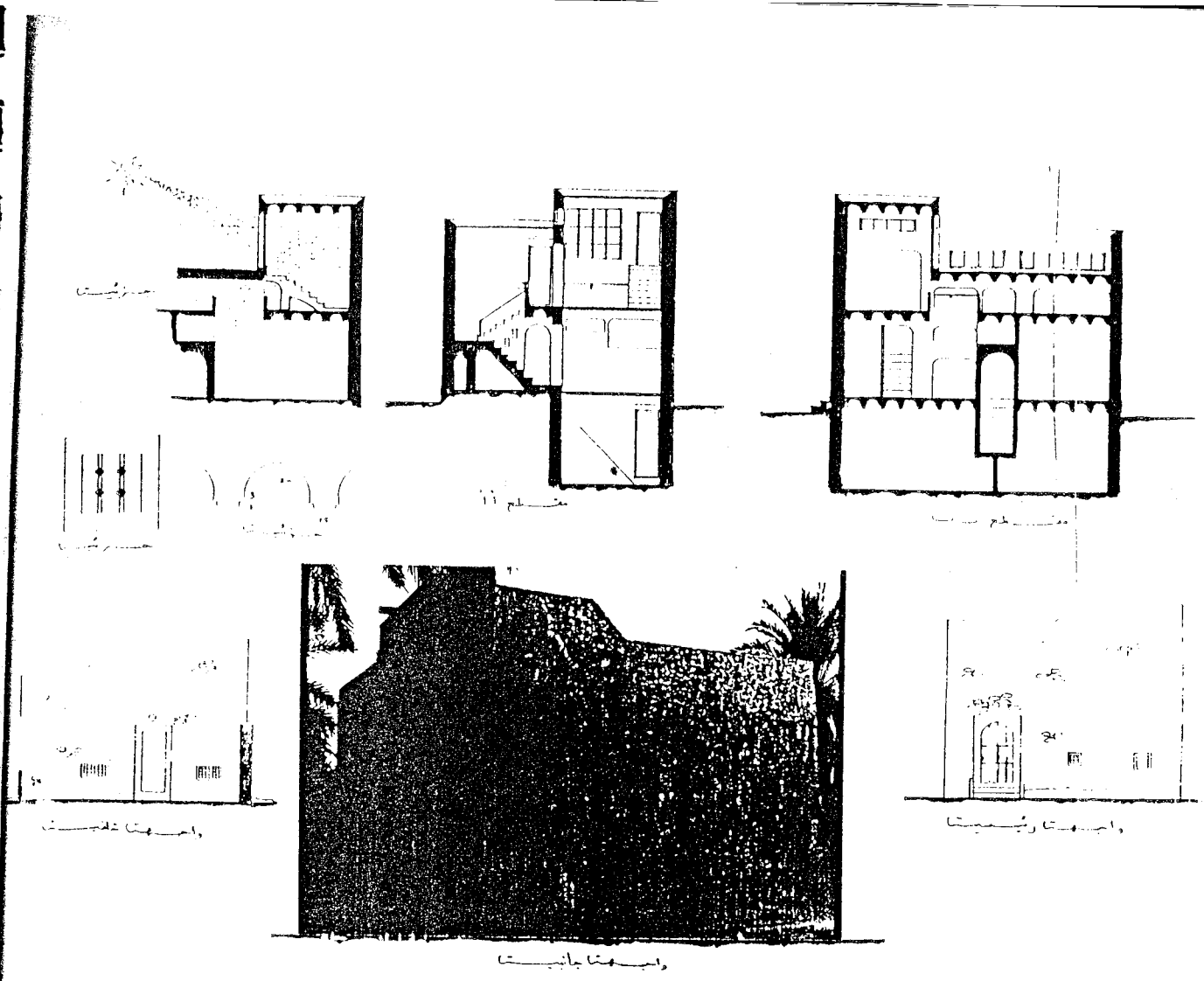


الطابق الأرضي



مقياس

مقياس



أمّا فيما يخصّ التغيير الذى ادخله على فضاءات المسكن التاريخي وعناصره ومقاييسه فانّنا نلاحظ :

1) غياب وسط الدار وتعويضه بفضاء مفتوح جانبي ،موجود على يمنى المدخل ومنه ينطلق التوزيع في المسكن الى الداخل والأعلى وهو بطبيعته مخصص للاستقبال والجلوس للعائلة ويحتوى على كوّات كبيرة مخصصة لشاشة التلفاز ... ونلاحظ كذلك غياب مكان آلة النسيج التي اقترح السيد سليمان تطويرها حسب مثال متنقل يحاول نشره وتوزيعه في الجهة .

2) ادخال صحفة المرحاض ذات الشكل التركي وطريقة حديثة في تصرّف المياه المستعملة ومياه المراحيض.

3) ادخال فضاء خاص بالاستحمام مع الاقتصار على الدش .

4) المطبخ : ويقول في ذلك "نظرا للاستعمالات الحديثة (آلات الطبخ والثلاجة والغسيل ...) التي أصبحت متداولة ومكثفة ،لا يمكن ترك المطبخ كما كان سابقا (المطبخ التقليدى) لذلك أدخلنا تحسينات وذلك باعطاء مساحة العمل الحديثة التي تحتاجها ربّة البيت في المطبخ اضافة للمساحات الواجبة والضرورية لهذه الآلات.

5) وجود غرفتين تحت الأرض .

6) استعمال مقاييس مناسبة عموما وذلك في ارتفاع تحت السقف ومساحات الغرف ، والمطبخ ...

7) غياب المطبخ والمرحاض من الطابق العلوى .

8) غياب غرفة استقبال الرجال بما تتطلبه من خصائص (الوصول ،العزلة ...)

9) في الشباك : يقول السيد سليمان : "لقد كان الشباك في السابق مربعا وأفقيا ،يغطّى وقت الريح أو عند نزول المطر الا أنه ورغم ذلك فان هناك سلبيات تتبعه ومنها نزول الماء وتسرب الغبار ،وبما أن السكان أصبحوا يستعملون البلور لتغطيته ،أصبح تنظيفه من الخارج أمرا ضروريا وصعبا في آن واحد لذلك فكرنا بجعله عموديا . كما كان الشباك يستعمل قديما للطابق الارضي فقط ،فرفعناه الى الطابق العلوى وصممنا المسكن بطريقة تجعل الطابق الأرضي ينتفع كذلك بضياء هذا الشباك (انظر الصورة) ،كما أننا لم نعد نكتفي بالشباك المربع القليل التهوئة والتشميس ، لذلك صممنا شبابيك محيطة بالسطح ،داخلية وموجهة لأشعة الشمس حيث يمكن أن تدفئ المسكن في الشتاء بدون استعمال مكيف صناعي وأما في فصل الصيف فيمكن وضع حاجز من القماش من الخارج لمنع أشعة الشمس من الدخول فيتم بذلك استغلال الشمس حسب الحاجة لها .

10) نظرا لكثرة الشبابيك المحيطة بالطابق العلوي والمطلة على السطح ،ونظرا كذلك لطبيعة هذا الطابق المفتوح والذي لا يحتوي الا على غرفة واحدة ،فاننا يمكن أن نعتبره شكلا متطورا من الرواق (الايكومار) .

11) امكانية استعمال هذا النمط من المسكن في مجموعة متلاصقة من الجانبين نظرا لغياب الفتحات الخارجية في هاتين الواجهتين ممّا يوفّر اقتصاد أكثر في الأرض والبناء .

ولكن ورغم أن تجربة السيد سليمان تيزوغاغين تعتبر تجربة رائدة ومتطورة جدّا شكلا ومضمونا عمّا يقدم حاليا من أنماط البناء في ميزاب سواء الذي تنتجه السلطة أو بعض المهندسين المعماريين أو حتّى كتب الدراسات المعمارية والصيانة بغرداية ،الا أننا لا يمكن أن نمرّ عليها دون الوقوف على بعض السلبيات فيها وذلك من أجل مساندة هذه التجربة ومزيد دفعها الى الأمام . وتتمثل السلبيات في :

1) منهجية العمل التي رغم ايجابياتها تحتوي على سلبيات كثيرة راجعة الى :

ـ عدم القدرة على تلبية حاجة السكان المتصاعدة الى الأعداد الكبيرة من المساكن مما يتطلب هياكل مؤسسات ذات مردودية وفاعلية أكبر مع وجوب تمتعها بالسلطة المعنوية أو القانونية لتوجيه ذوق المتساكنين واختياراتهم كما كان يفعله الامناء والهياكل الاجتماعية في الماضي وعدم جعل الاختيار يخضع لثقافة الممالك وامكانياته الفكرية فقط والتي تختلف كثيرا من شخص لآخر ومن الاباضي الى المالكي ...

ـ عدم وجود البنائين الذين يملكون خبرة وثقافة تؤهلهم لصياغة المعمار الذي يرتبط بالاصول الثقافية للمجتمع ويستجيب لحاجياته الحديثة فضلا عن قدرتهم على تطوير هذه العمارة في مواد بنائها ووظائفها ومردوديتها ... اذ أن هذه المهمة تستوجب البحث والتفكير المعمق من قبل مختلف الاخصائيين والمفكرين والمبدعين في آن واحد فلولا أبي العباس أحمد والشيخ الثميني والشيخ اطفيش ... لما وجدنا معمار ميزاب على شاكلته تلك رغم عدم تعقد الواقع الاقتصادي والثقافي والسياسي في ذلك الوقت . كما يجب تكوين البنائين على هذه الاسس والمعايير حتى يمكنهم فهم ما يفعلونه والتفاعل معه ، الا أننا نلاحظ حاليا أن من يقومون بعملية البناء في ميزاب هم من النازحين والبدو الذين لم يستطيعوا العمل في الخزف أو الصانع لعدم امتلاكهم أية خبرة تؤهلهم لذلك فالتجأوا الى البناء كحل أخير لضمان عيشهم وهم بذلك يمثلون أداة بناء لا عناصر ابداع .

ـ خضوع مختلف نشاطات الحياة الحديثة الى العلوم المتطورة بما فيها مسألة العمارة مما يستوجب من المشرفين على عملية البناء والتعمير في ظل تعقد النمط الحياتي الحديث ،طلب هذه العلوم والاختصاص في التي تتعلق بالعمارة التي تعتبر جانبا هاما ،مؤشرا وخطيرا في حياة المجتمع.

2) في فضاءات المسكن وهيكلته

ـ رغم أن المساحة المغطاة للمسكن تساوى 190 م² تقريبا الا أنه لا يحتوى الا على غرفتين صالحتين للنوم لا تتجاوز مساحتهما عشرين مترا مربعا بل ان الغرفة التي في الطابق الأرضي وباعتبار وجودها أمام المطبخ ذو الفضاء المفتوح ،فانها تكون صالحة أكثر للجلوس وربما مخصصة للنساء ، أما الغرفتين اللتين في الطابق تحت السفلي ،فانهما تفتقدان الى التهوئة والانارة الصحية الكافية والتي حدد رافيرو أدناها بفتحات لا تقل مساحتها عن 1/8 من المساحة الجملية للغرفة (٩٩) لذلك كان من الأجدر أن تكون نصف أرضية لا تحت الأرض تماما مما يمكن العائلة كذلك من استعمالها في فصل الشتاء الشديد البرودة حيث يمكنهما أخذ جانب من أشعة الشمس للتدفئة.

ـ غياب غرفة الاستقبال للرجال وما يتبعها من مدخل خاص بها وعدم مراعاة فصل الجانب الخاص بالعائلة والجانب العام "حيث أن الباب الرئيسي يفتح مباشرة على فضاء الجلوس للعائلة المفتوح وذلك مباشرة وبدون أي حاجز ، كما أن المدرج الموصل الى الطابق العلوى ينطلق من هذا الفضاء فلا يمكن الصعود الى الأعلى الا بالمرور من هذا الفضاء وهذا النمط يذكرنا بالنمط العربي حيث أن غرفة الاستقبال تكون مباشرة أمام المدخل ومنها ينطلق المدرج الى الفوق كعنصر جمالي أكثر من كونه عنصرا وظيفيا ،مما يتناقض مع طبيعة العلاقات والممارسات المجتمعية في ميزاب.

ـ وجود فضاء هامشي بين الطابق الأرضي والسطح مساحته 22 م² وارتفاع ماتحت سقفه مترا واحدا كان نتيجة بحث السيد سليمان عن الطريقة التي يمكن له بها ادخال النور المتأتي من الشبابيك الى الطابق الأرضي.

وأخيرا فاننا نورد رأى السيد سليمان تيزوقاغين في طريقة التعامل مع الموروث التاريخي من العمارة (مساكن القصر) فهو يقول :

"لم تكن المساكن التقليدية في الماضي التي يملكها الفلاح والامين ،والتاجر وصاحب الحرفة ... متماثلة بل لم تكن المساكن التي تملكها نفس المجموعة والتي تنتسب لنفس الوظيفة متماثلة فكل مسكن كان انعكاسا

لحاجيات صاحبه التي تختلف من شخص لآخر (كثرة الضيوف : عدد أفراد العائلة ...) فكيف يمكن للاجيال الحالية أن تعيش في المساكن القديمة الموروثة وقد اختلفت حياتهم اختلافا كبيرا عما كانت عليه في السابق الا أنه حسب رأيي يمكن اعادة استعمال المسكن القديم والموروث مع احداث تحوير أو اصلاح داخلي دون هدمه كلية ويمكن بذلك أن يكون صالحا للاستعمالات الحديثة مثال ذلك ايجاد مكان للتلفزة والمطبخ والثلاجة ... وهذا ما سعى اليه.

ان طريقة التعامل الحالية مع المعمار الموروث يرجع أساسا للمستوى الثقافي للشخص ،ذلك أن الذي عنده مستوى "ثقافي" رفيع مواز لامكانياته الاقتصادية فانه سيحتفظ حتما بمسكنه الموروث مع محاولة أقلمته مع حاجياته أما من كانت عنده الامكانيات المادية دون الثقافة فانه سيتدخل في هذا الموروث بكل امكانياته المادية وبدون أي رصيد ثقافي مما سيؤثر على هذا الموروث بالمسخ أو الهدم مع تعويضه بآخر مستورد أو مهمش وهذه مشكلة كل المدن التاريخية.

وتتمثل مهمتنا الحالية في اقناع الشباب الذين يملكون كثيرا من الثقافة وقليلا من الامكانيات المادية باعتماد اصول معمارهم الموروث في صياغة مساكنهم المستقبلية و بذلك يمكن ان يكون الحل لايجاد التواصل بين الانتاج المستقبلي والموروث. أما ما هو موجود الان في ميزاب من المعمار المهمش والغريب والدخيل ، فنترك للزمن فعله نحو ابداله بما يتماشى مع المجتمع وواقع الجهة أما الان فلا يمكن ذلك نظرا لحداثته وللاموال الضخمة التي بذلت فيه.(٤٥١)

٢- ملامح رؤيتنا (نظريا)

- التقدم المعماري يحتاج الى نهضة متعددة الجوانب ومرتكزة على أصول المجتمع الفكرية والعقائدية.

باعتبار أنه لا سبيل لتقدم أي مجتمع وخروجه من أزمته الحضارية " الا على أساس التاريخ والثقافة التي يمتلكها " (٤٥٢) ،فانه لا سبيل للخروج بمعمار وادي ميزاب من الأزمة التي يعيشها الا على أساس فكر المجتمع وعقيدته.

لكن انتاج معمار مرتكز على الاسس الفكرية والعقائدية للمجتمع لا يمكن أن يستقيم في ظل ممارسة اجتماعية حديثة مختلفة مع هذه الاسس ،لذلك ولكي تكون هناك علاقة صحية بين الممارسة الاجتماعية وهذا المعمار ، يجب تطوير القوانين والمناهج التي تضبط هذه الممارسة وتؤطرها كما يجب تطوير البنية الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي الثقافية عموما بما يرتبط بأسس المجتمع الفكرية والعقائدية ،وبما يتناسب مع تطوره.

اذن فالرّكود والتأخر ،ثمّ التدهور العمراني الذى شهدته ميزاب ،لا يمكن أن يتمّ تجاوزه بالسّرعة والسّهولة التي نتخيّلها . فالتأخر الذى يشهده أى مجتمع لا يمكن أن يتجزّأ أو ينحصر في بعض المجالات دون غيرهـــا . لذلك فانّه لا سبيل للنّهوض بالمعمار دون أن تشمل هذه النهضة مختلف الجوانب الثقافية والحضارية للمجتمع.

– انتاج المعمار مسؤولية جماعية لا يجب أن تقتصر على المهندس المعماري

قصر الفعل في انتاج العمارة على المهندس المعمارى دون الباحث الاجتماعي والمفكر السياسي والمبدع المجتمعي ،وأهل النظرفي ... وأهل الاختصاص في ... هي عملية خاطئة ،بل جريمة في حق المجتمع ،ذلك أن المهندس المعمارى لا يستطيع امتلاك كلّ المعارف والمعلومات والمعطيات النفسية والمعنوية والمادية عن المجتمع، لذلك فلا يمكن أن يُختزل الفعل المعمارى في تجربة يقوم بها فرد أو اختصاص معيّن في مخبر المدينة علـــى الحيوانات الاجتماعية لنضع بذلك موت هذه الكائنات أو حياتها (ثقافيا وحضاريا) تحت تصرّفه فنقيّم بعد ذلـك هذه التجربة ونحصي ضحاياها لننطلق من جديد في جريمة أخرى [249] .

اذن فالمهندس المعمارى قاصر بمفرده عن ايجاد العمارة المثلى بل حتى الجيّدة التي لا يمكن الا أن تكون ثمرة المجتمع بأسره باعتبار أنها تمثل محيطه الثقافي وفضاءه الحياتي حيث تنعكس فيها أفكاره وحاجياتـه وممارساته وطموحاته فلا يمكن بالتالي أن نحمّل فردا واحدا أو اختصاصا معينا مسؤولية صياغة حياة المجتمع بأسره .

من هنا ،فانه لا يجوز للمهندس المعمارى التفرّد بالفعل المعمارى أو محاولة الاستيلاء على سلطة الاعمار لأنه هو نفسه كفرد في هذا المجتمع سيكون ضحية اختياراته التي لن تكون الا انعكاسا لخصوصياته الماديـــة وحالاته المعنوية والنفسية التي لا تستقرّ.

اننا نلاحظ أن الذين حدّدوا المناهج المعمارية والتعميرية في ميزاب قديما ليسوا مهندسين بل ليســوا حتّى بنّائين وربما لم يمارسوا العمارة طيلة حياتهم ،ان هم الا علماء دين ،مفكرين رسموا مناهج العمارة وأوجدوا قوانينها وأساليبها لا باعتبار الكم أو الكتل ،لا باعتبار المظهر أو الشكل ولكن باعتبار طبيعة العلاقات الاجتماعية التي استنبطوها من الشريعة الاسلامية ،باعتبار مفاهيم الفرد والعائلة والمجتمع والأمة ،باعتبار قيم القســـط

والعدل والمساواة ، باعتبار بُعدَيْ العبودية والاستخلاف،فكان معمارهم تواصلا لذواتهم المادية والمعنوية وجاءت بالتالي الكتل والأشكال كخير انتاج يتواصل فيه الابداع الانساني مع الخلق الرّباني لينسجما في كتلة واحدة تعبر بصدق عن تسليم العقل الانساني المتميّز بالارادة ،لربّه في عبودية ارادية بحيث أنه لم يحاول انتاج ما يظهر أنّه تحدّ للطبيعة ،تحدّ لخلق الله ،محاولا إضفاء قدرته على التحدّي أو حتّى التجاوز فكان بذلك الانسجام وكان بذلك الجمال وكان بعد ذلك قيمة الانسان ،قيمة خلق الله في ابداع هذا الانسان .

لذلك فاننا نعتقد أن النهوض بالواقع المعماري في ميزاب وانتاج ما يلائم هذا المجتمع وهذه الجهة لا يكون الا باتباع المنهجية التي ذكرناها آنفا . الا أننا نجد أنفسنا مجبرين على انجاز مشروع للتدخل حتى تكتمل به الاستجابة للشروط الموضوعة للأطروحة في معهدنا نحاول من خلاله تجسيد ما وصلنا اليه في بحثنا وتحليلنا وإلا فنحن نعتقد اننا غير قادرين بمفردنا على اعطاء الصورة الصحيحة للعمارة المثلى ،العمارة التي تستجيب لفكر وحاجيات وممارسات وطموحات المجتمع الميزابي الحقيقية ، دون أن يتدخّل في هذا الانتاج ويشارك فيه علماء الدّين والاجتماع والنفس والأطباء والاقتصاديين ومختلف المفكرين والمستهلكين بمختلف مستوياتهم وامكانياتهم الابداعية والمعرفية وذلك بمنهجية يجب أن نحدّدها أوّلا ، فيكون "انتاجنا" عندها حقيقة معرفية (علما وادراكا) وابداعية (صنعا وانتاجا) لا مجرّد تجربة مخبرية .

اذن وباعتبار أن تدخلنا هذا يأتي في غياب هذا الاطار الواجب احداثه والذي يمكن له صياغة العمارة الصحية ،العمارة المثلى ،فقد حاولنا تقمّص أدوار بعض عناصره بالاطلاع على الدراسات المعمارية والاجتماعية والاقتصادية اضافة الى بعض ما كتب عن طبيعة عقيدة وفكر المجتمع محاولة منا الحدّ من مجال الخطأ الذي يمكن أن نقع فيه .

من هنا فاننا نرجو أن يوضع تدخلنا هذا في اطار امكانياتنا المعرفية سواء في مستواها الاجتماعي أو المعماري حتّى لا نحاسب على مسؤولية هي ملقاة حسب رأينا على عاتق كل صاحب فكر وابداع في هذا المجتمع بل كل فرد فيه .%

١٧ الترخيص

1. ترخيص المشروع
2. منهجية الترخيص

١٧ - التدخل

١ - مرحل المشروع

٢ - منهجية التدخل

١ - الاطار العام للمشروع
٢ - قراءة تحليلية لمجال التدخل
٣ - الاختيارات العامة للتدخل
٤ - تحديد ضوابط التدخل
٥ - البرمجة

١٧- التدخل

1- مدخل المشروع

ملاحظة منا وجود خلل في هيكلة الكثير من أجزاء مدن وادى ميزاب • بعد النمو والامتداد الكبيريـــن والسريعين الذين شهدتهما هذه المدن •

وملاحظة منا كذلك وجود خلل بين النتاج المعمارى ـ سواء الموروث منه أو المستحدث ـ وبين الواقع المادى والأصول الحضارية للمجتمع بحيث انعدم الانسجام بين المجتمع وهذا النتاج وبين نمطي هذا النتاج ذاته وذلك على أكثر من مستوى وفي أكثر من موقع،

فقد اخترنا كمشروع لتدخلنا "اعادة هيكلة لجانب من هذا النسيج المعماري".

2- منهجية التدخل

للتدخل في مثل هذا المشروع (اعادة هيكلة غشاء معماري) يجب أن نتبع المنهجية التالية :

١- الاطار العام للمشروع :

* التقديم
* الموقع
* دوافع اختيار المشروع
* أهداف التدخل

٢- قراءة تحليلية لمجال التدخل:

التشخيص :

* الوضعية السكانية والاجتماعية
* الوضعية القانونية للمباني
* التوزيع الفضائي المختلف الأنشطة والوظائف
* تشخيص الوضعية التقنية للبناءات

* هيكلة المعطيات الداخلية والخارجية

الاستنتاجات :

* على المستوى الاجتماعي
* على المستوى المعماري والتعميري

٣. الاختيارات العامة للتدخل:

٤. تحديد ضوابط التدخل

* الضابط الجغرافي والطبيعي
* الضابط التاريخي
* الضابط الفكري والثقافي
* الضابط الوظيفي
* ضابط مثال التهيئة
* ضابط الادماج والتأقلم .

٥. البرمجة

* تحديد أنواع الأنشطة والوظائف التي يمكن برمجتها في مجال التدخل ،
* ضبط حاجيات مجال التدخل من حيث المساكن والمرافق والتجهيزات ،
* البرنامج التفصيلي (حذف وتركيز واعادة توزيع)

3) المشروع

1 – الاطار العام للمشروع

التقديم

يتمثل المشروع في اعادة هيكلة حي "قدماء المجاهدين" بغرداية وهو حيّ تمّ بناءه منذ بداية القرن الرابع عشر من قبل جالية من اليهود جاءت من جربة واستقرّت به الى حدود سنة 1962 حين استقلّت الجزائر ،حيث هاجرت هذه الجالية لتترك مكانها الى عائلات قدماء المجاهدين .

الموقع

يوجد حي "قدماء المجاهدين في وسط مدينة غرداية ويمسح مساحة قدرها 11 هـ. كما يعـــدّ 2868 ساكنـــا .

يحدّ حي المجاهدين ة :

* شرقا : مجرى الوادى "وادى ميزاب "
* غربا : شارع رئيسي باتجاه ورقلة (شارع الأمير عبد القادر)
* شمالا : القصبة (مساكن ميزابية) .
* جنوبا : شارع رئيسي آخر باتجاه الأغواط (شارع طالبي أحمد)

٣. دوافع اختيار المشروع

اخترنا أن يكون مشروع تدخّلنا "اعادة هيكلة" حي المجاهدين القدامى للأسباب التالية :

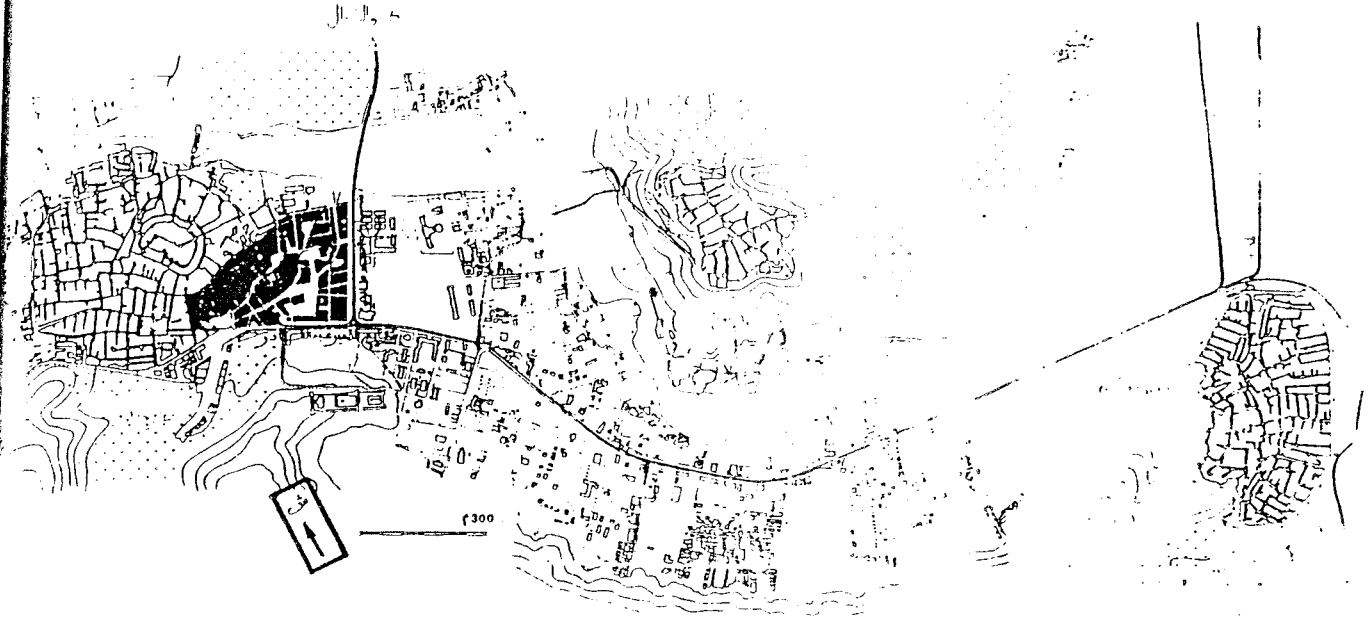
أ) يمثل موقع غرداية من الوادى أهمية كبيرة على المستويات التالية :

* المستوى الادارى .(مركز الولاية ...)
* المستوى الاقتصادى (وجود أكثر المنشآت الاقتصادية والمحلات التجارية بغرداية : بنوك مغازات، السّوق الكبرى ،سوق الجملة ،أروقة الخ ...)
* المستوى الثقافي : باعتبارها الواجهة الاولى لوادى ميزاب من حيث أنها تحتل مدخـل الوادى بالنسبة للطرق المؤدية للشمال .

ب) قصور الحي عن تأدية وظيفته في المدينة مع أنه يتوسطها اضافة الى أن ما يحيط به يحتوى على منشآت ومبان هامّة وذات صبغة ادارية واقتصادية وثقافية ممّا يؤكّد ضرورة ادماجه في محيطهّ المباشر .

ج) يمثل الحيّ نقطة وصل بين الغشاء المعمارى القديم (القصر) والغشاء المعمارى الحديث .

د) عدم قدرته على مواكبة حاجيات السّكان وتطلعاتهم وذلك على مستوى فضاءه المعمارى والتعميرى باعتبار أحتوائه على معمار قديم لم يعد يستجيب للحاجيات الحديثة للمجتمع واحتوائه كذلك على معمار حديـث



موقع المشروع

لا يمت الى ثقافة المجتمع وأصول حضارته بصلة .

هـ) احتوائه على منشات وأنشطة عشوائية ، لا ترتبط به لا من قريب ولا من بعيد .

و) الحالة المتردية التي عليها الحيّ من تساقط مستمرّ للمباني ممّا يشكّل خطرا صحّيا واجتماعيـــا ومعماريا (تواصل تآكل الغشاء القديم بدون توقف وهجره من قبل السّكان) .

ز) وجوده في مدخل المدينة اذ يمثل الواجهة الامامية لها . ونظرا لحالته التي هو عليها الآن من سقوط وتداع،فهو يخلّ بقيمة غرداية الجمالية ،والسّياحية .

ع. أهداف التدخل :

أ) محاولة الاجابة على الاشكاليات المطروحة آنفا ،

ب) محاولة رسم منهجية للتدخل في مثل هذا النوع من المشاريع (اعادة الهيكلة) ،

ج) محاولة انتاج معمار يستجيب لحاجيات المجتمع الحديثةوممارساته وتطلعاته المستحدثة ،ويرتبط بالأصول الثقافية الفكرية والعقائدية للمجتمع.

2- قراءة تحليله لمجال التدخل (270)

التشخيص :

أ) الوضعية السكانية والاجتماعية

* الوضعية السّكانية :

يعدّ حي "المجاهدين القدامى " 2868 ساكنا .

نسبة الرجال : 49,30 %

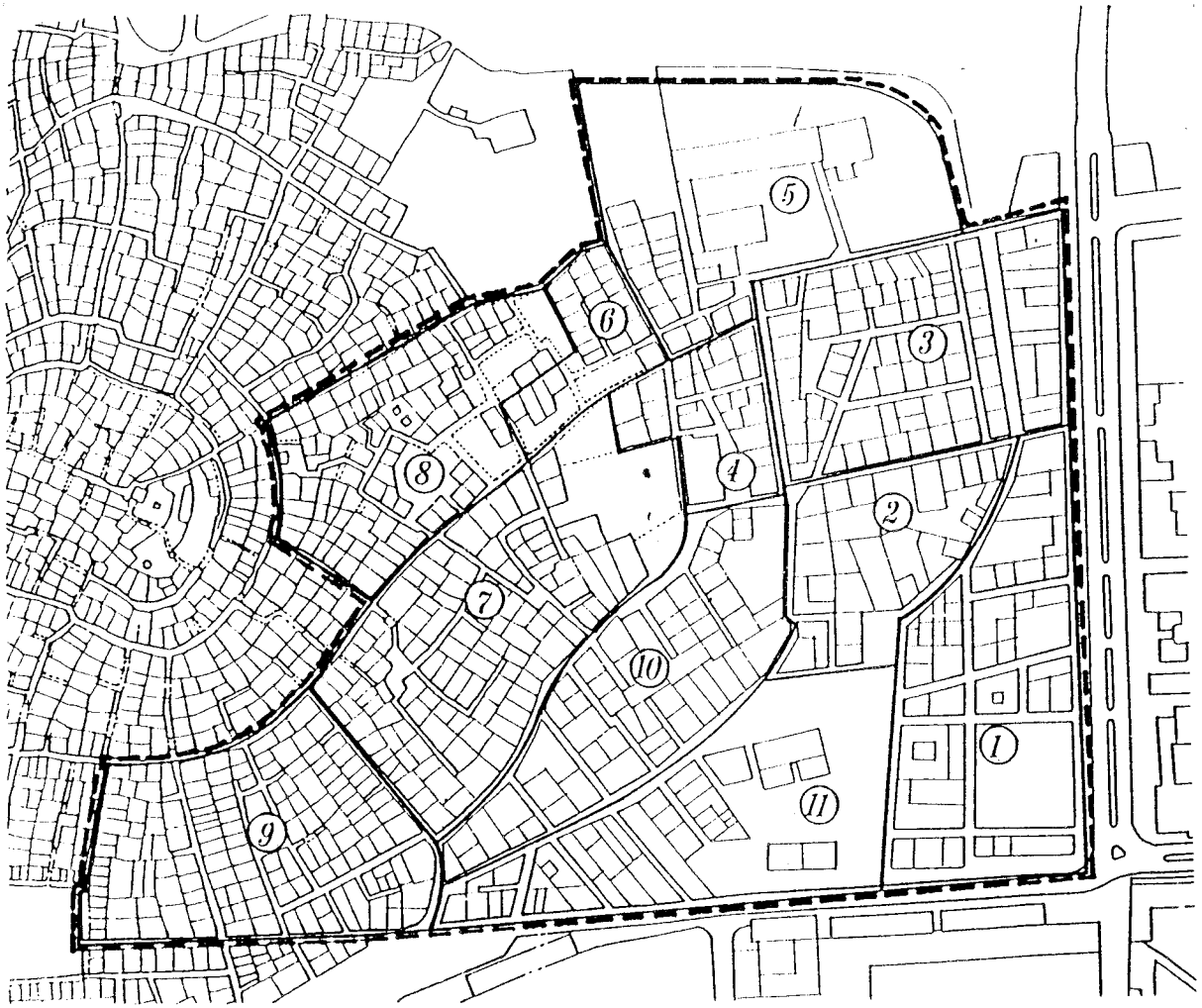
نسبة النساء : 50,69 %

نسبة السكان حسب الاعمار :

ـ دون 25 سنة 65,48% من مجموع سكان الحي ،

ـ بين 25 و 60 سنة 27,61% من مجموع سكان الحيّ ،

ـ فوق 60 سنة 6,9% من مجموع سكان الحي .



تقسيم الحي إلى قطع

الكثافة السكانية :

ـ من 0 الى 100 في الهكتار في القطع (ILOTS) 1 و 11

ـ أكثر من 501 في الهكتار في القطعة (//) 4

أمّا بالترتيب فتزداد الكثافة السّكانية كلّما اقتربنا من الغشاء القديم (القصر) والمنطقة الوسطى من الحي .

معدّل الكثافة السّكانية بالحي يساوى 252 ساكن في الهكتار الواحد .

* الوضعية الاجتماعية :

. التشغيل

تمثل نسبة المشتغلين في عدد متساكني الحي نسبة 16٪ يعني 459 من 2868

. نوعية الشغل

ـ الادارة 18,64 % من المشتغلين

ـ التجارة 26,32 % من المشتغلين

ـ قطاع الصناعة والبناء والنقل الخ 53,80 % من المشتغلين

ـ الفلاحة 1,53 % من المشتغلين

. الدخل

ـ لا يتجاوز دخل نسبة 38,84 % من المشتغلين 1500 دج/شهر .

ـ 28,48 من المشتغلين يتراوح دخلهم بين 1700 و 1975 دج/الشهر .

ـ 32,67 % من المشتغلين يتراوح دخلهم بين 2025 و 2100 دج/شهر .

ـ معدل عدد الافراد في العائلة الواحدة يساوى 7,54 شخص ولا يتجاوز عدد المشتغلين في العائلة الواحدة في أغلب الاحيان الشخص الواحد (83 % من العائلات لهم شخص واحد مشتغل)

ـ معدّل الكثافة السكانية في المسكن الواحد يساوى 7,85 شخصا /م، وهي تتراوح بين 6,37 و 9,92 ش / مسكن .



الكثافة السكانية

ب) الوضعية القانونية للمباني

- تمثل نسبة العائلات المكترية للمساكن 47,88 %
- تمثل نسبة العائلات المالكة للمساكن 46,06 %
- تمثل نسبة العائلات الحائزة للمساكن 5,76 %

مساكن الموظفين نسبتها 0,26 %

ج) التوزيع الفضائي لمختلف الأنشطة والوظائف

يحتوى الحي على وظيفتين أساسيتين :

- الوظيفة السكنية ،
- الوظيفة التجارية .

الى جانب هاتين الوظيفتين ، توجد وظائف أخرى بالحي (ادارية ، ثقافية ،الخ ...) . ولكن ليست لها قيمة تذكر من حيث حيازة الفضاء .

أمّا فيما يخصّ توزيع هذه الوظائف في الحي فاننا نلاحظ أنّ الوظيفة السّكانية تحتل الجزء الهام والدّاخلي للحي (امتداد القصر : بالقطع 3 ، 4 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 و10) .

أمّا القطع الواقعة على جانبي شارع الأمير عبد القادر وشارع أحمد طالبي فتشتمل على الوظيفتين السّكنية والتجارية خاصّة ،وهي القطع 1 ، 2 و11 وجانب من القطعة 3 .

ملاحظة :

انّ هناك وظائف وأنشطة بالحيّ لا تمت الى طبيعته بصلة مثل ثكنة الجيش ممّا يستوجب نقلها الى مكان آخر مخصّص لذلك .



الوضعية القانونية للبناءات



التوزيع الوظيفي بالحي

د) تشخيص الوضعية التقنية للبنا'ات

ـ في البداية نلاحظ أن نسبة المساكن التي يتجاوز عمرها 26 سنة (مبنية قبل 1962) تمثل 93,80% أي بعدد 348 / 371 موجودة بالحيّ ،بينما لا تتجاوز المساكن التي أحدثت بعد 1962 6,19% أي 23 مسكن .

ـ كما نلاحظ أنّ نسبة المساكن التي في حالة جيدة لا تتجاوز 8,08 % من مجموع المساكن (30 مسكن) بينما تمثل نسبة المساكن التي هي في حالة رديئة أو سقوط نسبة 49,59 % (184 مسكن) ،أما البقية وهي بنسبة 42,31% فهي في حالة متوسطة (157 م)

ـ كما نلاحظ أيضا أن نسبة المساكن ذات النّمط العتيق تساوي 99,99 % .

* الحالة التقنية التفصيلية للبنا'ات

ـ نلاحظ أن نسبة المساكن الصابة بالرّطوبة تساوي 49,9% أي بعدد 185 / 371 مسكن .

ـ أمّا المساكن الصابة بتصدّع في حيطانها فهي بنسبة 49,6% أي بعدد 184 مسكن / 371 مسكن .

ـ وفي ما يخص المساكن الغير "مهوئة" فهي بنسبة 45% أي 167 / 371 مسكن .

ـ كما نلاحظ وجود العديد من المساكن القديمة ذات أسقف من تراب وحيطان من طوب مهدّدة في كلّ وقت بالتداعي نتيجة أمطار غزيرة أو رياح قوية .

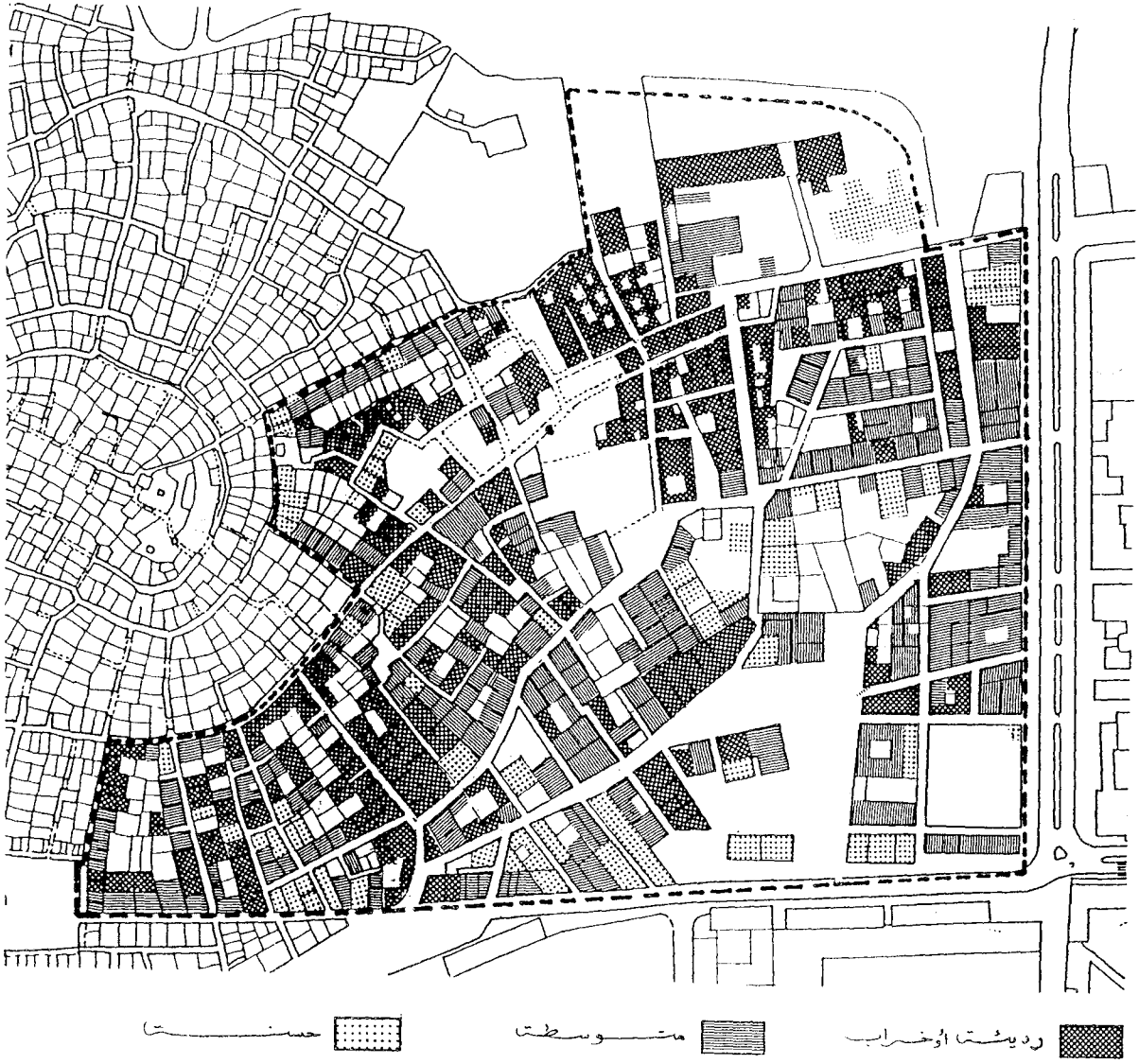
ـ كما أن نسبة المساكن التي تفتقد للمطابخ تساوى 32,88 %

ـ أما التي لا تحتوى على دورة مياه فنسبتها 66,84%

ـ ونسبة المساكن التي لا تحتوى على مراحيض حديثة تساوى 78,17%

ـ أخيرا نلاحظ أن نسبة 95,94% من المساكن أي 365 / 371 م موجودة في محيط ملوّث (غير صحّي وغير نظيف) .

ـ كما أن نسبة 95,95 % من المساكن أي 366 مسكن من 371 م ترتبط بمسلك واحد وغير معبّد .



الحالة الفنية المفصلة للبناءات



الحالة التقنية العامة للحي

بالنسبة للمحلات التجارية وباستثناء بعضها الذى يوجد في وسط الحي والذى كان نتيجة لاعادة توظيف الطوابق الأرضية للمساكن ،فيوجد معظمها في حالة متوسطة وحسنة .

هـ) هيكلة الفضاءات الداخلية والخارجية

* الفضاءات الداخلية

تنقسم البناءات في الحيّ الى : سكنية وتجارية وبعض المرافق .

* البناءات السكنية

فهي في جملتها مساكن تقليدية ذات فراغات مركزية (وسط الدّار) تحيط بها الغرف. وتحتل هذه المساكن مساحة قدرها 3,4 هـ من جملة 11 هـ (مساحة الحي) . ومعدّل المساحة الارضية لهذه المساكن يساوى 91,55 م² .

ـ ومن حيث عدد الغرف في المسكن الواحد فهي تتراوح بين الغرفة الواحدة والثمانية غرف وذلك بنسب مختلفة .

ـ بالنسبة للمساكن ذات 3 غرف فما أقل ،فهي تمثل 56,07٪ (208 / 371 م) .

ـ أمّا المساكن التي تحتوى على 4 غرف فنسبتها 22,37 % (83 / 371 م)

ـ وأخيرا بالنسبة للمساكن التي يبلغ عدد غرفها الخمسة 5 فما أكثر فلا تتجاوز نسبتها 21,6٪ (80 / 371 م) .

ـ ومن حيث عدد الطوابق فاننا نلاحظ أن نسبة المساكن لها طابق أرضي فقط تمثل 26,41% بينما تمثل المساكن ذات الطابق العلوى نسبة 73,58% (273 / 371) .

* البناءات التجارية

تحتل هذه البناءات مساحته مبنية قدرها 0,8 هـ من جملة 11 هـ من الطابق الارضي وعلى طول شارعي الامير عبد القادر ،وأحمد طالبي ،باستثناء بعض النقاط التجارية الموجودة داخل الحي والتي تحتلّ الطابق الأرضي للمساكن ،وهي بذلك تمثل فضاءات لم تكن مدروسة للاستقبال هذه الأنشطة (مآوى ومخازن حوّلت الى مطاعم ومقاهي ... الخ)

* المرافق الاخرى

ـ منشآت ثقافية : مساحتها 400 م

ـ منشآت ادارية : مساحتها 2656 م ، منها 2625 م ملكا للدّولة وهي في حالة متوسطة وحسنة .

وقد لاحظنا على عين المكان أنّ هذه المنشآت والمرافق العامّة كانت في مجملها فضاءات تمّ تحويل وظيفتها (مسكن حوّل الى مركز ثقافي بدون تغيير هيكلي يذكر الخ ...)

× الفضاءات الخارجية

بالاعتماد على المساحات المبنية من المساكن والمرافق والمنشآت العامّة وبالاعتماد كذلك على المساحة الجميلة للحيّ نلاحظ أنّ الفضاءات الخارجية تحتلّ مساحة قدرها 3,58 هـ من جملة 11 هـ ويعني ذلك نسبة قدرها 39,38 (≃ 40 %) بينما لا تتجاوز هذه النسبة 15 في القصر[27] الذي يمثل الحي امتدادا له . وتتسم هذه المساحات والفضاءات بالعشوائية والفوضوية ، حيث أنها لا تخضع لأية مقاييس أو أشكال مضبوطة ومدروسة .

كما نلاحظ أنّ بعض المساحات الخضراء التي كانت عموميّة ، قد تمّ تحويلها الى مساحات خاصة مثل المساحة الخضراء التي تمّ تسييجها لصالح نادي قدماء المجاهدين (الثكنة حاليا) نظرا لعدم توظيفها التوظيف الصحيح ونظرا كذلك لحالتها المتردية التي كانت عليها (مصبّا للفضلات المنزلية ومكانا لتجمّع الحيوانات الشاردة) لعدم صيانتها والاعتناء بها ، وبالتالي أصبحت تمثل خطرا صحّيا واجتماعيا على السكان .

الاستنتاجات

أ . على المستوى الاجتماعي

يتبين لنا من خلال تشخيص الوضعية السّكانية أنّ نسبة كبيرة من السّكان (65,48 %) لا تتجاوز أعمارهم 25 سنة أي من الاطفال والشباب وبالتالي يجب الأخذ بعين الاعتبار هذا المعطى لبرمجة فضاءات ومجالات للأنشطة الشبابية ورعاية الأطفال .

ـ يمثل معدّل الكثافة السّكانية بالحي 252 ساكن في الهكتار وهذا المعدل يناسب شروط مثال التهيئة العمرانية الذى يطالب بتخفيض نسبة الكثافة السكانية الى 300 ساكن / هـ في الاحياء ذات الكثافة السكانية العالية (المساكن التقليدية) والى 450 ساكن / هـ في القصر.

اذن فانّ هذه الكثافة (252 س/هـ) تسمح باعادة اسكان كل السكان في الحي ذاته ودون اللجوء الى نقلهم الى منطقة أخرى من المدينة.

ـ يتضح لنا من خلال تشخيص الوضعية الاجتماعية للسّكان بالحيّ ضعف الحالة المادية لأغلبهم خاصّة اذا أخذنا بعين الاعتبار :

* ضعف الدّخل الشهرى
* عدد الأفراد الذين على عاتق العائل (معدّل عدد أفراد العائلة يساوى 7,54 شخص).
* غلاء المعيشة المستمر خاصة باعتبار عزلة مدينة سيدي حيث.
* نسبة كبيرة من العائلات (47,88 %) تكترى المساكن التي تسكنها.

هذه المعطيات ساهمت بصفة كبيرة في التدهور الحاصل في الحالة التقنية للبناءات وذلك لعدم قدرة السّكان على صيانتها من جهة ونظرا لعدم تحمّسهم لذلك بحكم عدم امتلاكهم لها.

لذلك فانه من الضرورى أخذ هذه المعطيات المادّية والاجتماعية بعين الاعتبار عند برمجة المساكن التي سيقع احداثها من حيث :

ـ عددها،
ـ حجمها (بحسب حجم العائلات)
ـ نوعيتها وبالتالي تكلفتها.

2ـ على المستوى المعمارى والتعميرى :

بالنظر الى المعطيات المتقدّمة حول الوضعية التقنية للبناءات والمتسمة عمومًا بالرّداءة والتساقط وتأثير ذلك على الحالة الاجتماعية والصحية للمتساكنين وما تمثله كذلك من تهديد بالسقوط والاندثار لغشاء معمارى ذى قيمة تاريخية وثقافيه، الى جانب عدم قيام هذا الجزء الهام من المدينة بوظيفته، خاصة وأنه يحتل موقعا مركزيا وحسّاسا





بعض المناظر عن حالة الحي الفقيرة

فيها ، اضافة لعجزه عن مواكبة الحاجيات الحديثة والضرورية للمجتمع سواء على مستوى نمط المساكن (فقدانها لدورة المياه والمطبخ ...) أو على مستوى المرافق العامة . فانه وجب التدخل في هذا الغشاء بسرعة نحو انقاذه واعادة توظيفه ليكون بذلك مواكبا لتطور المجتمع والمدينة .

ـ بالنسبة للفضاءات الخارجية فتعتبر نسبة مساحتها مرتفعة (40%) خاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا الحي يمثل امتدادا للغشاء المعماري القديم (القصر) .

من هنا يتضح لنا أن هناك مساحات كبيرة في هذا الفضاء لا تؤدي دورا أو وظيفة تذكر خاصة اذا علمنا أن أكثرها كان نتيجة لـ :

. انهيار وتساقط مجموعة كبيرة من المباني القديمة ،

. عدم وجود هيكلة مسبقة للنمو الذي شهده هذا الحي في تحديد مقاييس المسالك ومساحات الفراغات وقد انعكس هذا جليا في مظهر وشكل هذه الفراغات والساحات والمسالك التي لا تخضع لأي تصميم أو مقاييس واضحة ومنسجمة فهي بالتالي فوضوية وعشوائية .

نظرا لكل ما سبق فاننا نرى أن من الضروري اعادة هيكلة هذا الحي في بناءاته وفضاءاته الخارجية .

3) الاختيارات العامة للتدخل

سنحاول في تدخلنا هذا المساهمة في انتاج معمار يستجيب لحاجيات السكان ويتلاءم مع واقعهم المادي (المالي ...) ومحيطهم الطبيعي ، ويعتمد في نمطه ومنهجية صياغته على الثوابت في فكرهم وممارستهم ، استنادا الى نتائج التحليل الذي سبق المشروع والذي تعلق بميزاب عموما ، والى نتائج القراءة التحليلية التي تعلقت بالحي .

ومن الاختيارات العامة لتدخلنا نذكر ما يلي :

ـ المحافظة على مكانة الوظيفة السكنية في الحي وموقعها ،

ـ تدعيم الوظيفة التجارية وقطاع الخدمات ،

ـ اعادة اسكان العائلات الموجودة في الحي في المساكن الجديدة ،

ـ البناء وفق منهجية المشاركة لسكان الحي ، وذلك في اطار تعاونيات لها أولوية اقتناء قطع الأرض (ILOTS) المعدة للبناء .

4) تحديد ضوابط التدخل

* الضابط الجغرافي والطبيعي

ـ التضاريس

باستثناء القطعة رقم 8 التي تحتوى على تضاريس (بداية الهضبة التي بنى عليها قصر غرداية) ، فان طبيعة الارض الباقية من الحي تعتبر مسطحة .

ـ مجارى الاودية

يشق الحي في وسطه "شعبة" ـ وهي مجرى واد صغير لا يسيل الا بعد عدّة سنوات ـ وذلك من الجانب الغربي حيث مجرى وادى ميزاب .

ـ التربـــة

انّ طبيعة أرض هذا الحي ،باعتبارها امتدادا لهضبة ،صخرية في مجملها . (صعوبة احداث "دهاليز" أو طوابق سفلية) .

ـ المنـــاخ

باعتبار وجود هذا الحي في وادى ميزاب ذى الطبيعة المناخية القارّية والموقع الصّحراوى فهو يتميّز بمناخ جاف ،شديد الحرارة صيفا والبرودة شتاء . (ممّا يؤثر في نمط البناء ومواده) .

* الضابط التاريخي

يحتوى هذا الحيّ على عديد المعالم التاريخية التي لا تتمثل فقط في الكثير من الدّور التي يرجع عهدها الى عدّة قرون ولكن في معالم أخرى تمثل الذاكرة الجماعية للمجتمع مثل : السوق القديمة بجانب المسجد الكبير ،جانب من السّوق الكبيرة بغرداية ،بعض الجوانب من السّور وباب عتيق لأحد الأسوار ،والدّير . (المحافظة عليها وصيانتها) .

* الضابط الفكري والثقافي

باعتبار أنّ سكان هذا الحي هم من المسلمين الذين يتميزون بالعقيدة والقيم الفكرية والاجتماعيـــــة الاسلامية ،فانه وجب الاعتماد على هذه العقيدة وهذه القيم في رسم وبرمجة ما سنقترحه من نتاج معماري ليتـم الانسجام بين المجتمع وهذا النتاج .

* الضابـــط الوظيفي

لوظيفة الحي في مدينة غرداية ـ باعتبار موقعه ـ صبغة سكنية تجارية أساسا ثمّ ادارية ثقافية .

وباعتبار أنّ هذا الحي يمثل امتدادا للغشاء المعماري القديم (القصر) ذي الوظيفة السّكنية ،وجب اختيار موقع تركيز مختلف هذه الوظائف داخل الحيّ حسب طبيعتها ،وذلك لعدم احداث خلل في التوزيـــــح الوظيفي داخل الحي ،أو من خلال البرمجة فيه بين أحياء المدينة (مثل تحويل مركز المدينة...) .

* ضابط مثال التهيئة

بالاعتماد على توصيات مثال التهيئة نجد أن الحي يحتوى على ثلاث مناطق وهي كالآتي :

ـ المنطقة الاولى : منطقة القصر وهي تحتوى على ـ القطع ـ (ILOTS) 4، 6، 7، 8، 9، 10 وهي تتميز بالوظيفة السكنية ذات الكثافة العالية (450 س / هـ)

ـ المنطقة الثانية : منطقة المساكن التقليدية الحديثة وتحتوى على القطع 2، 3، 5 وجانب من 1 وهي تتميّز بالوظيفة السكنيّة ذات الكثافة السّكانية العالية (300 س / هـ) .

ـ المنطقة المختلطة وهي المنطقة الثالثة : وتحتوى على الوظائف التالية :

+ شركات تجارية وهياكل مراقبة اقتصادية ،
+ دكاكين تجارية
+ مطاعم ،
+ نزل
+ صناعات خفيفة غير مقلقة ،
+ مكاتب ومخازات كبيرة ،
+ مراكز ثقافية واجتماعية
+ مساكن

توصيات عامّـــة :

+ عدد الطوابق 2
+ مساحة "القطع" (ILOTS) بين 150 و 200 م²
+ عدد السّكان بين 200 و 300 س / هـ .

ـ أمّا في ما يخصّ حماية وصيانة النواة التاريخية فيجب :

+ الأخذ بعين الاعتبار الارتفاع وحجم البنايات (7,5 م)
+ حماية الكيان ككلّ (Enlifé) لصيانة المدن القديمة ،
+ حماية البنايات والمعالم بصيانة وترميم المعالم والنواتا القديمة الفردية والمتميزة .
+ اختيار مواد البناء المناسبة .

Regles generales : l'aspect des Constructeurs les Constructions doivent être realisées au Materiau Uniforme typique pour la region ; de façon a s'adapter au paysage ; les Couleurs et materiaux locaux doivent être respectés en particulier l'exemple des édifices traditionnels existant doit être le fondement de toute Construction nouvelle. Toute Architecture étrangère doit être interdite. les Surfaces sont à traiter dans les Couleurs locales.

المرجع : مثال التهيئة لغرداية 1973 ـ 1988 مكتب الدّراسات المعمول به من قبل بلدية غرداية رغم عدم المصادقة عليه كما بيناه سابقا في نقطة السّلطة واستراتيجية التحضير . (مثال التهيئة سبير (Speer plan) .

* ضابط الادماج والتأقلم

– النمط المعماري من حيث :

• الشكل

• مواد البناء

• الألوان

• الكتل (masses) التي تتناسب وتتناسق مع المحيط المعماري العام.

– الهيكلة التعميرية من حيث :

• الرّبط مع الطرق والمسالك المجاورة،

• عدم احداث اختلال في النظام التعميري العام (Hierarchie et nature des voies)

• عدم الاخلال بالتوازن بين مختلف أجزاء المدينة باحداث ساحات أو فراغات أو ما شابهها غير مدروسة من حيث النّسب والموقع (Emplacement proportions الخ ...) وبالتالي احداث انخرام في الهيكلة العامّة للمدينة.

5) البرمجـــة

تحديد أنواع الانشطة والوظائف التي يمكن برمجتها في الحيّ :

بالنّظر الى طبيعة الحيّ والى النتائج السّابقة والمستخلصة من التحليل، واعتمادا كذلك على مثال التهيئة لمدينة غرداية، فانه يمكننا برمجة الوظائف والأنشطة التالية في الحي :

– الوظيفة السّكنية،

– الوظيفة التجارية،

– الوظيفة الثقافية والاجتماعية،

– الوظيفة الادارية،

– الخدمات.

ملاحظة :

من خلال استجوابنا لبعض سكّان الحي حول حاجياتهم فيه تبيّن لنا تأكيدهم على :

- الوظيفة السّكنية ،
- الخدمات (عيادات طبية ، ٠٠٠٠) ٠

ملامح عامة ومسوّدات أوّلية للمشروع

المراحل الاولى لانجاز المشروع

ملاحظات حول مسوّدة المخطّط (رقم 1)

1) لم يقع الأخذ بعين الاعتبار المباني الموجودة وخاصّة منها التي في حالة جيدة ٠

2) عدم الأخذ بعين الاعتبار التخطيط القديم للطّرق والمسالك ،

3) اعتباطية في تحديد حجم وشكل القطع (LOTS) المخصصة للبناء ٠

4) فشل في تحديد نوعية الطرق والمسالك من حيث :

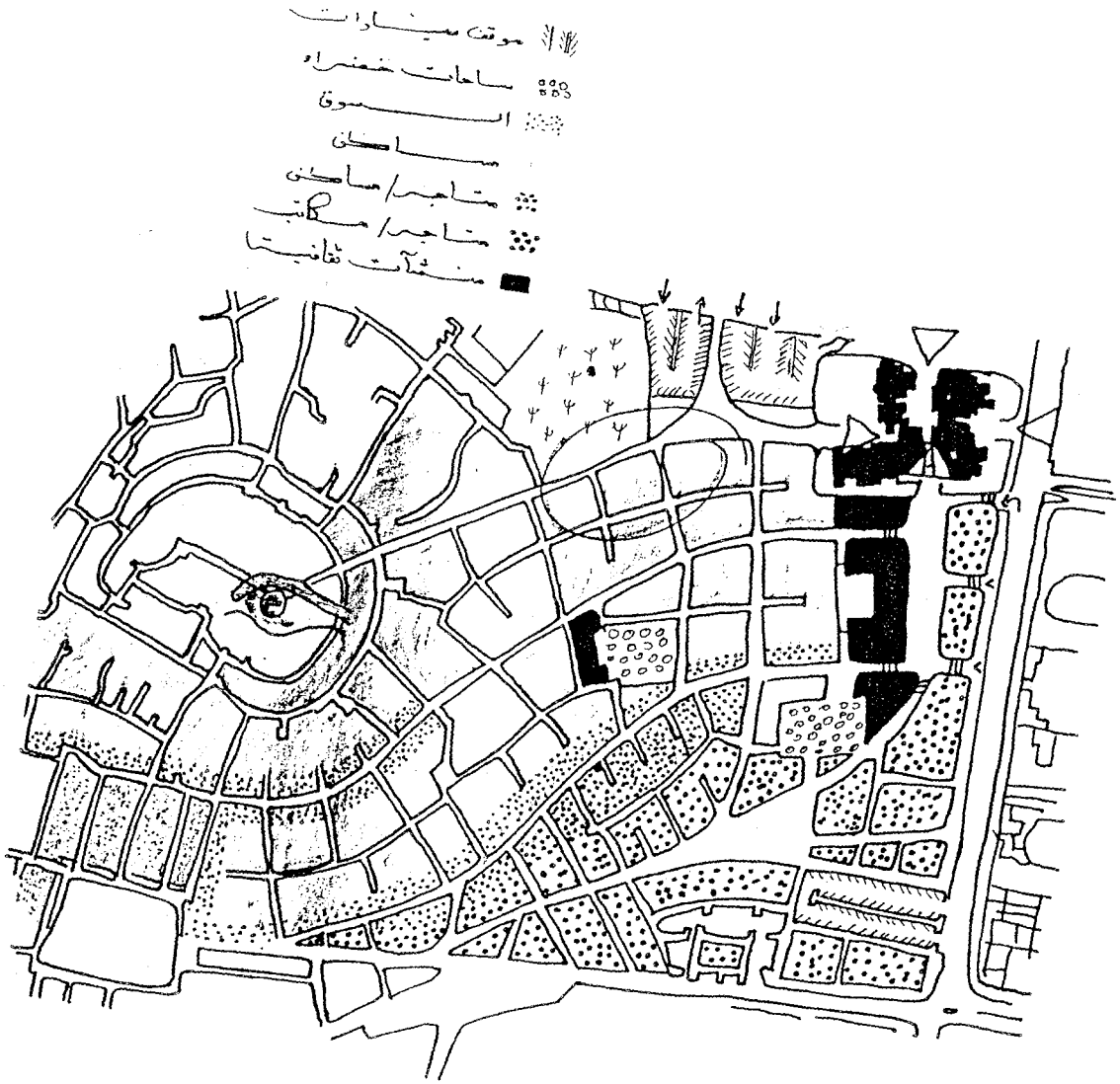
- المقاييس (نسب الطول والعرض)
- الخدمات التي تؤدّيها ،الذي تظهر في مشكلة عدم القدرة على الوصول الى المساكن للنجدة (اسعاف،اطفاء حرائق ،الخ ٠٠٠) والتطهير والتنظيف (حمل الزبالة الخ ٠٠٠)

ملاحظات حول مسوّدة المخطط (رقم 2)

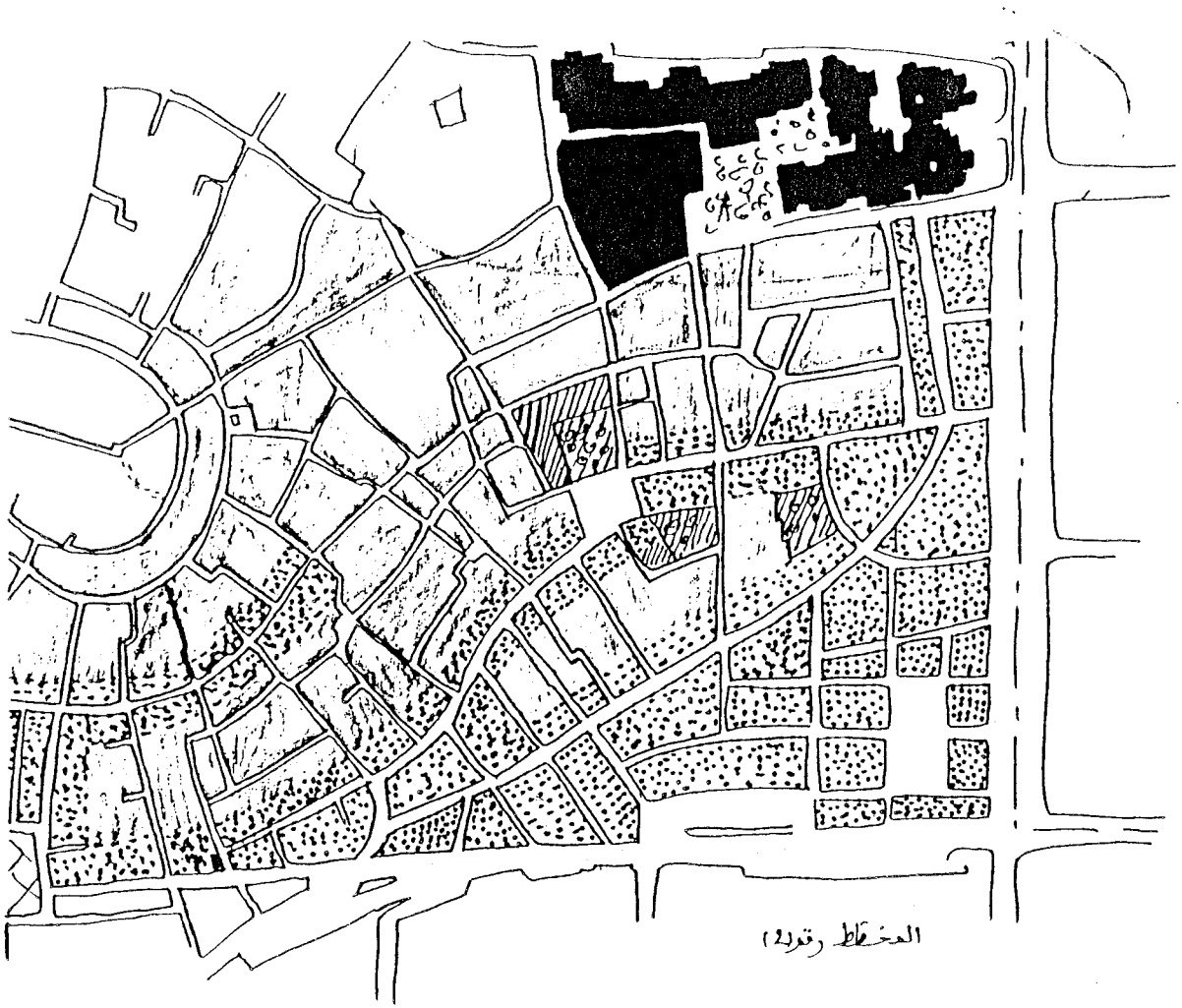
في الحقيقة ان المسجد والسّوق والحجبة ٠٠٠ والطّريق تمثل كلّها فضاءات ومجالات ثقافية ،فمفهوم المنشآت خاصة بها وكأنّ بقية الفضاءات والمجالات لا تحمل بعدا ثقافيا أو حياة اجتماعية ،هو مفهوم خاطئ ٠ وبالاجدر أن نقول أن هذا النّوع من المنشآت يحتوي على بعض الانشطة الثقافية ٠

ملاحظات حول مسوّدة المخطط (رقم 3)

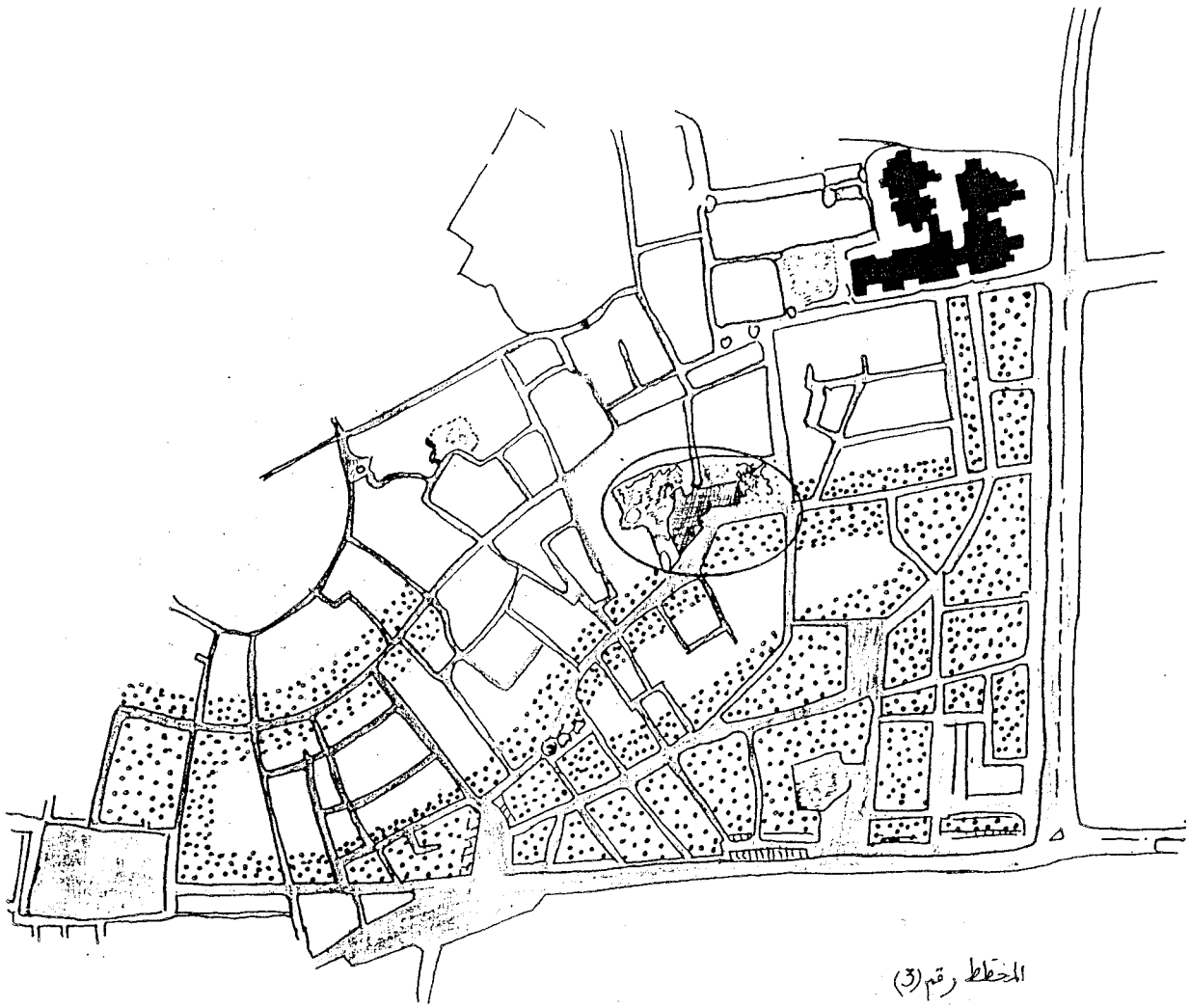
باعتبار طبيعة الغشاء المعماري والنّسيج العمراني في القصر ،لا يمكن عزل أي منشأة عن بقية الغشاء ولو بساحات خضراء ٠



المخطط رقم (41)



المخطط رقم (2)



المخطط رقم (3)

ملاحظات عامّة

لقد اتبعنا نفس المنهجية في توجيه نقدنا للمسوّدات التي تلتها سواء كان ذلك في التخطيط العام للحي أو في تخطيط وتصميم المساكن والوحدات السّكنية.

منهجيتنا في اختيار الامثلة المختلفة للمساكن :

انّ اختيارنا لنمط وشكل ومقاييس المساكن لم يكن اعتباطيا بل اعتمدنا في ذلك على :

1) المساكن الميزابية القديمة (في القصر والواحة)

2) المساكن الميزابية الحديثة الموجودة في حيّ بحيّو موسى والتي تمّ بناءها وتخطيطها بصفة ذاتية ممّا يعكس حاجيات ورغبات وتطلعات السكان بأكثر موضوعية.

3) المساكن اليهودية.

وذلك بعد عملية تجريد قمنا بها لعدّة أمثلة من هذه المساكن استخرجنا منها :

- نوعية التنظيم الدّاخلي للمسكن (بالرجوع الى العلاقات والممارسات العائلية)
- محتويات المسكن الميزابي (الثوابت والمستحدثات)
- المقاييس المعمول بها في المساحات والارتفاع سواء للمسكن عموما أو لفضاءاته المختلفة.

هذا الى جانب الأخذ بعين الاعتبار الوضعية المادية والاجتماعية للعائلات التي ستسكن فيها والتي أغلبها من سكان الحي الحالين والمتمثلة في :

- ضعف المستوى المادّي (دخل ضعيف، عائل واحد في العائلة...)
- حجم العائلة (من 6 أفراد الى 10 أفراد)
- الطبيعة الاجتماعية للسكان (متوسطوا الثقافة)، 49٪ أعمال مختلفة (بناء...)

كما اعتمدنا على الاصول الثقافية والعقائدية للمجتمع والتي منها :

- عدم التبذير والاكتفاء بالحاجة مع عدم نسيان جانب الراحة النفسية في البناء.
- مسألة حفظ العرض (الحرمة في البناء) الفصل بين مجالي المرأة والرّجل...

ـ حفظ النفس (مواد البناء)

هذا الى جانب اعتمادنا على الوضعية الاجتماعية والمالية للمجتمع.

ـ توفير امكانية اضافة غرفة أو بعض الغرف ان أمكن لصاحب المسكن ،أو أراد اسكان أحد أبنائه بعد زواجه ،ممّا يواصل في تدعيم تماسك العائلة ، ويقلّل من أزمة السّكن والانفاق الذى لا موجب له.

ـ الاستجابة لبعض الحاجيات والتحوّلات الحديثة بتليتها (توسيع المطبخ نظرا لاستعمال الآلات الحديثة فيه ،آلة تبريد ،الغسيل ...) .

ـ ايجاد مساحة خضراء داخلية ولو صغيرة لادخال نوع من الرّاحة النفسية في المسكن ولتساهم كذلك في تهويته مع استرجاع جانب من دائرة الواحة باعتبار عدم قدرة الكثير من سكّان هذا الحيّ امتلاك مسكن بالقصر وآخر بالواحة ،نظرا لحالتهم المادّية الضّعيفة.

ملاحظة

انّ للمسكن الميزابي والمسكن اليهودى قواسم مشتركة وعديدة ، وذلك باعتبارهما ينتميان الى النّمط المعمارى الموجود في حوض البحر الابيض المتوسط ،المتأثر بالمناخ الطبيعي للمنطقة...

ولكن ورغم ذلك فانّ هناك فروقات عديدة وعميقة سواء في النسب ،من حيث المساحة والارتفاع في عدد الغرف ونمط الواجهات وطريقة استعمال مواد البناء اضافة الى طبيعة الممارسات العائلية فيه (لا وجود لمجال نسائي وآخر للرّجال بالنسبة للمسكن اليهودى ،كما يفتقر هذا المسكن أيضا للفضاءات المميّزة للمسكن الميزابي (المصلى ، التيزفرى ...) .

تكلفة المساكن المقترحة

بالمقارنة مع تكلفة المسكن الذى أنجزه السّيد سليمان تيزوقاغين حيث كانت تقدّر بـ 1250 دج للمتر المربّع

المغطى فان المساكن تقدّر تكاليفها بحوالي :

- 100 000 د ٠ج بالنسبة للمسكن ذو الحجم الصغير (80 م²)
- 160 000 د ٠ج بالنسبة للمسكن ذو الحجم المتوسط (130 م²)
- 200 000 د ٠ج بالنسبة للمسكن ذو الحجم الكبير (160 م²)

وباعتبار أن بناء هذه المساكن سيتم بصفة جماعية وبمشاركة السّكان في اطار التعاونيات، فانّ هذه التكلفة يمكن أن تنخفض الى مستوى أقل من ذلك، ممّا يعتبر مناسبا جدّا للحالة المادّية لسكّان الحي ومقارنة مع التكلفة العادية للمساكن التي تقدّر بـ 2000 د ٠ج للمتر المربّع المغطّى، وخاصّة اذا أمكن الحصول على الاعانات التي يمكن أن توفّرها السّلطة من المرابيح التي تحصّلت عليها بعد بيع بقيّة الأراضي التي تمّت تهيئتها والبناءات التي تمّ انشاءها في الحي ٠

تركيبة المساكن المقترحة :

يحتوى المسكن المقترح على :

- مدخل على الأقلّ وزاوية للدّراجة أو الدّابة ،
- غرفة استقبال للرّجال (حجرة أو علي) ،
- غرفة جلوس للنساء (تزفرى) ،
- وسط الدّار ،
- مطبخ ،
- غرفة نوم على الأقلّ ،
- فضاء استحمام ومرحاض ،
- رواق (ايكومار) ،
- مساحة خضراء ،
- مخزن .

وأمّا النماذج المقترحة فهي تتراوح في الحجم بين 80م² و160م² وهي **المساحة الجميلة المغطـــاة** للمسكن بحيث لا تتجاوز المساحة الأرضية للمسكن الصّغير (80م²م) 60م² **أمّا المسكن الكبير** (160م²م) 90م².

وبذلك نتحصّل على ثلاث نماذج من المساكن وهي :

1) مسكن صغير الحجم 80م³ (مساحة مغطّاة) ،
2) مسكن متوسّط الحجم 130م³ (مساحة مغطّاة) ،
3) مسكن كبير الحجم 160م³ (مساحة مغطّاة) .

هذه الأحجام المختلفة والتي في مجملها لا تعادل المساحة المتوسّطة للمساكن الحديثة التي تتجاوز في بعض المدن الميزابية 300م² مساحة مغطّاة ،ثم اختيارها بالاعتماد على المستوى **المادّى** لسكّان الحيّ التي يعدّ ضعيفا ان لم نقل ضعيفا جدّا ،وبالاعتماد كذلك على معدّل عدد أفراد العائلة في الحيّ **والذّى** يتراوح بـــين 5 و 10 أفراد في العائلة الواحدة .

وبذلك يكون المسكن الصّغير الحجم معدّا لاستيعاب عائلة ذات 5 أشخاص ،
المسكن المتوسّط الحجم معدّا لاستيعاب عائلة ذات 7 أشخاص ،
المسكن الكبير الحجم معدّا لاستيعاب عائلة ذات 10 أشخاص .

البرنامج التفصيلي للمساكن المقترحة :

1) المسكن الصّغير الحجم (5 أشخاص)

المساحة الجملية المغطّاة = 80 م² ،
المساحة الجملية الضرورية = 70 م² ،
المساحة المخصّصة للحيطان = 15٪ من م ج ض .

أمّا المساحة ج ض فتنقسم الى :

- مدخل 1 م² ..... 1 م²
- زاوية للدّراجة أو للدّابة ..... 2 م²
- غرفة استقبال للرّجال ..... 6 م²
- وسط الدّار ..... 9 م²
- غرفة جلوس للنساء (تزغرى) ..... 6 م²
- غرفتان ..... 9×2 م²
- مطبخ ..... 4 م²
- ايكومار ..... 18 م²
- فضاء للصّلاة ..... 2 م²
- فضاء للاستحمام ..... 2 م²
- مرحاض ..... 1,5 م²
- مخزن ..... 2 م²
- مدرج ..... 6 م²

2) المسكن المتوسّط الحجم (7 أشخاص)

المساحة الجملية المغطّاة : 125 م²،

المساحة الجميلة الضّرورية : 109 م²،

المساحة المخصّصة للحيطان 15٪ من م ج ض .

تنقسم المساحة ج ض الى :

* مدخل	3 م²
* زاوية للدّراجة أو للدّابة	2 م²
* غرفة استقبال للرّجال	12 م²
* وسط الدّار	12 م²
* غرفة الجلوس للنّساء (تزفري)	8 م²
* ثلاث غرف	3×9 م²
* مطبخ	8 م²
* ايكومار	20 م²
* فضاء الصّلاة	3 م²
* فضاء الاستحمام	4 م²
* مرحاض	1,5 م²
* مخزن	3 م²
* مدرج	6 م²

3) المسكن الكبير الحجم : (10 أشخاص)

المساحة الجميلة المغطّاة : 160 م²

المساحة الجميلة الضّروريّة : 135 م²

المساحة المخصّصة للحيطان : 15٪ م ج ض .

تنقسم المساحة ج ض الى :

* مدخل ..... 4 م²
* زاوية للدّراجة أو للدّابة ..... 2 م²
* غرفة استقبال للرّجال ..... 15 م²
* وسط الدّار ..... 16 م²
* غرفة الجلوس للنّساء (تزقى) ..... 10 م²
* أربع غرف ..... 4×9 م²
* مطبخ ..... 10 م²
* ايكومار ..... 20 م²
* فضاء للصّلاة ..... 4 م²
* فضاء الاستحمام ..... 4 م²
* مرحاض ..... 2 م²
* مخزن ..... 4 م²
* مدرج ..... 8 م²

هوامش

(259)* ونجد هذه الأصول في القوانين المحددة للعمارة والموجودة في كتب

- أصول الاراضين : للشيخ أبي العباس أحمد
- التكميل لبعض ما أخلّ به كتاب النيل : للشيخ الثميني
- مختصر العمارات: للشيخ أطفيش

(260) تسجيل صوتي

(261) تسجيل صوتي

(262) تسجيل صوتي

(263) تسجيل صوتي

(264) يقول في ذلك في المحاضرة التي ألقاها بنيس (Nice) سنة 1983 والتي عنوانها
"L'érosion des traditions Sociales et des Arts traditionnels du Mzab"
" L'homme n'est pas "propriétaire" de Sa Fortune, il n'est que le gestionnaire de Dieu. Gestion dont il rendra Compte" ص62

(265) تسجيل صوتي

(266) انظر مثال التهيئة

(267) تسجيل صوتي (بتصرّف)

(270) لقد تحصّلنا على المعلومات والأرقام الواردة في هذا الفصل من دراسة قام بها مكتب الدّراسات العمرانيّة (URBATIA) سنة 1984

(271) Mutations urbaines en Algerie Cas de Ben Izgen au MZAB
th du doctorat de 3e Cycle : p.124

(268) الدّكتور علي شريعتي ، العودة الى الذّات

(269) انظر ما ينتجه في ميزاب بل في كلّ مدن العالم وما تجربة العمارة الحديثة (Arch - Moderne) السّتي وقع نسفها بعد أن ظهرت سلبياتها الا دليل على ذلك.

* (268) "هل نغرق جميعا في مفهوم موهوم مطلق واحد باسم البشرية ،فالبشرية والامميّة اليوم هي كذبة تريـــد أن تنكر شخصيتنا الثقافيّة والوجوديّةجميعا . لنذوب في بشرية موهومة كاذبة لا وجود لها . . . وعندئذ تكـــون الصّلة بيننا صلة السّيّد و المسود : صلة أحد جانبيها صفر اليد ، عامل وآلة ،والجانب الآخر مثر ورأسمالي " .

العودة الى الذّات ص 25 ,

- وأقول هذا : أن من الكذب أن يتمكّن شعب من الوصول الى مستوى الانتاج المعنوى والفكرى والثقافي " وان وصل فأنه على مستوى نوع مفروض غربي وبصورة خدعة واستعمار جديد . والا فالمجتمع المنتج هو المنتج الذى يفكّر بنفسه ،ويبدع بنفسه فكرته ،وذ هنه وقيمته ،ونظامه الطّبقي ،وتحيّره الجماعي . وهذا المجتمع هو الذى يصل الـى انتاج رأس المال وانتاج المدينة المادّيّة . "

العودة الى الذّات ص 18

الفهرس

المراجع

الفهرس

I التقديم

1) تقديم البحث 3

* مدخل عام، 3

* الاشكاليـــة، 4

* منهجية البحث. 5

2) المعمار والممارسة الاجتماعية 9

* تعريف الممارسة الاجتماعية، 10

* المعمار والممارسة الاجتماعية عموما 10

* المعمار والممارسة الاجتماعية في الحضارة الاسلامية. 11

II ميزاب : المعمار والممارسة الاجتماعية قديما وحديثا

1) خاصيات ميزاب 15

* المدخل التاريخي، 17

* الموقع الجغرافي والواقع المناخي، 22

* الطبيعة الفكرية والعقائدية. 25

2) المعمار والممارسة الاجتماعية في ميزاب قديما 31

* الممارسة الاجتماعية في ميزاب : طبيعتها واطارها، 32

* انعكاس الممارسة الاجتماعية على العمارة، 39

أ) في اختيار موقع بناء القصر، 39

ب) في تقسيم الأراضي، 41

44 ج) في الهيكلة العمرانية للقصر ·
59 د) في نموّ القصر ،
61 ى) في الطّرق والمسالك ،
71 هـ) في المنافع ،
86 و) في المسكن ·
110 * استنتاجات (استخراج الأسس والقواعد التي صاغت المعمار التاريخي في ميزاب)
117 3) عوامل التحوّل في ميزاب ومؤشراته
118 * مدخل نظرى ،
121 * مرحلة ما قبل الاستعمار ،
126 * مرحلة الاستعمار ،
135 * مرحلة ما بعد الاستقلال ·
144 4) المعمار والممارسة الاجتماعية في ميزاب حديثا
145 * الممارسة الاجتماعية الحديثة في ميزاب : التحوّل ،
150 * انعكاس الممارسة الاجتماعية الحديثة على العمارة ،
150 ـ الانتاج المعمارى ،
150 أ) المعمار "التلقائي" ·
157 ب) المشاريع الخاصة (المصمّمة من قبل مهندسين معماريين) ·
169 * السّلطة واستراتيجية التعمير
169 ـ المخطّطات التعميرية ،
169 أ) مخطّط رافرو (A. Ravereau)
174 ب) مخطّط سبير (Speer)
179 ج) مخطّط سيرو (C.E.R.U)

183 — البرامج المعمارية والمعمار المخطّط
183 أ) السّكن ،
194 ب) المنشآت العامّة .
201 * استنتاجات
218 III أبعاد الاشكالية المطروحة في ميزاب .
219 1) مقارنة واستنتاج
220 * الثوابت والمتغيّرات ،
220 — في الممارسة الاجتماعية ،
224 — في المعمار .
228 * استخلاصات .
232 2) كيف التعامل مع الواقع المعماري في ميزاب ؟
232 * تجربة سليمان تيزوقاغين .
241 * ملامح رؤيتنا (نظريا) .
244 I — التدخـــل
246 1) مدخل المشروع
246 2) منهجية التدخّل .
247 * الاطار العامّ للمشروع ،
250 * قراءة تحليلية لمجال التدخّل .
264 * الاختيارات العامّة للتدخّل .
265 * تحديد ضوابط التدخل .

* البرمجـــة .

. الفهرس

. المراجع

المراجع

تنقسم المراجع الى :

1) مراجع تاريخية

2) مراجع دينية

3) مراجع اجتماعية

4) مراجع معمارية

5) بحوث

6) دراسات

7) مخطوطات .

العنوان Nom de l'ouvrage	الكاتـب Auteur	دار النشـــر M- d'édition
1) المراجع التاريخية : فجر الاسلام	أحمد أمين	دار الكتاب العربي

ضحى الاسلام	أحمد أمين	دار الكتاب العربي 1969
ظهر الاسلام	أحمد أمين	دار الكتاب العربي
الاباضية بين الفرق الاسلامية	علي يحيى معمر	المطبعة العربية غرواية
الاباضية في موكب التاريخ	علي يحيى معمّر	المطبعة العربية غرواية
الاباضية	علي يحيى معمّر	المطبعة العربية غرواية
الدّولة الرّستمية	بحّاز ابراهيم بكّير	مطبعة لا فوميك الجزائر 1985
القبائل والأرياف المغربية في عصر الوسيط	محمّد بن حسن	دار الرياح الاربع للنشر تونس 1986
أبو يعقوب يوسف الورجلاني والمدارس الكلاميّة	بكّير سعيد أعوشت	

L'AFRIQUE du Nord FRACAIS DANS L'HISTOIRE DU VII AU XIX Siecle	GEORGE MARCAIS	ARCHAT 1937
المنظور التاريخي للعمارة في المشرق العربي	الدّكتور عبد الباقي ابراهيم الدكتور حازم مهد ابراهيم	مركز الدّراسات التخطيطيّـــة والمعمارية جامعة الامم المتحدة
المجتمع والتاريخ	مرتضى مطهّري تعريب : محمّد علي آذرشب	مكتبة الجديد تونس
2) المراجع الدّينية : ـ القرآن الكريم ـ السّنة النبوية الشّريفة		
ـ الذهب الخالص	الشيخ محمّد بن يوسف طفيش	طبعة البعث قسنطينة 1980 الجزائر.
ـ كتاب الوضح في أصول الفقه	أبو زكريا يحيى ابن أبي الخير الجناوني . نشره وعلّق عليه ابراهيم اطفيش	مطبعة الفجالة الجديدة غرداية
ـ أبو يعقوب يوسف الورجاني والمدارس الكلامية الاسلامية.	بكير سعيد عوشت	المطبعة العربية غرداية 1987

ـ شرح النيل	الشيخ محمّد طفيش	
مقدمة التوحيد	أبو حفص عمر بن جميع	المطبعة العربية غرداية 1978
دراسات اسلامية في الاصول الاباضية	بكير سعيد عوشت	مطبعة البعث ـ قسنطينة الجزائر 1982
شامل الأصل والفرع	محمّد بن يوسف اطفيش طبعه وحققه ابراهيم اطفيش	المطبعة السّلفية مصر القاهرة سنة 1929
قواعد الاسلام	أبي طاهر اسماعيل الجيطالي صححه وعلّق عليه بكلي عبد الرّحمان بن عمر	المطبعة العربية غرداية 1976
فقه الامام جابر بن زيد	تقديم وجمع وتخريج يحي محمد بكّوش	المطبعة العربية غرداية 1988
نظام العزّابة عند الاباضية الوهبية	فرحات الجعبيري	تونس 1975
3) المراجع الاجتماعية : ـ المقدمة	عبد الرحمان بن خلدون	منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت لبنان
Urbanisme et Société.	Louis Vander Swaelmen Dépréés Haumen Slynen	Pierre Mardaga. 1968

ـ المدينة الاسلامية	U. N. E. S. C. O.	السيكومور فجر 1983
ـ المدينة الاسلامية	د ٠ محمّد عبد السّتار عثمان	سلسلة عالم المعرفة عدد 128 1988 مطابع الرسالة الكويت
ـ مجتمع المدينة	د ٠ عبد المنعم شوقي	دار النهضة العربيـــة بيروت 1981
ـ الثقافة والشخصية	د ٠ سامية حسن الساعاتي	دار النهضة العربية بيروت 1983
ـ خواطر حول الوضعية الاجتماعية والعلاقات الانسانية في غرداية	مصطفى ابراهيم رمضان	غرداية
LE. MZAB les Pratiques de l'espace.	IBRAHIM Ben youssef-	Entreprise Nationale du livre. ALGER.
ـ العودة الى الذات	الدّكتور علي شريعتي ترجمة وتعليق : عبّاس ترجمان	مكتبة الجديد تونس
ـ الاسلام والمدينة الحديثة	أبو الأعلى المودودى	دار لقمان للنشر
ـ العائلة الميزابية : البنيـــة التقليدية والتحوّلات الحديثة	هبة الحاج رمضان	مشروع تمهيدى لرسالة ماجستير علوم اجتماعية 1987/1986 جامعة الجزائر معهد علم الاجتماع

ـ ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية	مالك بن نبي	اصدار ندوة مالك بن نبي
ـ ميزاب بلد كفاح دراسة سياسية اجتماعية	ابراهيم محمّد الطلّاى	دار البعث ـ قسنطينة الجزائر ـ 1970
ـ اتفاقات عمّي سعيد	مجلس عمّي سعيد	لسخ
4) المراجع المعمارية : ـ تطوّر الفكر المعمارى في القرن العشرين	د . محمّد محمود عويضة	دار النّهضة العربية للطّباعة والنشر بيروت 1984
ـ فن تخطيط المدن	روبير أوزيل	منشورات عويدات بيروت سلسلة زدني علما 21
Systeme urbain et developpement au Maqreb	C.E.R.E.S Production	Horizon Maghrebin
L'Architecture au Yemen du Nord.	Suzane et Max Hirsch	Berger. Laroult
Habiter le Desert	Didillon ; Donnadieu	Pierre Mardaga 1978
Lumière du MZAB le MZAB.	Claude Pavard Manuelle Roche	Edit - Delvaisse

Le MZAB: Une leçon d'architecture	A. Raveneau	Sindubad. 1981
l'image de la Cité -	Kevin Lyntch	Edit - Dunod
Construire avec le peuple.	Hassan. Fathi	Sindubad 1970
ـ العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها	د . فريد محمود شافعي	عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود الرّياض 1982
ـ عمارة الصّحراء دراسة مقارنة بين واحات (سيوط "مصر" ،غرداية تونس)	اسامة النحاس	مكتبة الانجلو المصرية النهضة العربية
ـ محاضرة في ندوة العمران والعمارة في الحضارة الاسلامية 3/2/1 نوفمبر 1987 بالقيروان ـ تونس	الدّكتور عبد الباقي ابراهيم	
ـ التكميل لبعض ما أخلّ به كتاب النيل	الشيخ عبد العزيز بن ابراهيم الثميني صححه ونشره : محمّد بن صالح الثميني	مطبعة العرب تونس 1925

5) البحوث :		
ـ نحو تأصيل العمارة الاسلامية	عبيد السّبعي	أطروحة مرحلة ثالثة
ـ تحليل لفضاء معماري	الحبيب عبد الناظر	هـ.م 1982
ـ تحديد الثوابت والمتغيّرات في العمارة المدنية العربية الاسلامية ومحاولة تطبيقها في منشأ معاصر	عامر بن فطوم	هـ.م 1982
ـ حركة الاستقرار والنتاج التعميري والعمراني بسهل جفارة	علي شنيتر ومحمّد اللّومي	هـ.م 1982
ـ من أجل بناء منهجية لدراسة المعمار العربي الاسلامي	ليلى رجب	هـ.م 1986
Habitat Sud Saharien et developpement	Farhat Makni	هـ.م 1987
ـ نحو تشكيل عقلية جديدة للتفاعل مع الحيز العربي الاسلامي	خالد الأزعر وزهير منّجة	هـ.م 1987
le process us d'urbanisation et les transformations Sociales au "HEAB" "ALGERIE"	الدّكتور ابراهيم بن يوسف	1987 " "
		1983 " " thèse de Doctorat du 3°C Université Paris - Sorbonne (Paris IV)

6) الدّارسات :

ـ نشأة دولة الخوارج بالمغرب	محمّد ابن تاويت	مجلّة البحث العلمي عدد 5 المغرب
Contribution à l'Etude de l'habitat de MZAB.		Cahier des arts et techniques d'A.F.N 1974 STD Edit
Les nouveaux Sitadins de Beni Isgan MZAB. (Algerie)	Christian Bousquet	Petites villes et villes moyennes dans le monde Arabe. URBAMAT. 16.17.1986
la petite ville et sa place dans le developement Algerien	Marc Cote	" "
Role et Place des petites villes dans la dynamique du Syteteme urbain Algerien	Annicle. GAIDON	" "
ـ المدن التاريخية وسبل الحفاظ عليها واحيائها	توميسلاف ماراسوفيج	سلسلة الصّيانة العلمية عدد 4 بغداد 1985
ـ دراسات		مجلة مجتمع وعمران مختلف الاعداد
ـ مسألة المدينة والمدينة العربية	مجلة الفكر العربي	عدد 29 1982
ـ مجموعة مقالات ودراسات	مجلة المقاصد	مختلف الأعداد
ـ Monographie du MZAB (khaverdjsme)	Marthe et Edmond Gouvion	Casablanca 1926
ـ Urbanisation ; reseaux urbains - regionalisation au Maghreb	Equipe de recherche associée N° 706. C.N.R.S (Tours)	Poitiers
ـ الاسلام وفن العمارة	اسماعيل الفاروقي	the muslim scientist
ـ الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية	أحمد مختار العبّادي	عالم الفكر
ـ الاصالة والجمال في فنون العمارة والزخرفة العربية الاسلامية	د. عبد القادر الريحاوي	

التراث العمراني والمعماري العربي الاسلامي : مناهج دراسته وطرق صونه	محمد الباهي	مجتمع وعمران العدد السادس سنة 1985
مفهوم عملية التجديد الشاملة داخل نشأة المعماري قديم	محمد الباهي	مجتمع وعمران العدد الرابع سنة 1983
موقف ازاء التراث	د . عماد الدين خليل	
المعمار الاسلامي	د . غاسبري ميسانة	
الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية	سعيد عبد الفتاح عاشور	عالم الفكر
الاباضية	تادوز لويكي ترجمة : يحيى بكوش	1984
L'évasion des traditions Sociales et des Arts traditionnels au M2AB	سليمان تيزوقاغين	محاضرة بنيس سنة 1983
مثال التهيئة التعميرى 1962 / 1972	أندرى رافيرو	نسخة أصلية بمكتب الدراسات والصيانة بغرداية

Rapport Conservant le P.D.U de Speer-plan 1988 / 1973	مكتب الدراسات والصيانة لعمار وادى ميزاب	نسخة 1979
مثال التهيئة التعميرى بغرداية 1983	مركز الدراسات والبحوث المعمارية والتعميرية	نسخة أوّلية (قبل المصادقة) ببلدية غرداية
دراسة على حي قدماء المجاهدين	U.R.B.A.٥٢.٢٨	نسخة من 1983
6) المخطوطات: ـ العنوان	الكاتب	مكانه
ـ أصول الأراضين (نسخة أصليّة)	ابو العباس أحمد متوفي سنة 504 هـ	مكتبة الشيخ صالح لعلي ببني يزقن
ـ ترتيب نوازل نفوسه (نسخة أصلية)	امحمّد بن يوسف اطفيش	مكتبة الشيخ صالح لعلي بني يزقن
ـ مختصر العمارات (نسخة مصوّرة)	امحمّد بن يوسف اطفيش	مكتبة الشيخ اطفيش (القطب) بني يزقن
ـ الرسالة الشافية (نسخة مصوّرة)	امحمد بن يوسف اطفيش	على ملك عائلة مطياز

لـــقـــاءات

مـــراجـــع صوتيـــة

تسجيـــلات

1) ميزاب قديما

اليوم والمكـــان	الشخص والوظيفة	الموضوع
88 / 11 / 13 العطف	الشيخ سليمان بن يوسف ـ مؤرخ ـ	ـ تاريخ ميزاب ـ حركة الشيخ بيوض الاصلاحية
88 / 11 / 29 بني يزقن	الشيخان : بابانو والطلاى ـ عنصران من مجلس عزابة بني يزقن	ـ الحياة الاجتماعية في ميزاب قديما
غرداية	السّيد : عبد الرحمان حوّاش مدير مدرسة الاصلاح بغرداية	ـ الامثال الشعبية الميزابية
88 / 11 / 17 غرداية	الحاج بابكر ـ أمين بنّاء قديم خبير ومستشار لدى محكمة غرداية ، مهندس مساعد ـ	ـ خصائص المسكن التاريخي في ميزاب والقوانين التي تتبعه ـ مواد البناء المحلية
88 / 11 / 26	الحاج زرقون ـ أمين بناء ـ	ـ خصائص المسكن التاريخي في ميزاب والقوانيي التي تتبعه

88 / 11 / 18 بني يزقن	السيدان : محمد وصالح مطياز فلاحان	ـ الواحة
88 / 11 / 12 غرداية	السيد : ياسين بلشطر ـ المهندس المسؤول عن مكتب الدراسات والصيانة لمعمار وادى ميزاب	ـ المعمار التاريخي الميزابـي خصائصه ومميزاته ـ مهام مكتب الدراسات وطرق عمله
88 / 11 / 24	السيد : يحيى بوراس بصدد اعداد ماجستير في علم الآثار حول العمـارة بميزاب	ـ العمارة الحربية والدفاعية عناصرها وأساليبها ٠

2) التحـــول

اليوم والمكان	الشخص والوظيفة	الموضوع
الجزائر	٠ الدكتور: ابراهيم بن يوسف ٠ استاذ بالمدرسة المتعددة التقنيات للهندسة المعمارية والتمدين بالحراش	ـ التحولات الاجتماعية والعمرانية بميزاب
88 / 11 / 16 العطف	٠ الاستاذ : هبة الحاج رمضان ٠ مدرس ويصدد اعداد الماجستير في العلوم الاجتماعية حول العائلة الميزابية البنية التقليدية والتحوّلات الحديثة	ـ التحوّلات الاجتماعية في ميزاب

88 / 11 / 13	• أحد المواطنين "الحاج" – تاجر –	– هدم مسكنه الذى ورثه والذى يوجد بالقصر وهو ذو نمط تاريخي أصيـــل وذلك من أجل تعويضه بمسكن جديد في الطابق الأرضي حسب نمط متناقض مع ما كان عليه سابقا (الاسباب، ... الاهداف)

3) ميزاب حديثا

غرداية	• السيد : قاسم بوشيشة • المسؤول عن مصلحة التعمير ببلدية غرداية	– المخططات التعميرية – برامج السلطة العمرانية في ميزاب – واقع وآفاق المعمار الحديث
88 / 11 / 28	• السيد : بريبهمات	– واقع وآفاق المعمار الحديث في ميزاب

اليوم والمكان	الشخص والوظيفة	الموضوع
88 / 11 / 25 بني يزقن	• السيد سليمان تيزوڤاغين • مهندس كرهربا' • صاحب ورشة تطوير الفنون والعناصر التقليدية	– تجربة بنا' مسكن اقتصادى وأصيل

المشروع		
غردايه	• امام مسجد حي قدماء المجاهدين • مدير مدرسة	— حي قدماء المجاهدين تاريخة خصائصه وضعيته

بسم الله الرحمان الرحيم

* تخريج أحاديث الغلاف *

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :

1.«« إن المؤمن يؤجر في نفقته كلها إلا شيئا يجعله في التراب »»

2 «« من بني قنطرة كمن بني ستين رباطا بقزوين و أنفق ألفي دينار في سبيل الله و كتب الله له بكل درهم أنفقه في عمارة ستين حسنة و رفع له ستين درجة »»

روى ابن ماجه و البيهقي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه ،قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : «« إن مما يلحق المؤمن من عمله و حسناته بعد موته : علما نشره ، وولدا صالحا تركه ، ومصحفا ورثه ، أومسجدا بناه ، أو بيتا لابن السبيل بناه ، أو نهرا أجراه ، أوصدقة أخرجها من ماله في صحته و حياته تلحقه من بعد موته »» قال المنذري اسناده حسن ورواه أيضا ابن خزيمة .

وروي مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و البخاري في الأدب المفرد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ««اذا مات ابن آدم - و في رواية الانسان- انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم يُنتفع به ، أوولد صالح يدعو له »».

قال في كشف الخفاء و مزيل الالتباس ، عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس للشيخ اسماعيل بن محمد العجلوني المتوفى سنة 1126 هقال رحمه الله : وزاد بعضهم علي ذلك أشياء وردت في أحاديث ، و نظم الجميع الجلال السيوطي بقوله :

اذا مات ابن آدم ليس يجري	عليه من خصال غير عشر
علوم بثها - و دعاء نجـــــل -	و غرس النخل - و الصدقات تجرى
وراثة مصحف - ورباط ثغر -	و حفر البئر - أوإجراء نهر
و بيت للغريب بناه يأوى	اليه - أو بناء محل ذكر -
و تعليم لقرآن كريم -	فخذها من أحاديث بحصر -

3. << إذاأراد الله بعبد شرا أهلك ماله في اللبن و الطين >>
روى الطبراني و الخطيب عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :<< إذا أراد الله بعبد شرا خضّر له في اللبن و الطين حتى يبني >>
حديث ضعيف

4 ﴿من بني فوق ما يكفيه جاء يوم القيامة حاملا له على عنقه﴾

روى الطبراني في حلية الأولياء عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :
<< من بني بناء فوق ما يكفيه كُلِّف يوم القيامة أن يحمله على عنقه >>
حديث ضعيف .

5.<< كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بدّ منه >>
رواه أبو داود عن أنس بسند صالح .

6﴿من بني فوق عشرة أذرع ناداه مناد من السماء يا عدو الله أين تريد >>
رواه الطبراني عن أنس .

حديث ضعيف .

7 << من بني بيتا يعبدالله فيه من حلال بني الله له بيتا في الجنة من درّ و ياقوت >>
روى ابن ماجه و ابن حبان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال << من بني مسجدا يذكر فيه اسم الله بني الله له بيتا في الجنة﴾

حديث ضعيف .

قام بتخريج هذه الأحاديث
الشيخ حامد بوعتور



بيتا لا يضر بجاره جاز له هدمه وجاز ان ادرك عليه صغير
ولم يعد ما طيب ولا يجوز له الا ان اشفقا عليه انه ليس ان
يدخل الضرر على جاره وقد ادركا كذلك والله اعلم
وصلى الله على محمد وسلم ان المومن يوجر
في نفقته كلها الا شيئا يجعله في التراب يعني يبني فوق
ما يكفيه او يبني حجرا وقال من بنى مخطرة كجدار بنى مشتد
رباطا بقرون وانفق الغني في بنائه سبيل الله وكتب الله
له بكل درهم انفقه عمارة ستين حسنة وزيد له
ستين درجة وقال اذا اراد الله بعبد شرا اهلكه قال
في البنيان والطين وقال من بنى فوق ما يكفيه جاء يوم
القيامة حاملا له على عنقه وقال كل بناء وبال على صاحبه
يوم القيامة الا ما لا بد منه وقال عن بنى فوق عشرة اذرع
نادى مناد من السماء يا عدو الله اين تريد اي ان كما
فوق ما يكفيه ولو حجرا وقال من بنى بيتا يعبد الله فيه من
خلال بنى الله له بيتا في الجنة من درة ياقوتة بسامها
خيطان الا حسنة او غيرها ان اراد فقوله ان يبنوا حائطا لا رفعه
يجعلوها اجنة او دورا وان كان انبر دكل متضع بالعلم